فيصل

الإنسان الحاكم
مكانة في السلطة

تأليف
بنوا ميشَان

تعريب
رمضان لاوند

فيصل ... الإنسان الحاكم

بعد ابن سعود، مؤسس المملكة، وبعد ولاية الملك سعود، لا تبدو صورة الملك فيصل في الجزيرة العربية أقل الصور الثلاث خلابة واستهواء. ولد في الرياض عام ١٩٠٦، في بيئة لا يبدو أن شيئاً تغير فيها منذ الماضي السحيق، وقد قدر لابن الصحراء ، أن يعرف كأبيه فيما بعد، مصيراً غير عادي.

في شبابه الأول كانت ثروة الجزيرة العربية كلها مستوعبة في حقيبة واحدة. أما اليوم فإنها تتجاوز إلى حد بعيد كل إحتياطات الذهب المكنوزة في كل المصارف المركزية للبلدان الغربية.

كيف أصبح فيصل، خطوة خطوة ، واحداً من أكبر زعماء الدول وأكثرهم قوة وغنماً في العالم كله؟ كيف أصبح رجلاً مزوداً بمثل هذا السلطان الأدبي بحيث أن أصواتاً بدأت ترتفع في صميم العالم الإسلامي تطالب بمنحه لقب الخلافة الرفيع؟ كيف توصل هذا الرجل الصامت المتكتم، إلى أن يشغل مكانة كانت ستتيح له، تبعاً لعباراته الخاصة أن (يحدد سياسة العالم العربي لخمس و عشرين سنة قادمة)، لو لم يتعرض للقتل من قبل ابن أخيه، في اليوم نفسه الذي كان يحتفل فيه بمولد النبي؟

هذا هو التاريخ الذي سنجده في هذه الصفحات ، إنه تاريخ مدهش ما كان لمؤلف ألف ليلة وليلة أن يتخيل مثيلاً له.

بنوا ميشان

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا: info@RamadanLawand.com

فيصل

الإنسان الحاكم

مكانهُ في العالم

(١٩٠٦ – ١٩٧٥)

تأليف: بنوا ميشَان

تعريب : رمضان لاوند

صدر هذا الكتاب باللغة الفرنسية عن دار ألبان ميشال للنشر بعنوان:

FAYCAL, ROID' ARABIE

Benoist – Mechin

كل الحقوق لأنحاء العالم باللغة العربية محفوظة لدار أسود للنشر و
سيلاحق جزائياً كل محاولة تعرض لحقوق الملكية الأدبية الحصرية
العائدة لدار أسود للنشر و لصاحبها كريم أسود و من يمثلان

Editions Albin Michel, ١٩٧٥

٢٢, rue Huyghens, ٧٥٠١٤ Paris.

ISBN ٢-٢٢٦-٠٠١٨٩-١

فيصل عاهل السعودية

مقدمة المعرّب

إذا كان عبد العزيز بن سعود قد وضع أحجار أساس لمملكة واسعة الأرجاء ثابتة الأركان بعد فترة طويلة حفلت بالكثير من المتاعب والانتصارات والهزائم، وبدت في طموحها وأبعادها الدينية والحضارية، واحة تستقطب أحلام الأجيال العربية والإسلامية المتعاقبة منذ أوائل القرن العشرين، فإنّ فيصلاً، ولد عبد العزيز، قد فعل ما يفعله التالي في مسيرة هذه المملكة بعد أن شهد لعدد كبير من السنين مشاهد مخاضها المؤلم الشديد، فتعلّم على يد والده ما لم يكن يعلم، ثمّ شارك في حدود ما أتيح له من الفرص في تدعيم القواعد المرتفعة وتثبيت الأحجار الموضوعة وسقاية المعدن الصلب الذي تميّزت به بُنية هذه المملكة.

إنّ عبد العزيز رحمه الله قد أخرج هذه الدولة إلى الدنيا كائناً سويّاً وكشف عمّا تحتويه عناصرها البشرية من إرادة الصمود من ناحية، وعمّا تحفل به أطماحها من أحلام التقدّم والإيمان بالنصر... أما فيصل فقد جاءت به العناية الإلهية ليكمل ما بدأه والده بالرعاية الحادبة والذكاء الحادّ ومهارة الطبيب البارع والرؤية الواضحة للعقل المخطّط وحرارة الإيمان بالرسالة التي ملأت عليه قلبه وعقله.

والجدير بالذكر أنّ فيصلاً قد شهد منذ الثالثة عشرة من عمره أوّل تجربه له في مواجهة الدبلوماسية الدولية بكلّ ما تشتمل عليه من الدهاليز والممرات الملتوية المتعرّجة، وبكلّ ما يشيع فيها من الظلام والضياء. كان فيها كما في التجارب التالية يستضيئ بالتعاليم التي يزوّده بها والده العظيم، ويستلهم العقيدة الراسخة التي استمرّت تقود خطواته في المواقف الصعبة والسهلة وأمام المعضلات التي تعترض طريقه... كان يسكت حين يكون السكوت حكمة... فإذا تكلّم لم يغلبه لسانه فلا يقول إلا في حدود المعنى الذي يريد أن يعبّر عنه... وكان يحسن الوقوف حيث يجمل به الوقوف... ويمشي حيث يجد في المشي مصلحة لبلاده... وقد يدور دورة واسعة ويتّخذ درباً متعرّجاً في الطريق إلى المستقبل دون أن يغيب عنه الغرض البعيد الذي يعمل على الوصول إليه ودون أن تنبهم الرؤية أمامه.

ولا عجب في ذلك فالقادة من الرجال، على صـــورة فيصـــل، يتميّزون دائماً بأنّهم على ثقة من شـــيئين اثنين: أولاً: الهدف الذي يعملون من أجله. ثانياً: ثبات الأرض التي يقفون فوقها. وممّا يلفت النظر أنّ فيصـلاً قد صـنع فلسـفته في التعامل مع الناس، ووعى عقيدته في التعامل مع ربّه، من خلال متابعته الدقيقة لحياة المعلّم الأول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. لقد تعلّم منه خلق الحفاظ على العقيدة والصبر في الشدائد والالتزام لتعاليم الدعوة إلى الله والمعاقبة بين اللين والشدة... يلين حين يكون اللين حكمة... ويشتدّ حين تكون الشدّة ضرورة... وهو في كليهما حيث وضع نفسه من مسؤوليات الدعوة إلى الله ومن التزامات السياسة وضروراتها...

ولو شئنا أن نستعرض الأحداث الكثيرة التي مرّت به والمواقف التي وجد نفسه فيها لظهر أمامنا شريط حافل بالألوان من التصرّف والسلوك، مع التصميم الدائم على تدعيم أركان الدولة وتثبيت قواعد الدعوة التي نذر نفسه لخدمتها، وقرّر أن يجعل من عقله وقلبه وروحه ومن مقدّرات الدولة نفسـها شـيئاً لخدمة هذه الدعوة الكريمة.

وممّا يلفت النظر أنّ فيصلاً رحمه الله قد فعل ما يفعله في العادة النخبة من صانعي الدول... ولو قد بادرت إلى تعداد هذه الأفعال لكان في مبادرتي شيئ من التجاوز للمؤلّف، بنوا ميشان، الذي عايش صاحب الترجمة وتابع كلّ كبيرة وصغيرة في حياته التي أمضاها فوق مسرح الأحداث أو من وراء ستار، ثمّ سجّل كلّ ما وقعت عليه عيناه، ووضع في اعتباره وأدخل في معاييره جملة المواقف، حتى ما يظن أنّه من توافه الأشـــياء، اعتقاداً منه بأنّ أخلاق الناس العميقة لا تبدو بكامل أبعادها في بعض الأوقات إلا في المواقف الصغيرة اليومية.

ولو شاء مؤرّخ من المؤرخين أن يصنّف مواقع فيصل رحمه الله لوضع تلك التي وقعت في السنوات الأخيرة من حياته والتي تولّى فيها مسؤولية العرش السعودي في القمة من المواقع. لقد شهد في تلك الفترة أشـدّ التحدّيات وأبرز العقبات، وعانى من المتاعب ما تنوء به العصبة من الرجال. يكفي أنّه قد وفّق إلى

تجديد شـباب المملكة وانتزاع دورها القيادي، لا في حدود العالم العربي وحسـب، بل في الميادين الدولية أيضـاً. ومن خلال هذا التجديد وبفضـله انطلقت الدولة في رعايته، وبتشـجيع منه تعمّر أرض الجزيرة العربية وترفع القواعد من المؤسسات التربوية والصحية والاجتماعية ولا سيّما الاقتصادية منها.

إنّ قصـة الإعمار في عهد فيصـل أكبر كثيراً من أن يتّسـع لها كتاب ضـخم، ناهيك عن مقدّمة يقصد بها التمهيد لكتاب عن صاحب الترجمة رحمه الله. وبذلك فإنّني أقتصر على القول بأنّ هذه القصة في حقيقتها مفخرة من مفاخر فيصـل بن عبد العزيز رحمة الله. فهو المخطّط وواضـع حجر الأسـاس والقدوة الطيبة لمن يجيئ بعده من الرجال.

ويطيب لي قبل أن أتوقّف عن الكتابة في سطور هذه المقدّمة أن أقول:
يكفي أن يكون مؤلّف هذا الكتاب الذي أقدمه إلى القارئ الكريم بعد تعريبه بالدقّة الممكنة، هو أسـتاذ بنوا ميشـان، المؤرّخ والكاتب السـياسـي والمتخصّـص في التأريخ لأعظم الرجال. وهو نفسـه الذي أرّخ لمؤسس المملكة العربية السعودية المغفور له عبد العزيز بن سعود وسلّط الضوء على الجوانب الأصيلة في شخصية القائد وشعبه.

لقد فكّر بنوا ميشـان فأحسـن التفكير... وتابع الوقائع بأمانة العالِم فأحسـن المتابعة... ثم عقد المقارنات وحلّل الوقائع ونسّـقها وربط بين الحاضـر والماضـي. كما سـلّط الضـوء على الأبعاد المستقبلية للظاهرة التاريخية الفريدة المتمثّلة في الدولة الناشـئة، وفي الرجلين الذين تعاقبا على العرش، وكان بذلك صـاحب القلم المبدع والرؤية الذكية الممزوجين بروح المحبة والرغبة في الوفاء لرجولة الكبار من الناس وأخلاقهم الفريدة.

أرجو أن يجد قارئ هذا الكتاب ما يبحث عنه في شخص المترجَم له، المرحوم جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز، وأن يطمئنّ إلى تحقيقات المؤلف، وأن يكون راضـياً عن تعريب المعرّب. فقد حاول كلّ

من الأول والثاني أن يعمل وســـعه قياماً بواجبه نحو مادة هذا الكتاب الذي يســـعدني أن أقدّمه بهذه المقدّمة. والله أسأل الرعاية وقصد السبيل.

المعرّب

رمضان لاوند

الباب الأول

من ولادة فيصل...

حتى وفاة ابن سعود

(1906 – 1953)

حاج بين كثيرين غيره...

الرأس عار... والقدمان عاريتان تنتعلان زوجاً من الصنادل، والوجه محوّط بلحية صغيرة سوداء بدأت تظهر فيها خيوط من الفضة، ثمّ رجل يتقدّم بخطوات وئيدة نحو البيت الحرام في مكة... طويل، ممشوق، لكنّه في الظاهر هشّ قليلاً، إنّه متلفّع بقطعتين من قماش الموسلين غير المخيط، ذي البياض الناصع الذي لا شائبة فيه. وهو لا يحمل سلاحاً، ولا جواهر، ولا أية زينة. ليس معه غير ما سيحمله معه إلى القبر، ذلك لأنّ هاتين القطعتين من القماش ستكونان له كفناً بعد وفاته. إنّه الإنسان في أبسط ما يعبّر به عن نفسه، تماماً كما سيمثل أمام خالقه يوم الحساب الأخير. لا شيئ يميّزه عن عشرات ألوف الحجاج الذين يحيطون به. فكيف نفسّر إذاً، همسات الاحترام التي ترتفع على آثاره، والرعاية في الحركات التي يبتعد بها المؤمنون عنه ليفسحوا له الطريق أمامه؟

هذه كلّها تجد تفسيرها في أنّ هذا الرجل ذا الوجه النحيل والخطو المتشامخ هو فيصل ابن عبد العزيز آل سعود، ملك الجزيرة العربية، وحارس المدينتين المقدّسيتين، سيّد نجد والحجاز، وعسير والأحساء، أحد أكثر الحكام غنى وأقواهم في الأرض، في ذلك النصف الثاني من القرن العشرين. كلّ هذا يعرفه الرجال الذين يحيطون به، رغم أنّ العالم لا يبدو أنّه قد أخذ علماً بذلك. ومردّ هذا الأمر إلى أنّ أسرته الحاكمة قد حقّقت قفزتها بسرعة تتحدّى مخيلة الإنسان.

تربية فيصل وشبابه

لم يكن في وسع أحد أن يتنبأ بما يخبّئه له المستقبل، ولا بالتحوّلات التي ستتعرّض لها بلاده خلال نصف القرن القادم، حينما ولد في مدينة الرياض، في قلب الصحراء التي تغطي الجزء الأوسط من شبه الجزيرة العربية. كان أبوه عبد العزيز في السادسة والعشرين من عمره. أمير نجد وإمام المسلمين ممّن هم في غالبيتهم من السلفيّين، وهم أكثر الفرق تقشّفاً وتزمّتاً في الإسلام – إنّه شاب هرقلي القوة (طوله متران وسبعة سم). محارب لا تهنُ له عزيمة، فيه من الشجاعة قدر ما فيه من الصلابة، وهو بالإضافة إلى ذلك قد وهب حسّاً سياسياً بالغ الحدّة. هذا وسيرزق فيما بعد بأربعين ولداً –كان فيصل رابعهم – وسيقول

البدو النجديّون يوماً (أنّه أورث كلّ واحد من أبنائه صفة من صفاته الغالبة). هذا يعني أنّ رفاق السلاح يعرفون له الكثير من الصفات والخصائص الممتازة.

في الســاعة التي ولد فيها فيصــل، كان أربعة من الأوروبيين وحســب قد نجحوا في النفاذ إلى هذا البلد اللاهب. وأوّلهم هو الســيد بول دولاســكاريس، الذي وجب أن يظهر حول عام 1811. إنّه رســول نابوليون السري. لقد جاء يقترح على سعود الكبير، جدّ هذه الأسرة (1765 -1814) أن يضمّ قوّاته إلى قوات نابوليون لتحرير بلاده من الوصـــاية المزدوجة لكلّ من الأتراك والانكليز. والجدير بالذكر أنّ سلطان نجد قد أغري بهذا المشروع لأنّه يحلم (بإعادة وحدة الشعب العربي) فجمع قواته وسار نحو العراق (1812). لكنّ الذي حدث في ذلك الوقت تقريباً أنّ قوة نابوليون قد تمّ اجتياحها وطردها بعواصـــف الثلج في بيريزينا. أمّا فيما يتعلّق بسعود الكبير، فقد هُزِم من قِبَل نائب الملك في مصر محمد علي، ثمّ دُفِع به وبأبنائه إلى أتون الصحراء الوسطى، ثم هلك وقد أصابته جراح مميتة، عند حصون الطائف ديسمبر (كانون الأول 1814). هكذا بدا أنّ الجليد والنار قد اجتمعتا على تحطيم الحلف الفرنســـي – العربي بعد ظهوره بقليل.

ومع ذلك فإنّ مقاومة العرب للأتراك لم تتوقّف. لقد تتابعت في أثناء القرن التاســـع عشـــر كلّه، على امتداد طريق رفعت فوقه شواهد معارك ضارية، وتلطّخ بدماء الأبطال والشهداء.

وفي عام 1918 نقل إلى القسطنطينية عمّ سعود الكبير الذي عاد إلى حمل شعلة الثورة بعد وفاة ابن أخيه وقطعت رأسه فوق ساحة مسجد آيا صوفيا، وقد لقي من بعده كلّ من تركي ابن عبد الله وفيصل ابن تركي مصيراً يدعو إلى الرثاء. وفي عام 1980 تقريباً طرد عبد الرحمن ابن فيصل من بلاد نجد وجرّد من كلّ أملاكه. إنّها هي المعركة التي اســتأنفها ولده عبد العزيز (1880 – 1953) لحســابه حين بلغ السنّ التي تسمح له بحمل السلاح. ذلك أنّه قد أقسم، ولما يجاوز الثانية عشرة من عمره، على أن ينتقم لأســلافه، وأن يســتردّ تراث آبائه وأجداده، وأن يعيد إلى أســرته مكانتها القديمة وأن يصبح يوماً سـيّد

الجزيرة العربية كلّها، وهو كما نرى حلم غير معقول لصبي في مثل هذه السنّ لا يملك من متاع الدنيا غير جمل هزيل.

ومشى بعد ذلك بثمانية أعوام إلى الرياض، بائساً محروماً من كلّ شيء، لا رأس مال له غير شبابه وحماسته وثقته التي لا حدّ لها بالرعاية الإلهية، على رأس أربعين من البدو المسلّحين بالخناجر والبنادق البالية، واستولى على المدينة بمحاولة جريئة، بعد أن قتل ابن عجلان، أحد ولاة ابن رشيد، ثم نادى بنفسه مرّة بعد مرّة أميراً على بلاد نجد وإماماً لها (1902). إنّ هذه السلسلة المتتابعة من الانتصارات قد ميّزت بداية نجاحه. ففي الرياض، المدينة الصغيرة المحصّنة التي استردّها أبوه قبل ذلك بأربع سنوات، والتي ستصبح فيما بعد عاصمة مملكته قُدِّر لفيصل أن يرى النور نوفمبر (تشرين الثاني) 1906.

ماذا يرى هذا الطفل، حين يفتح عينيه وينظر فيما حوله؟ إنّه يرى بلاداً ذات آفاق واسعة عظيمة، لم يتغيّر فيها شيء منذ العصور الغابرة. إنّها الأبراج الوحشية الضارية والمريعة نفسها، ومفازات الرمال الموقدة نفسها، والواحات نفسها، حيث تهتزّ أشجار النخيل حول ينبوع من الماء، والقبائل نفسها متنازعة حول مواقع الماء نفسها. إنّه يرى سمات أمّه طرفة بنت عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ، والتي يمدّ إليها يديه حين تنحني فوق بعض السعف الجاف المغطّى ببساط صغير هو بمثابة سرير له وتناديه بصوت رقيق جداً:

- (فيصل... يا صقري الملكي الصغير!)

إنّه لا يعلم بعد أنّه ينتسب إلى أسرة أميرية، وأنّ فيصلاً في العربية يعني في الوقت نفسه (السيف) و(الحكم)، وذلك لأنّ الذي يمسك السيف يجب أن يستخدمه ليُحَكِّمَ نفسه في منازعات الرجال وخصوماتهم.

وفي مقابل ذلك، لا يراه أبوه أبداً. إنّه غائب دائماً، مشغول بالحرب بالشمال والشرق والغرب من بلاد نجد، ليمدّ أرضه وليرغم القبائل البدوية على الاعتراف بسلطانه. لكنه لم يعد يقاتل على رأس مجموعات من البدو غير المنظّمين. منذ بضعة أعوام جنّد جيشاً جديداً، رجلاً رجلاً، إنّه جيش الأخوان الذي

يحاول جاهداً أن ينظّمه من حوله في ظلّ مبدأ جديد. إنّها أخويّة عسكرية حقيقية أقيمت بصورة دائمة في عدد من المستعمرات الزراعية (ممّا لم يشهد مثله من قبل في هذه البلاد) وهي مؤلّفة من مقاتلين يريد أن ينتزعهم من فرديّتهم ليضعهم في خدمة مثل عال أرفع: إنّه دين أعيد بناؤه في تطهّره البدائي الأول، ومملكة عربية موحّدة في النهاية. وقد نجح في ذلك نجاحاً تاماً. وبمرور السنين أصبحت منظّمة الأخوان، وإلى بعيد، أكبر القوى المسلّحة وأكثرها مهابة في شبة الجزيرة.

وما دام أبو الولد غائباً في أغلب الأوقات، فإنّ العناية بتربية الصغير فيصل تعود بطبيعة الحال إلى أمّه. لكنّ المؤسف أنّ هذه الأم قد توفيّت ولم يجاوز الطفل شهره الخامس. وهنا وُكِل أمر تربيته إلى جدّته من أمّه وزوجها، الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف الشيخ. لقد نما في قصر الرياض القديم، وهو بناء بال قديم، ذو ممرات متعرّجة قاتمة، في صحبة أخويه الكبيرين تركي وسعود. أمّا جدّه، فهو رجل ورِع جداً، علّمه تلاوة القرآن وبعث ذائقته الفنية نحو الشعر.

(لقد أصبح فيصل فيما بعد شاعراً ذا موهبة وبراعة). علّمه أخواه فنّ الفروسية واستعمال السلاح. ثم كبر وأصبح (رقيقاً لدناً كأنّه شجرة نخل فتية) لكنه احتفظ، بصبغة أكثر وضوحاً، بمزاج أكثر رقة ولطافة من أمزجة أكثر أخوته، كما يتّخذ وجهه في بعض الأوقات تعبيراً تأمّلياً مفكّراً هو شهادة على ذكائه المبكر.

الأتراك والإنكليز يتصادمون في الشرق

في ذلك العصر، كانت شبه الجزيرة العربية غرضاً لشهوات متزامنة من قبل دولتين متنافستين: تركيا وانكلترا. هذه الأخيرة أقامت سلسلة من عملاء القنصليين حول الخليج العربي في البصرة والكويت والبحرين وبوشهر. لقد وقعت معاهدات مع أمير الكويت وصغار الشيوخ ذوي الحياة العاصفة في شاطئ القراصنة، ممّن فرضت عليهم عام 1853 (معاهدة سلام دائم)، بانتظار أن تمدّ سلطانها ونفوذها إلى سلطنة عمان. إنّ هذه البيادق، المتقدّمة واحداً واحداً بعقلية منهجية متميّزة، تشكّل جزءاً من خطة

عامة ذات مدى واسع كبير، يقصد بها تأمين رقابتها على طريق الهند البرية التي تمر بمضيق هرمز والبصرة والعراق.

لكنّها تهتمّ أكثر من ذلك بالطريق البحرية التي تمر ببور سعيد، السويس، البحر الأحمر وعدن، حيث تقيم راسخةً القواعد منذ عام 1839. وفي مقابل ذلك لا تعير أيّ اهتمام لما يجري في الجزيرة العربية الوسطى، وتترك عبد العزيز يحارب على هواه وكما يحلو له. إنّها تعلم أن ليس هناك ما تخافه من هذا الزعيم البدوي الفقير.

أما الأتراك، فإنهم كانوا يمارسون سياسة شديدة الاختلاف تبعاً لأوضاع الشمال والجنوب من شبة الجزيرة.

ففي الشمال، يغذّون عدداً من الحاميات الصغيرة الدائمة في سلسلة من المرافئ المنتشرة على امتداد شاطئ الخليج، ولا سيما الهفوف، والقطيف، وعقير.

وفي الجنوب – باستثناء حامية قوية من اثني عشر ألف رجل يحتفظون بها في المدينة ومفارز صغيرة موزّعة في ينبع والطائف ورابغ – فإنّهم يحكمون الحجاز بشخص وسيط. وقد وقع اختيارهم على أسرة عربية قديمة جداً، الهاشميين، الذين يفاخرون أنّهم أحفاد علي، صهر النبي، وزعيمهم الحسين يحمل اللقب المتميّز: شريف مكة. ومن هنا يعتبر نفسه تابعاً للخليفة، أي تابعاً لسلطان القسطنطينية.

الأتراك والانكليز ينظر بعضهم إلى بعض ككلاب من الخزف بانتظار اليوم الذي يفترس فيه بعضهم بعضاً. أما فيما يتعلق بعبد العزيز، الذي سيدخل التاريخ قريباً تحت اسم ابن سعود، فقد شعر كأنّه مأخوذ في ملزمة من الحديد بين القادة الأتراك والدبلوماسيين الانكليز. فالطرفان وإن يكونا متعاديين، إلا أنّ لهما نقطة مشتركة: إنّهما يعاملانه بلامبالاة فردية. إنّهما لا يقبلان أن يريا سلطانه قوياً نامياً إلا شرط أن يعتكف في الصحراء الوسطى وألا يقوم بأية عملية باتجاه الشريط الساحلي. لكنّ ابن سعود يرى في موافقته على الاعتكاف في بلاد نجد نوعاً من الشلل والاختناق ثمّ الانسحاق كما كان شأن من سبقه من الحكّام. فإذا أراد يوماً أن يحكم الجزيرة العربية كلّها، فإنّ عليه أن يمهّد لنفسه طريقاً إلى البحر. لكن كيف السبيل إلى ذلك؟ ولما لم يكن راغباً في اجتذاب عداوة الأتراك والانكليز في وقت معاً، فقد قرّر

مهاجمة خصمه الأضعف أولاً، أي الأتراك. وفي نفسه تصميم على أن يبذل جهده – والمناورة هنا ماهرة بارعة – للحصول على عطف الانكليز، بمضاعفة احترامه لهم والتصرّف معهم بالكثير من الحذر واللباقة.

أمّا فيصل، الذي اقترب من عامه السادس، فهو شديد الطفولة ليدرك ما في الموقف من التعقيد. إنه يفضّل التجوّل بحصانه عبر الصحراء، وتعلّم الأحاديث النبوية، أو الصيد بالصقور مع إخوته.
لكنّ إعجابه بأبيه أمر لا حدّ له. إنّ هذا البطل الذي يذكّرنا بملامح البطولات القديمة، والذي يقضي وقته في القتال، والذي يحدّثه خدم القصر عن مغامراته الجريئة، يزدان في مخيلته بهالة من الخرافة. إنّه يريد أن يكون كبيراً بما يكفي لكي لا يترك أباه، فيشاركه في متاعبه وآلامه، ويسهم في تحقيق انتصاراته.
فما الذي لا يعطيه مما يملك ليدخل معه إلى القرى المغزوّة وسط طلقات النار والهتافات العالية!

فتح الأحساء

لم يكن ابن سعود متهوّراً في تصرّفاته رغم أنّه حادّ الطبع شديد التوثّب. إنّه يعلم كيف يحسب ضرباته، ويعرف الفنّ الصعب الذي يدع به الأشياء تنضج (فهذه واحدة من الصفات الرئيسية التي أورثها ولدَه فيصل). وفجأة، في عام 1912 أحسّ أنّ الوقت قد أصبح ملائماً لتدخّل عسكري. ودون أن يضيع برهة من وقته، توجّه إلى الخليج العربي على رأس الأخوان وغزا الشاطئ كلّه في سلسلة من الغدو والروح بسرعة تربك عدوّه. لقد حاصر مدينة الهفوف، وأرغم الحامية التركية على الاستسلام، ثم استولى، مرة بعد مرة، على مرفأي القطيف وعقير، وطرد العثمانيين من كلّ نقاط ارتكازهم وأرغمهم على التراجع إلى البصرة. هكذا تحرّرت الأحساء: فضمّها إلى أراضيه. ولما لم يستطع الأتراك أن يفعلوا شيئاً آخر فقد انحنوا أمامه. ثم وقّعوا معه معاهدة حسن الجوار ومنحوه لقب أمير نجد والأحساء. بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فزيّنوا صدره بوسام الهلال شرط أن يعترف بسيادتهم. تلقّى ابن سعود هذا العرض بابتسامة ازدراء، فما هو وزن السلطة التي لا سبيل إلى ممارستها؟

ومع ذلك فقد بدت له فتوحه ساخرةً تافهة حين حاول أن يقيّمها، نظراً للجهود التي تكلّفها من أجل هذه الفتوح. إذ ليست الأحساء حين تؤخذ ككلّ، غير امتداد خال، حيث تتموّج فيه كثبان فضيّة اللون حتى الأفق ثمّ تغوص، في قشعريرة راعشة، في مياه الخليج الزرقاء...

أهي امتدادٌ خالٍ حقاً؟ أي خطأ كبير! إنّ الأحســـاء في الحقيقة، تســـاوي أكثر من امبراطورية. إنّها تحتوي على جانب غير قليل من مجموع الاحتياطي النفطي في العالم. لكنّ العالم كلّه كان يجهل هذا الأمر حتى ذلك الوقت.

حتى هنا ترك الانكليز ابن سعود يتصرّف دون تدخّل من قبلهم.

فإذا أراد ملك نجد أن يجمع مساحات جديدة من الرمال، فليفعل ما يحسن به فعله! وإذا أخرج الأتراك منها فإنّ حكومة لندن لا يسعها إلا أن تهنّئ نفسها على ذلك.

لكنّه حين أراد أن يوسّع فتوحه بضمّ سلسلة الإمارات التي تحاذي شواطئ القراصنة، وواحة البريمي، ثمّ ســـلطنة عمان التي يعتبرها نائب الملك في بلاد الهمد (كان ذلك الوقت لوردهاردنج) القلعة الأمامية للبلاد التي يحكمها، أقدم الســير بيرســي كوكس، المقيم البريطاني في الخليج، على إفهامه بطريقة تهديدية، بأنّه لن يسمح بأية غزوة جديدة من قبله، وبلّغه أمراً بالاعتكاف داخل حدود الأحساء.

ابن سعود يتوجّه إلى الأتراك

لأوّل مرة يشـهد فيصـل أباه فريسـة لغضـب شـديد. لقد جرحه النقض الانكليزي وخيّب رجاءه. وهو الذي كان يأمل في أن يســـاعده ممثلو جلالته العليّة في تكوين مملكة عربية كبيرة تنطبق حدودها على حدود شــبه الجزيرة! ثمّ تبيّن له أنّه لم يكن شــيء من ذلك، وأنّ عليه ألا يعتمد إلا على نفســه لتحقيق مشروعه.

فما هو العمل في مثل هذه الحال؟ هل يتّجه إلى الأتراك الذين تعرّضوا قبل قليل لهزائم مدوّية في طرابلس الغرب وفي بلاد البلقان (1911 -1912)؟ لعلّ هذا الضـعف يجعلهم أكثر ميلاً إلى التسـاهل. وزيادة على ذلك، فإنّ مجموعة من الضـباط الثوريين – يلقبّون أنفسـهم باسـم (الفتيان الأتراك) – قد اسـتولوا على السلطة في القسطنطينية قبل فترة وجيزة. لقد طردوا السلطان العجوز عبد الحميد من عرشه وأبدلوه بأخيه الأصغر محمد الخامس. فهل تدلّ هذه البلبلة إلى توجيه سياسي جديد؟

وبعد أن وازن ابن سعود طويلاً ما له وما عليه من هذه الأوضاع قرّر الدخول في مفاوضات معهم. أمّا الاقتراحات التي سـرّبها إليهم عن طريق والي البصـرة فهي متميّزة برؤية جريئة عريضـة، تسـمح لنا فوراً بتكوين فكرة عن حسّه السياسي.

- قال لهم: (إنّكم تتولّون الوصـاية على عدد كبير من البلدان العربية. لكنّكم لا تفعلون شـيئاً أكثر من الوصـاية. وحكّامكم لا يمارسـون بالنسـبة إليها غير سـلطان قمعي زاجر. من أجل ذلك سـينتهي الأمر بكم إلى تأليبهم جميعاً عليكم. وإذاً فإنّ من الأفضـل أن تعيدوا إصـلاح بنية الامبراطورية العثمانية. حوّلوها إلى اتحاد للبلدان الإسلامية، يرتبط بعضها ببعض برباط من الإيمان المشترك. امنحوا كلّ بلد عربي استقلاله الذاتي الداخلي. أي حقّه في إدارة شؤونه. وبذلك تكون لهم معكم قضية مشتركة واحدة ويكون في وسعكم أن تعتمدوا عليهم في ساعة الخطر).

ليسـت هذه الرؤية سـيّئة بالنسـبة لزعيم بدوي صـغير. ولو أنّ الثوريين الذين انتزعوا السـلطة في القسـطنطينية قد أصـغوا إلى هذه النصـيحة، لكان من الممكن جداً أن تحتفظ الامبراطورية العثمانية بوجودها أمام الإعصار العاصف... لكنّ (الفتيان الأتراك) كما يسمّون، ولا سيما كبار زعمائهم، أنور وجمال وطلعت باشـا، هم من الوطنيين المتشـدّدين الذين يخشـون أن يتّهموا بالتشـجيع على تفتيت الامبراطورية. وهم لا يشـعرون بأنّهم من القوة بحيث يفرضـون مثل هذا التحوّل الجذري في بنيتها القديمة البالية. ولذلك، فإنّهم في الوقت الذي احتفظوا فيه باتّصـالهم بابن سـعود، راحوا يفاوضـون الانكليز ويعقدون معهم معاهدة سرية تقسّم الجزيرة العربية إلى قسمين اثنين- يونيو(حزيران) 1914-. وفي ضوء هذا الاتفاق يكون كلّ ما يوجد شمالي خط يمتد من عقير حتى الحدود الجنوبية من الحجاز يبقى داخل المدى التركي. ويكون كلّ ما يوجد جنوبي هذا الخط، بما فيه البحرين، وقطر، والساحل المتصالح، وسلطنة عمان وعدن، موضوعاً بصورة نهائية تحت النفوذ البريطاني.

فارتفعت أصـوات كثيرة للاحتجاج ضـدّ أخطار سـياسـة تتجاهل دور السـعوديين ومكانتهم. كتب الضـابط النقيب شـكسـبير، المقيم البريطاني في الكويت إلى السـير بيرسـي كوكس قائلاً: (إنّ هذا الرجل

"ابن سعود" هو زعيم من أروع طراز عربي وله من شخصيته ما يدفع التفكير في أنّه سيستقلّ بقيادة الجزيرة العربية إذا توصّل إلى فرض الوحدة على قبائله، وهو احتمال وارد جداً كما يبدو لي في مستقبل قريب [1]...)

ويضيف اللوتنان –كولونيل ماكماهون، سكرتير الشؤون الخارجية لدى حكومة الهند، إلى هذه السطور التعليق التالي: (لا يسعني أن أمتنع عن التفكير في أنّنا، مع الرغبة الحميدة في تدعيم سلطة الأتراك في منطقة كانوا دائماً فيها، وسيكونون فيها دون ريب غير موجودين، إنّه لا يسعني أن أمتنع عن التفكير في أنّنا نتبنّى سياسة لا تلبث، في حالة متابعتنا لها بصورة عمياء، أن تؤلّب ضدّنا بطريقة حتمية، السلطان الوحيد الغالب حالياً في تلك المنطقة، أقصد ابن سعود [2]. لكنّ أحداً لم يصغ إلى هذه التحذيرات، وقد أوصى السير ل. مالي، سفير بريطانيا العظمى في القسطنطينية وزارة الخارجية (بتضييق العلاقات مع أمير نجد في حدود الضرورات التي لا غنى عنها [3]).

وعندما علم ابن سعود بإمضاء الاتفاق الانكليزي العثماني زأر مزمجراً. لقد خانه الأتراك! فالاتفاق الذي عقدوه من وراء ظهره مع الانكليز، هو الخطر بحيث يجب أن يباشر فوراً بتحرّك ناشط قوي. إنّه في حال تطبيقه لا تكون عربيةٌ سعوديةٌ. وستكون كلّ أحلامه، وكلّ جهوده عبثاً من العبث ولا يبقى لأبنائه غير الاختفاء، تماماً كمياه نبع تمتصّه الرمال.

الحرب العالمية الأولى

لكنّ الحرب العالمية الأولى، التي اندلعت بعد ذلك بشهرين أغسطس (أب) 1914 جاءت تبسط المسألة من جديد وتنقذ في الوقت نفسه الأسرة السعودية الحاكمة. ستّ امبراطوريات تصادمت في تلك الحرب: امبراطورية القياصرة، الامبراطورية العثمانية، الامبراطورية الألمانية، الامباطورية النمساوية المجرية،

1 . من شكسبير إلى كوكس، 15 مايو(أيار) 1913. دار المحفوظات الوطنية دلهي الجديدة.
2 . ماكماهون، 7 يوليو(تموز) 1913
3 . من السيد ل: مالي إلى السير ادوار غراي، 12 مايو(أيار)، 4 يونيو(حزيران) 1914.

الامبراطورية البريطانية وفرنسا. ومنذ ذلك اليوم لم تعد القضية قضية (اتفاق الاقتسام) فالانكليز والأتراك يقتتلون ويتبادلون الطعنات. ولن تتوقّف المعركة إلا إذا عضّ أحد المتعاديين تراب الأرض.

أمّا ابن سـعود فمضـى يراقب مجرى الأحداث من بعيد. وقد احتفظ بنفسـه بعيداً عن الجميع رغم الالتماسـات التي توجّهت إليه من كلّ جانب، ذلك لأنّ الأتراك والانكليز قد خيّبوا رجاءه في قسـوة ظاهرة. وكان يقول في نفسـه: مهما تكن نتيجة هذه الحرب، فإنها سـتنتهي على الأقل إلى إزالة أحد الخصـمين، ثمّ يرى بعد ذلك يفيد من عملية التوزيع الجديد للأوراق التي لا بدّ أن تنتج عن تلك الحرب. وبانتظار ذلك، يكون من الحكمة أن يبقى في حالة ترقّب...

كانت السياسة البريطانية نحو البلدان العربية، في أثناء فترة النزاع، متّسمة باتجاهين لا سبيل إلى التوفيق بينهما من الناحية العملية. أحدهما يصـدر عن مكتب الهند بومباي وممثله الرئيسـي هاري سـانت جون بريدجر فيلبي. وثانيهما، يخطّط له ويعدّه المكتب العربي في القاهرة، ويدافع عنه بحماسة شديدة الضابط النقيب توماس ادوارد لورانس. هاتان الوجهتان اللتان تعرّضـنا لهما بالتفصـيل في كتابنا عن ابن سـعود، يكفي أن نلخّصهما هنا ببضع كلمات:

- فيلبي: (إنّ على انكلترا أن تستند إلى عبد العزيز بن سعود، ملك نجد الجديد. إنّه من بعيد أقوى شـخصـية في الجزيرة العربية. إنّه قوة حقيقية نابعة من الطبيعة، لقد خلق من هنا وهناك جيشـاً يدين له بالولاء المطلق. ويحيط به ستة من الأبناء جديرون بالاستمرار لعمله. ولا ريب أنّ الجزيرة العربية سـتسـقط بين يديه عاجلاً أو آجلاً. إنّ الامتناع عن محالفته فوراً خطأ ثقيل، لا بد أن ندفع ثمنه غالياً).
- لورانس: (هذه التوكيدات تستند إلى جهل تامّ بالموقف. لا شـك أنّ ابن سعود قوة من الطبيعة، لكنّ هذا حجّة أخرى تفرض علينا منعه من التدفّق خارج الجزيرة العربية الوسـطى، إذ أنّ مجرد ظهوره عند أطراف سـوريا أو الحجاز كاف لوضـع شـبه الجزيرة العربية كلّها في النار والحديد. إنّ جنود الإخوان شرسين ودمويين. فعلى انكلترا أن تعتمد لا على السعوديين الجهلة المتعصّبين، بل على الهاشميين، الذين يتزعّمهم الحسين بن علي شريف مكة. وشريف مكة يتمتّع بامتياز سياسي وخلقي لا سـبيل إلى الجدال فيه. أما فيما يتعلق بأبنائه الثلاثة، فيصـل، علي، وعبد الله، فهم مثقفون، ذوو بصيرة، وجديرون بالأقل من الوسائل التي نزوّدهم بها أن يقودوا سياسة عربية كبيرة

موصـولة بنا. صـدّقوني إنّ السـياسـة الوحيدة التي يجب أن نتّبعها، والوحيدة التي تقدّم لنا خير الضمانات للمستقبل هي في فصل الحسين عن تركيا، ودفعه إلى قطع روابط الولاء التي تشدّه نحو الخليفة. من أجل ذلك، تحضـرنا وسـيلتان هما تحت تصـرفنا: أن نزوّده، دون تقتير، بالسـلاح والمؤن، وأن نَعِدَ أبناءه، بعد عودة السـلام، بوضـع كلّ الأراضـي العربية التي سـننتزعها من الامبراطورية العثمانية، تحت قيادتهم، أقصـد فلسـطين، لبنان، سـوريا، والعراق. إنّني أرى أنّ هذه الوعود المغرية ستتغلّب بطبيعتها على كلّ شكوكه مع العلم أنّ موقف الأتراك المترفّع من أسرته قد بدأ يفصله عنهم).

ولما كان لورانس، من الرجلين، الشخصية الألمع، والأبين، والأجدر بعرض أفكاره، فإنّ هذه الأفكار هي التي قدِّر لها أن تنتزع التأييد والنصـر. هكذا قرّرت انكلترا أن تلعب ورقة الحسـين حتى الأعماق بعد أن استبعدت ابن سعود ووضـعته في الصـفوف الخلفية. لقد حملت إلى شـريف مكة وأبنائه، عبر كتشـنر واللورد اللنبي والمكتب العربي في القاهرة، ما يحتاجون إليه من الأسلحة والمؤن التي جاوزت في قيمتها مبلغ مليوني جنيه اسـترليني. وهكذا ولدت (الثورة العربية) التي رسـم لورانس وقائعها (بطريقة غير صـحيحة في الغالب). في كتابه: (أعمدة الحكمة السبعة) والتي انتهت بدخوله المظفّر مدينة دمشق إلى جانب فيصل ابن الحسـين، في دوّامة من الموسلين وفي بريق الألوف من السيوف المشهرة في عين الشمس 30 سبتمبر (أيلول) 1918.

والواقع أنّ الامتيازات التي منحت للهاشميين من قِبَل الانكليز قد جعلت ابن سـعود يتّخذ مزيداً من الحيطة والحذر الشـديد لأنّه وجد في الحسـين خصـماً لا يمكن التصـالح معه، وشـيخاً عجوزاً ماكراً شـديد الطمع.

وعندما قاربت الحرب العالمية نهايتها، بعد شـهر ونصـف، كان وجه العالم قد انقلب رأسـاً على عقب. لقد اختفت أربع من الامبراطوريات الست التي خاضت مسارح الحرب: امبراطورية القياصرة، الامبراطورية الألمانية، والامبراطورية النمساوية المجرية، الامبراطورية العثمانية. فلم يبق معسكر المنتصرين، غير في فرنسا وانكلترا، ومن ورائهما قليلاً إيطاليا، في الوقت الذي ارتفعت فيه قوّة جديدة، هي الولايات المتّحدة الأميركية.

مؤتمر السلام

كان من الضـروري رتق الفتوق بعد الإكثار منها. وهي مهمّة مؤتمر الســلام الذي افتتح في باريس في 19 يناير (كانون الثاني) 1919. لكنّ المهمة ليســت سـهلة ولا يسـيرة، في عالم بلغت فيه العداوات القومية ذروتها وبصورة خاصة في الشرق، حيث تغلي العواطف وتفور. وكان الحسين منذ بعض الوقت قد بدأ يشـعر بسـقوطه في فخ، وأنّ أي وعد من الوعود التي بذلت له من قِبَل اللنبي ولورانس لن يتحقّق. لكنّه لم يستطع أن يمسك نفسه حين علم بأنّ انتدابات بريطانية ستقام في فلسطين والعراق، وأنّ لبنان وسوريا سيسلّمان إلى فرنسا. وفي دمشق جمع الأمير فيصل الحجازي من حوله (زهرة الفرسان السوريين) واسـتعدّ لرفع علم الثورة. كما انفجرت اضـطرابات شـديدة في بغداد والقاهرة. فإذا وضـع الهاشميون تهديداتهم موضع التنفيذ، فإنّ كلّ الفضاء القائم بين النيل والفرات سينتفض بالثورة. أمام هذا المد المرتفع من الأخطار، تسـاءل لورانس، وقد اجتاحه يأس شـديد، عمّا إذا كان شـريكاً متواطئاً في عملية خداع رهيب حين جعل من نفسـه كفيلاً، أمام العرب، للوعود الانكليزية. أوَليس أنّ القادة البريطانيين قد تعهّدوا بوضـع مملكة عربية واسـعة تمتد من طوروس إلى سـيناء تحت قيادة الهاشميين بعد نهاية الحرب؟ ولإنقاذ ما يمكن إنقاذه، قرّر مؤلّف (أعمدة الحكمة السـبعة) أن يتوجّه إلى لندن وباريس بصـحبة الأمير فيصل بن الحسين في محاولة للدفاع عن قضيته أمام ويلسون، لويد جورج، كليمنصو والمندوبين المفوّضين الآخرين إلى مؤتمر السلام.

هنا فقط تذكّرت انكلترا ابن سـعود (وكان فيلي قد تدخّل في أكثر من محاولة لمصـلحته لدى أعضـاء وزارة المستعمرات). أما الحكومة الانكليزية فقد دعت ابن سعود للمجيء إلى لندن ليعرض وجهات نظره أمام اللورد كورزون ولويد جورج، من أجل أن تصـرفه عن ضـمّ قواته إلى الثورة العامة، وتتقرّب منه في النهاية. فقبل ابن سـعود هذه الدعوة. لكنّه أعلن أنّه انتدب واحداً من أبنائه ليمثله، بحجّة أنّ الوضـع في الشـرق هو من التوتّر بحيث لا يسـمح له بالتغيّب عن عاصـمته. ولما كان ولده البكر، تركي، قد توفي بالحمّى الأسبانيولية قبل قليل، وكان ولده الثاني سعود (المولود عام 1901) ضرورياً له في الرياض (حيث

ينصرف إلى الحفاظ على السلام بين القبائل الصاخبة المهتاجة في حائل وعتيبة) فلم يبق غير الثالث، الأمير فيصل بن عبد العزيز، الذي يمكن أن يقوم بهذه الرحلة.

في تلك الفترة كان فيصل في عامه الثالث عشر. فقرّر أبوه لمساعدته في القيام بمهمته، أن يصحبه بواحد من أبناء عمه، أحمد الثنيان. ولما كان هذا الأخير قد ربي في القسطنطينية، فإنّه كان يتكلّم التركية والفرنسية بطلاقة، ويملك بعض الخبرة بالبلدان الأجنبية. وزيادة على ذلك، كان قد تميّز في ساحات القتال: هو الذي فاوض في تسليم الحامية التركية في الهفوف، بعد فتح الأحساء.

فيصل يظهر لأول مرة على المسرح الدولي

استقل الأمير الفتى وابن عمه في البحرين الباخرة ر.ي.م.س. لورانس (لا علاقة لهذا الاسم بالرجل المدافع عن الهاشميين، لكنّه مع ذلك ذو وقع سيء في الآذان السعودية). كما استقلّها في الوقت نفسه أمير الكويت وحاشيته. وكان المستر همفري بومان عضواً في مكتب بغداد السياسي. لقد لاحظ بومان من الأيام الأولى كم هو الفرق كبير بين الكويتيين والنجديّين. لقد وجد اختلافاً في العادات، ففيصل باعتباره ابن الملك (ومن الضروري أن يكون والده نبّهه إلى هذه النقطة قبل أن يغادر الرياض) أصرّ على فرض الاحترام لمركزه ورفض التنازل عن حقّه لأمير الكويت.

وانتهى به الأمر إلى فرض إرادته على الجميع، لا بالصوت المرتفع المجلجل- فهو متحفّظ صامت- بل بامتياز فطري يلفت النظر عند فتى مثله. وحين كبر فيما بعد قال فيه أحد المراقبين (أنّ سمته كصاحب جلالة غير مستعار من الخارج، لكنّه يبدو نابعاً من عمق أعماق نفسه). هكذا منذ ظهوره الأول أمام الناس رُؤيَت فيه خطوط بعض السمات التي كانت ستميّزه فيما بعد.

وبعد توقّف في بومباي، حيث استقل فيصل وابن عمه أحمد الثنيان وموكبهما الصغير المؤلّف من عشرة من الأخوان المحاربين، مركباً ألمانياً قديماً باسم كيغوما، وصل الجميع إلى بليموث في 14 أوكتوبر (تشرين الأول) 1919. وهناك وُكِل أمر الشابين إلى فيلبي شخصياً. لكنّهما في لندن، حيث بدا أنّهما قد نُسيا من الجميع، لم يجدا أي شخص ينتظرهما ولا لاستضافتهما. لقد بدا أنّ رحلتهما قد تتابعت في جوّ من اللامبالاة العامة. فلم يلبث الفتى فيصل أن لاحظ هذا البرود، ثم تفاقم الأمر بسبب مقالة في صحيفة

التايمز، تميّزت بمعاداة أسرته (يجب أن يكون لورانس قد مرّ من هناك). وهنا اضطر فيلبي للتدخّل شخصياً عند اللورد كرومر واللورد كورزون ليحتجّ على هذه المعاملة ويكشف لهما عن خطورة النتائج المترتّبة على مثل هذا الموقف. فبادر اللورد كورزون إلى الاهتمام بالأمر نفسه. وتمّ الاتفاق على أن يستقبل فيصل وأفراد حاشيته رسمياً تحت اسم (وفد الجزيرة العربية الوسطى). أمّا فيما يتعلق بولد ابن سعود، فقد اعترف به أميراً وبرتبته كصاحب سموّ ملكي.

أمّا الغرض الرسمي لزيارة الأمير فهو نقل تهاني والده إلى ملك انكلترا على انتصار جيوشه. لكنّه يحتوي أيضاً أغراضاً سرية: أولاً وضع حدّ للعداوة القائمة بين ابن سعود والشريف حسين، ثمّ رسم حدود نهائية لا تنتهك بين الحجاز ونجد، وأخيراً مناقشة الإعانة المالية التي تستدرج ابن سعود لإظهار مزيد من اللين في المعركة والانقياد نحو توجيهات دوانج ستريت. وبتحديد آخر كلّ الأشياء التي تعتقد الحكومة الانكليزية أنّ في وسعها الحصول عليها دون صعوبة.

وفي الثلاثين من أوكتوبر (تشرين الأول)، استقبل الملك جورج الخامس الأمير الفتى ووفد الجزيرة العربية الوسطى في قاعة العرش من قصر بوكنجهام، بحضور الملكة والأميرة ماري. وفي الأيام التالية نظّمت لفيصل زيارة لمجلس اللوردات، ومجلس العموم، وبنك انكلترا- رمز القوّة المالية لمدينة لندن- ثمّ مرصد غرينتش (حيث رأى، في دهشة كبيرة، النجوم في رائعة النهار).

(من الواضح أنّ حكومة جلالته التي تسعى إلى إصلاح خطئها الأساسي تبذل وسعها لتثير انبهاره). وفي الرابع من نوفمبر (تشرين الثاني) نظّمت له نزهة في كمبردج رافقه فيها فيلبي وكان دليله عبر كلّيته القديمة (ترينيتي). بعد ذلك، اقتيد إلى كارديف – وهو أمر يبدو اليوم ذا نكهة ساخرة – (وكارديف هي عاصمة الفحم الحجري) ليضعوا يده على مصادر الطاقة الكبيرة التي تملكها المملكة المتحدة. أوَليس أنّ الفحم الحجري هو في قاعدة قوّتها الاقتصادية؟ أوَليس أنّ سفنها التجارية والحربية تمخر مياه بحار الأرض بفضله؟ لا أحد يعلم بعد في ذلك العصر أنّ النفط لن يلبث حتى يُنزل الفحم الحجري عن عرشه، وأنّ فتى الثلاثة عشر عاماً الذي يتنقل في ممرات منجم من المناجم شارد الذهن سيكون بعد خمسين سنة

الرجل المشرف على ثلث احتياطي النفط في العالم كلّه، وأنّ في وسعه أن يعرّض للخطر عندما يريد، كلّ الطاقات الكامنة في الغرب.

بدا الأمير، فيما يتعلّق بشخصه، سعيداً في هذه الرحلة. أمّا فيما يتعلّق بالمفاوضات التي تهدف إلى تحقيق المصالحة بين السعوديين والهاشميين فإنّها لم تتقدّم خطوة واحدة. فهذا ميدان كان أحمد الثنيان حريصاً على عدم المجازفة في شأنه أبداً.

فيصلان يلتقيان عند ضفاف السين

وبانتهاء هذه الرحلة في لندن، نقل الوفد إلى فرنسا ليسمح له بزيارة ميادين القتال في الحرب العظيمة. هذا وقد تمّت مرافقة الوفد من قبل الميجر براي، ضابط من جيش الهند شارك إلى جانب لورانس في الاستيلاء على العقبة على رأس مفرزة صغيرة من المتطوّعين الهنود، وكانت رحلة الوفد بين أميان وكولونيا (قاعدة القيادة العامة لقوات الاحتلال الانكليزية في ألمانيا) مروراً بالبَاسَّا، وأَرَّا، وبابُّوم، وريمس، وطريق الدام وفردون. ومن كولونيا توجّه الوفد إلى باريس للإقامة فيها بضعة أيام، حيث صعد بالفتى فيصل إلى القمّة من برج إيفل. إنّ واحدة من الصور ترينا إياه، في صحبة الميجر براي، وهو يتأمّل المدينة من أعلى طبقة فيه، وهو مشهد بدا ممتعاً ومسلياً له أكثر من هبوطه إلى أعماق مناجم الفحم الحجري. لكن في أثناء ذلك وقع حادث غير منتظر، فبدا من خلاله مرة أخرى ما يمكن أن نطلق عليه "سخرية التاريخ".

ففي الساعة التي هبط فيها فيصل بن عبد العزيز في محطة الشمال، كان فيصل بن الحسين قد وصل إلى جادة غابة بولونيا، مصحوباً بلورانس. إنّ إعداد لقاء بين ولد ابن سعود وولد الشريف حسين يستطيع أن يحقّق مصالحة مثيرة بين الوارثين، تمثّل بدورها نجاحاً رائعاً للدبلوماسية البريطانية! وبذلك يخرج السلطان الهاشمي من هذا اللقاء وقد تدعّم مركزه وقوي جانبه...

لم يكد الميجر براي يعلم بحضور الفيصلين عند ضفاف السين من قبل أعضاء في الوفد الانكليزي إلى مؤتمر السلام، حتى بادر إلى إعداد لقاء بينهما. لكنّ أحمد الثنيان بدا شديد التحفّظ. فأصرّ براي على رأيه. وحاول إفهامه بأنّ المقدّرات التي يجري التصرّف بها الآن ليست أقل من (مستقبل الجزيرة العربية). (وقد كشفت الأحداث فيما بعد عن سلامة رؤيته لكن في الاتجاه المعارض لما كان يتخيّله). وأخيراً تساهل أحمد الثنيان. ومضى إلى الميعاد المضروب. لكنّه رفض على سبيل الاحتياط أن يصطحب ابن عمّه معه. ففيصل ابن عبد العزيز لن يحضر اللقاء الثاني إلا إذا كان اللقاء الأول قد أعطى نتائج مرضية.

تمّت المقابلة في جادة الغابة، في الفندق الخاص لفيلا سعيد المستأجرة من قبل لورانس لإقامة وفد الحجاز. (وكان الوفد قد أقام أولاً في فندق كونتيننتال). وشارك في هذه المقابلة: المستشار جعفر العسكري وبعض المساعدين من جانب فيصل بن الحسين، ومن الجانب الآخر، أحمد الثنيان، الميجر براي ومجموعة صغيرة من الحرس الخاص التابع للأخوان. وعندما شاهدهم فيصل بن الحسين، بدت فيه انتفاضة ازدراء وصرخ غاضباً:

- لماذا جيئ إلى هنا بهؤلاء الأخوان؟ إنّه ليس عندي ما أفعله معهم. إنّهم متوحّشون حقيقيون! انظروا إليهم! فهم من العبودية بحيث إنّهم لا يملكون حتى الحقّ في قصّ لحاهم!

لم تكد هذه الكلمات تُسمَع حتى غشيت عيني أحمد حمرةُ الدم وبادر حراسه إلى وضع أيديهم على مقابض خناجرهم في وضع من يريدون إخراجها من أقرابها — إذ أنّ الأخوان يطيلون لحاهم تقليداً للنبي الذي كانت له لحية أيضاً. وتدخّل الميجر براي بين الفريقين وجهد في تهدئتهما، لكنّ جهده ذهب عبثاً دون فائدة. فنهض أحمد وغادر الحجرة وهو يردّد التهديدات. هكذا لم يعد مجال للتفكير في المصالحة. فقد انتهت المقابلة إلى فشل تام.

من الطبيعي أنّ فيصل بن الحسين لا يستطيع أن يعلم بأنّ هؤلاء الأخوان أنفسهم الذين يتحدّث عنهم بمثل هذه العبارات المزدرية سيخرجونه وأباه من مكة قبل مضي خمسة أعوام، وأنّ الفتى فيصل بن عبد العزيز، مع الوفد الذين زعم أنّه ليس (عنده ما يفعله معهم) سيحلّون نهائياً محلّه على عرش الحجاز.

أول قيادات عسكرية

العمليات الحربية في عسير (1921 – 1924)

لم يكد فيصل يعود من أوروبا – وكان قد بلغ الخامسة عشر من عمره – حتى وجد نفسه وقد وكل ابن سعود إليه أول قيادة عسكرية. ذلك أنّ أباه قدّر أنّ الوقت لم يعد مبكراً أبداً للدخول في تجربة السلاح، فكلّفه القيام بعملية تأديبية في عسير (1921). وعيّن إلى جانبه بصفة رئيس لأركان الحرب، خالد بن لؤي، واحداً من خير قادة الأخوان، وكان قد سبق له أن سحق جيشين حجازيين في كرمة وتربة. هكذا يكون الأمير الفتى قد وجد نفسه في مدرسة جيدة.

أمّا عسير فهي منطقة واسعة خصبة، تقع على امتداد البحر الأحمر بين الحجاز واليمن. وكان يحكمها أخوان، حسن ومحمد الإدريسي، اللذان تعود أصول أسرتهما إلى أفريقيا الشمالية. وكانت هذه الأسرة قد اختارت الإقامة في المنطقة منذ بداية القرن التاسع عشر على أثر حجّتها إلى البيت الحرام في مكة. تقواهما – أمر معترف به من الجميع – لا يرتفع إليه غير اهتياجهما العنيف. كانا يقضيان أكثر أوقاتهما في مخاصمة جيرانهما ومقاتلتهم: تارة مع الحسين شريف مكة، وتارة أخرى مع الإمام يحي في اليمن، ومرة ثالثة مع السلفيين [1] الذين يستندون إلى السلطة الروحية لابن سعود، ملك نجد. ومن هنا قرّر هذا الأخير أن يضع حداً لهذه الفوضى. فكانت الحملة العسكرية التي وكل قيادتها إلى ولده.

هكذا انقضّ فيصل على تيماء بجيش مؤلّف من خمسة آلاف رجل، وتيماء هي عاصمة عسير، وقد اتخذ لنفسه الطريق التي تمرّ بخميس. فلمّا اقترب السلفيون هرب حسن ومحمد من عاصمتهما وذهبا يحتميان بأبها، المدينة المحصّنة. ومع ذلك فإنّ قوات فيصل لم تجد أية صعوبة في إخراجهما منها بعد أن سحقت قوات الإدريسيّين في حجلة.

واعتقل حسن ومحمد وحملا إلى الرياض. وهناك، وجدا نفسيهما مرغمين على الاعتراف بسيادة ابن سعود على أبها وتيماء وشمالي عسير كلّه بعد أن عنّفهما ملك الرياض، على أن لا يحتفظا لنفسيهما إلا

1 . السلفية نزعة إصلاحية نادت بالرجوع إلى مناهج السلف الصالح والتمسّك بالسنة. أشهر من ينضوي تحتها أتباع محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية.

بالسـهل السـاحلي، وأن يمتنعا عن عقد أي اتفاق مع الدول المجاورة دون إذن منه. وفي مقابل ذلك غفر لهما ملك نجد تمرّدهما وعفا عنهما ثم أعادهما إلى أسرتيهما متعهّداً بالدفاع عنهما ضد غارات اليمنيين.

وبعد ذلك بثلاثة أعوام عاد الإدريسـيون إلى إعلان الثورة على السـعوديين – ربما بتحريض من شـريف مكة -. في هذه المرة كان غضـب ابن سـعود قد جاوز كلّ حد. فكلّف فيصـلاً بالقيام بحملة ثانية على عسير، ليعيد إلى قائديها رشدهما ويذكّرهما باحترام تعهّداتهما (1924). وفي هذه المرة عولج الموقف بهمّة وصـراحة. فتمّ اعتقال حسـن ومحمد وزجّ بهما إلى السـجن. وعندما عاد فيصـل إلى الرياض ومضـى على رأس قواته في عرض كبير، هتف له جمهور الناس بجنون قائلين: (هذا الفتى ما يزال صغيراً ولكنّه أسعد ما يكون في المعركة).

توتر متزايد بين ابن سعود والشريف حسين

وفي أثناء ذلك، لم يكف التوتر عن الازدياد والنموّ بين ملك نجد وشـريف مكة. على أنّ من الضـروري أن نذكر بأنّ الحسـين قد أصـبحت حياته أكثر صـعوبة مع مضـي الأيام والسـنين. إنّه بلزومه قصـره في جدة، يوزّع وقته بين نوبات الغضب وآلام مرض النقرس. فهو يزداد كلّ يوم غطرسة، كما يقلّ استعداده للتعاون والتعامل مع الآخرين في كلّ يوم (ومن الواجب أن نعترف بأنّ له ما يبرر غضـــبه وكبرياءه). إنّه ينفجر غاضـباً ضـدّ الانكليز ويهدّد بالتبرّؤ من أولاده إذا هم (وافقوا على ممارسـة الحكم تحت وصـاية أجنبية حتى ولو كانت هذه الوصـاية مزقة من المملكة العربية الكبيرة التي وعد بها من قبل). وعندما جاء لورنس لرؤيته، في محاولة لتهدئته، أمطره بوابل من الإهانات، واتّهمه بالدجل، ثم ظهر وكأنّه يريد أن يلقيه من أعلى سلّم القصر بضربات من عصاه. ثم احتجب في قصره ورفض أن يكلّمه. فكانت هذه المعاملة بالنسبة لمحيي الثورة العربية وباعثها الإهانة العظمى!

وبينما تدور هذه المشاهدة المحزنة كان ابن سعود يراقب سير الأحداث بانتباه شديد. والجدير بالذكر أنّ الصـبر هو خير أوراقه. إنّه ليس صـبر الرجل الذي يكبح جماح نفسـه كما قال الشـيخ يوسـف ياسـين، لكنه: (صبر المؤمن الذي عقد اتفاقاً مع الأبدية). إنّ حياته هي سلسلة من التداخلات السريعة والمتناوبة

في فترات جمود طويلة. كان يقول في نفسه: إنّ الوقت يعمل لصالحي، وفي اليوم الذي يستعدي فيه الحسين كلَّ الناس، فإنّ الانكليز سيجدون أنفسهم مرغمين على التخلّي عنه.

وفي نهاية فبراير (شباط) عام 1924، ألغى مصطفى كمال نظام الخلافة، بعد أن خلف أنور باشا رأس الحكومة التركية. وقد نفي الأمير عبد الحميد دون أية رعاية له. مع العلم أنه ابن عم السلطان المعزول القديم وآخر من حمل لقب الخلافة بعده.

وقد كان هذا أكبر خطأ أقدم عليه الذئب الأغبر، لكنّه اتخذ قراره بصورة مبرمة لا رجعة عنه أبداً.

وفوراً بادر شريف مكة، غير مدرك لأبعاد تصرّفه، فأعلن نفسه خليفة على الناس، أي خليفة للنبي. وضرب العالم الإسلامي كلّه حين جاءه علم بهذا النبأ. أحسينٌ خليفة؟ هذا ومن الطبيعي أن يكون السلفيّون في مقدّمة الرافضين له.

الاستيلاء على الحجاز

لم يعد ابن سعود يتردّد. إنّه يعلم أنّ توجيه طلق الرحمة نحو الهاشميين قد جاءت ساعته. قال نابوليون "التأمّل يعدّ ويهيّء، والصاعقة تنفّذ". وقد قرّر ملك نجد أن يعمل بهذا التوجيه بعقلية مصمّمة هي نتاج كلّ الطاقة التي جمعها في نفسه خلال سنوات الانتظار والترقب.

وبعد أن عبّأ كلّ وحدات الأخوان بسرعة، هبط كالإعصار متّجهاً نحو البحر الأحمر. فسحق في الطائف جيش الهاشميين الموضوع تحت قيادة علي ولد الحسين، الذي أرسله شريف مكة أمامه ليعترض طريق ابن سعود، ثم أرغم الحسين نفسه على اللجوء إلى جدة. ومن هناك غادر هذا الأخير براً الحجاز فوراً على مركب بحري صغير وضع تحت تصرّفه من قبل الحكومة البريطانية، تاركاً لولده علي مهمة الدفاع عن المملكة. ثم أنّه لم يشعر بالأمن بعد أن وصل إلى قبرص حيث وضع المستر أمري السكرتير البريطاني لدى وزارة المستعمرات تحت تصرّفه فيلا متواضعة، بطلب من السير رونالد ستورز – صديق لورانس – وقد قضى في تلك الجزيرة بقية أيامه في عوز كامل [1].

1 . بعد ذلك بقليل نوفمبر (تشرين الثاني) 1926. أعلنت قبرص " ملكية للتاج ".

وبعد أسبوع واحد، دخل خمسة عشر ألفاً من الأخوان مدينة مكة. فبدت المدينة الصامتة وكأن قد أصابها رعب شديد. الشوارع خالية، والمخازن مغلقة. وأصحاب الدكاكين يرتجفون خوفاً وراء أبوابهم المغلقة. وفي أثناء أسبوع كامل انتزع المغاوير من السلفيين كلّ الزينات التي تتعارض في عرفهم وعقيدتهم مع روح الإسلام وتعيب المساجد، كما حطّموا معالم الدنس، وأزالوا النفايات من الأفنية التابعة لبيوت الله، تلك النفايات التي تركتها الإدارة الهاشمية تتراكم ثم أعادوا إلى المباني المقدّسة بساطتها الأولى.

وانتدب ابن سعود رسلاً إلى أربعة زوايا الصحراء يعلنون انتصاره. وأحاط القبائل علماً بأنّه "قد أخرج الحسين، وأنّ سلطان الهاشميين قد انهار بصورة نهائية، وأنّه منذ اليوم حارس المدينتين المقدستين، لكنه لا يرغب في الاحتفاظ بهما إلا باعتباره منتدباً عليهما من قِبَل كلّ المؤمنين". أما نصّ هذه الرسالة الذي يشهد بالسموّ الرفيع في أفكاره، وفي الوقت نفسه بحسّ دقيق بالحقائق السياسية، فقد كُتِب من قبَل فيصل نفسه.

وبعد أن جمع ابن سعود قادته والوجهاء من معاونيه من حوله توجّه إلى مكة، يصحبه ولده فيصل، ليدخل إليها لأول مرة. لكنه لم يذهب إلى هذه المدينة بصفته منتصراً في المعركة: لقد ذهب إليها بصفته أحد الحجّاج العاديين، أي متلفّعاً بالبياض، وبرأس عار ودون سلاح، ليعرب عن شكره لله وحده وحمده له على أنّه قد منحه نصره. ولم يكد يبلغ الكعبة حتى خرّ ساجداً وغرق في تأمّل عميق.

سقوط جدّة وحملة اليمن

لم تدم مقاومة الحسين غير ثمان وأربعين ساعة. وقد أدهشت سرعة سقوطه كلّ الناس، بمن فيهم الانكليز. لكنّ عليّاً، الذي وكل إليه أبوه مهمةّ الوصاية على العرش، تحصّن في جدة، التي دعّم حاميتها بتعبئة عدد كبير من المتطوّعين من رجالها. (وأكثرهم جنود أتراك لا يعرفون وجهة لهم). وتبعته كلّ من المدينة وينبع، المرفأ المطلّ على البحر الأحمر. ولما كان ابن سعود راغباً في الحدّ من أخطار التدخّل الأجنبي فقد أمر الأخوان بتدمير هذه الحصون في أسرع وقت ممكن.

ومع ذلك، وبالرغم من الهجمات العنيفة التي شنّها السلفيون، فقد استمرّت حامية جـدة تقاوم عـدداً من الشهور. ثم جاء الصيف، فامتلأت المدينة بالجثث المتعفّنة، بعد أن حرمت من المؤن والزاد، وسحقتها شمس حارقة. فانتشرت من هذا الركام من الجثث رائحة بلغ من كراهيتها أنّ السفن التي كانـت تتّجه إلى جدة قد عادت من حيث أتت تجنّباً لها.

أما علي الذي مدّ نظره إلى الأفق، فقد كان يأمل دائماً في أن يبادر أحدهم إلى إنجاده. لكنّ أحداً لم يتحرّك. فلا أبوه الحسين الذي بدأ يضع إحدى قدميه في القبر، ولا أخوه فيصل الذي طرد من دمشق وهزم في سهل ميسلون من قبل قوات الجنرال غورو، ولا أخوه عبد الله، الذي اختبأ في مكان ما من أرض عمان.

وفي آواخر أكتوبر (تشرين الأول)، استعدّ الأخوان للقيام بهجومهم الحاسم على المدينة. فقـرر علـيّ الاستسلام ليجنّب من بقي من الأحياء فظاعة المذبحة، بعد أن شعر بأنّ قضيته قد ضاعت بصورة نهائية.

وفي أوائل ديسمبر (كانون الأول) اسـتقلّ مركباً انكليزياً حمله إلى عدن. هكذا غادر الحجاز آخر هاشمـي. وعندما علمت المدينة وينبع باستسلام جدة استسلمتا بدورهما أيضاً. وهنا قرّر ابن سعود أن يدخل مكة مـرة أخرى. لكنّه في هذه المرة لم يدخلها كواحد من حجاج بيت الله بل كفاتح، لكي يبرهن للجميع أنّه قد أصبح سيد البلاد.

بالسيوف المشهرة اللامعة، والألوية المرفرفة انطلقت وحدات الأخوان في عرض كبير عبر المدينة.

كان يصحبه فيصل دائماً – ذلك لأنّ ولده سعوداً بقي في الرياض ليؤمّن استمرار السلطة. وتسلّم ابن سعـود في مكة ملكية القصر ثم خرج إلى جمهور الناس من على المنبر الشريفي، بينما كانت طلقـات المدافع – وهي مدافع قديمة تركها الأتراك وراءهـم – تدوي هادرة في سلسلة الهضاب التي تحيط بالأرض الحرام.

ثمّ دخل إلى قاعة العرش حيث وجد بانتظاره وفداً من الوجهاء وفقهاء الشـريعة. أتوا يعلنون إليه أنّ شعب الحجاز قد نادى به ملكاً عليهم.

ودون أن يضيع وقته، إذ كان يريد أن يفيد من الحماسة العامة. سمّى ابن سعود ولده فيصلاً نائب ملك على الحجاز (1925). وقد كاد يبلغ عامه العشرين.

ولم يكد يتمّ فتح الحجاز ويعود النظام إلى مدن الساحل حتى نشأت الصعوبات من قبل اليمن: لقد بعثت وفاة محمد الإدريسي المنازعات القديمة. وهرب علي، ولد المتوفي، لاجئاً إلى عدن، حيث عقد معاهدة مع الإمام يحي الذي يحكم اليمن. لكنّ عمّه حسناً، الذي يحكم شمال عسير رفض الاعتراف بهذا الاتفاق. لقد آثر ربط المقاطعات التي يشرف عليها بالعربية السعودية، ولا سيما نجران وتهامة اللتان تخضعان، منذ عام1926، لحماية ابن سعود. ومن الطبيعي أن يرفض الإمام يحي بانتقال السيادة إلى السعوديين. فضاعف غاراته على المناطق المختلف عليها. ولم يعد غير الحرب وسيلة لإقناعه بالعدول عن هذا التصرّف.

والجدير بالذكر أنّ اليمن أرض جبلية، وغنية بالنسبة للمناطق التي تحيط بها، وأكثر سكاناً. والعمليات الحربية فيها أكثر صعوبة منها في عسير. وهذا أمر لا يغيب عن ابن سعود. إنّه يعلم، فيما إذا أراد أن يربح الجولة، وجوب اللجوء إلى قوات أكبر كثيراً من تلك التي لجأ إليها عام 1924. فقسّم جيشه إلى ثلاث فرق: الأولى ويقودها فيصل تتقدّم على امتداد الشاطىء للاستيلاء على حرض والحديدة، أهم مرفأ يمني يطلّ على البحر الأحمر. والثانية بقيادة سعود، تتّجه إلى نجران مجتازة الأراضي الداخلية، وأخيراً الثالثة، ويقودها خالد ابن محمد يكون هدفها صنعاء، عاصمة البلاد.

وبينما كان سعود يستولي بسرعة على الواحة الغنية نجران، راح فيصل ينتزع على التتابع كلاً من حرض والحديدة. وعندما علم الإمام بسقوط هذه المدينة، التي ليست أكبر مرفأ له وحسب، بل هي منفذه الحقيقي الوحيد إلى البحر، وجّه نداءات الاستغاثة إلى كلّ مكان.

وهنا، تحرّك الانكليز، بعد فترة طويلة من الجمود. إنّهم لا يريدون أن يضع ابن سعود يده على اليمن بأي ثمن، ذلك لأنّ اليمن هي القلعة التي تحمي مدينة عدن، وعدن موقع هام جداً على الطريق البحرية إلى الهند. وبلجوئهم إلى سياسة المدفع، أرسلوا إلى الحديدة السفينتين الحربيتين ينزانس والانتربرايز. كما تحرّك الإيطاليون سريعاً بدورهم أيضاً.

ذلك أنّهم بإقامتهم في أرتيريا والصومال منذ عام 1885، لا يرغبون أبداً في أن يستولي السعوديون على مضيق باب المندب الذي تتّصل أرتيريا عبره بالصومال. فأقدموا مسرعين على إرسال نسافتين إلى الحديده، وأنزلوا فيها مفرزة مؤلفة من مائة وخمسين بحاراً. فهل سيفجّر وصول فيصل إلى هذا المرفأ حرباً دولية؟

بعد ثمان وأربعين ساعة أنذر الانكليز ابن سعود بإيقاف تقدّم قواته. لكنّهم، في الوقت نفسه، عرضوا عليه فتح مفاوضات عامة. فأوتي ملك نجد، بعد تأمّل سديد، حكمة الموافقة.

تعدّ معركة اليمن في نظر الرأي العام، فشلاً للسعوديين. لكن هذا هو الظاهر فقط. لقد استطاع ابن سعود، يساعده ولده فيصل الذي وكل إليه أبوه مهمة الدخول في المفاوضات، أن يفوز في هذا المؤتمر الدولي بامتيازات هي على الأقل مساوية لتلك التي قد يفوز بها في انتصاره المسلّح. لا ريب أنّ الإخوان سيخلون المناطق التي استولوا عليها من الأراضي اليمنية. لكنّ ابن سعود، في مقابل هذا الانسحاب، سيحتفظ نهائياً بكلّ منطقة عسير، وسيتعهّد الإمام يحي بأن يدفع إليه تعويضاً مجدياً، مما سيسمح بتدعيم قوات الأخوان تدعيما كبيراً، وأخيراً سيتمّ الاعتراف به رسمياً من قبل الدول الأجنبية سيّداً على نجدٍ والحجاز والأحساء، وحائل وعسير. وستّتخذ الدولة الجديدة التي رأت النور بذلك اسم العربية السعودية.

وهنا عيّن ابن سعود فيصلاً – ويجب أن نعترف أنه قد استحقه بجدارة – وزيراً للشؤون الخارجية للمملكة الجديدة. كما ستكون المرّة الأولى التي يحمل فيها رجل هذا اللقب في تاريخ شبه الجزيرة العربية.

فيصل نائب ملك في الحجاز
ووزير للشؤون الخارجية

منذ ذلك الوقت، سيكون فيصل مشاركاً في كلّ مظاهر الحياة السياسية للبلاد، كما سيكون كذلك، باستمرار، ما يقرب من خمسين عاماً.

إنّ مهمته الأساسية بصفته نائب ملك في الحجاز هي السهر على بيت الله الحرام، ورعاية شؤون العبادة، والحفاظ على سلامة الحجاج، هذه السلامة التي تعرّضت، خلال سنوات الحرب، للاضطرابات

الطارئة في طرق المواصلات، وفساد الإدارة الهاشمية. وقد زاد عدد الحجاج أكثر فأكثر بسبب عودة السلام وتطوّر النقل الجوي. ولما كان عددهم لا يجاوز 25 ألفاً عام 1910 ثم ستين ألفاً عام 1920 فقد ارتفع من 125 ألفاً عام 1935 إلى قريب من مليون ونصف عام 1974، وتقدّر سلطات الحجاز أنّ هذا الرقم سيتجاوز 5 ملايين عند نهاية هذا القرن [1]..

لكنّ "تأمين السلامة للحجاج" ليس كلّ شيء: فالواجب تأمين التغذية والضيافة للمدّ البشري الذي يتدفّق نحو الحجاز خلال ثلاثين يوماً من كلّ عام، ثمّ السهر على حالتهم الصحية لتجنّب الأوبئة، وأخيراً استقبال رؤساء الوفود (الذين هم في الغالب وزراء أو رؤساء دولة) القادمين من كلّ أقطار العالم الإسلامي، أي من افريقيا وآسيا والشرق الأقصى.

وبصفته وزيراً للشؤون الخارجية، فإنّ عليه أن يستقبل السفراء، وأن يصغي إلى ما يبوحون به من الأسرار وأن يتابع العلاقات المتعاقبة مع كلّ أعضاء الهيئة الدبلوماسية المقيمة في جدة. وهذا يمثّل في نفسه وحده انفتاحاً فريداً على العالم. لكنّ نشاطه لا يتوقّف عند هذا الأمر. ففي عام 1926 قام فيصل برحلته الثانية إلى لندن.

لم يستطع نائب الملك الشاب أن يمتنع، في تلك المناسبة، عن قياس الفارق الكبير في التغيّر الذي وقع منذ عام 1919. في المرة السابقة، كان قد استقلّ مركباً صغيراً أجنبياً، في مرفأ من الخليج العربي لا يخصّه. وفي هذه المرة، خرج من جدّة، التي هي جزء من المملكة، وعند وصوله إلى بليموث تجمّعت كلّ السلطات المحلية على الرصيف لاستقباله ثمّ أعدّت حكومة جلالته مائدة على شرفه في فندق كلاريدج دعت إليها مائة وخمسين من كبار الرجال. ذلك أنّ والده في أثناء ذلك قد أصبح سيّد المدينة ومكة. وهذا يعني أنّ الانكليز يقدّرون التأثير الذي يمارسه حارس المدينتين المقدّستين على مجموع الشعوب الإسلامية الموجودة في امبراطوريتهم ولا سيما في الهند وماليزيا حيث يبلغ عددهم أكثر من مائة مليون.

---

1 . حصل المؤلف على هذه الأرقام من حاكم الحجاز الأمير شواز بن عبد العزيز.

وبعد ذلك ببضع سنوات (1932) كرّر فيصل رحلته إلى باريس، ثمّ إلى لندن (حيث امتدّت إقامته عشرة أيام) قبل أن يتوجّه إلى بولونيا التي قابل فيها بيلسودسكي، والاتحاد السوفياتي حيث استقبل في قصر الكرملين من قبل مولوتوف وستالين، ثمّ إلى تركيا حيث عقد محادثات مع مصطفى كمال وعصمت إينونو.

وفي عام 1939 عاد مرة أخرى إلى لندن للاشتراك في المؤتمر الانكليزي العربي، حيث احتجّ بقوة على الزيادة في عدد المهاجرين اليهود، الذين قرّرت الحكومة البريطانية أن تسمح لهم بالدخول إلى فلسطين. هكذا أنجز فيصل بين عام 1926 وعام 1943 ثلاث عشرة رحلة رسمية، يجب أن نعدّ من بينها إقامته في الولايات المتحدة لمدّة خمسة أسابيع، خصّص جزءاً منها لحالته الصحية، المتأثّرة جدّياً بالجهود التي بذلها خلال خمسة عشر عاماً الأخيرة.

فإذا أضفنا إلى هذا كلّه الرحلات التي قام بها بعد الحرب العالمية الثانية، في العواصم الأوروبية والأميركية والعربية باعتباره رئيساً للوفد السعودي إلى الأمم المتحدة، وبخاصة إلى واشنطن حيث عقد على التتابع محادثات مكثّفة مع الرؤساء روزفلت، ترومان، ايزنهاور، كندي، جونسون ونيكسون، نستطيع من ثمّ أن نكوّن صورة عن عدد صلاته الدولية وصفتها. وإذاً فإنّ ما كتبه المؤلف الانكليزي جيرالد دوغوري دون مبالغة هو صحيح. لقد قال: إنّ فيصلاً، من كلّ الحكام الأحياء حالياً، هو الذي قابل خلال حياته السياسية، أكبر عدد من رجال السياسة ورؤساء الدول، بعد الدوق أودنبورج.

اكتشاف النفط

لا فائدة هنا من إثارة كلّ الأحداث التي تعاقبت في العربية السعودية بين فتح الحجاز والحرب العالمية الثانية، فهي في كتابي عن ابن سعود. ولما كانت حياة فيصل موصولة في مشاركة حميمة بحياة والده خلال ما يقرب من 34 عاماً، فإنّه لا يدهشنا أن نشهد فيها العناصر نفسها. ومع ذلك فإنّ واحداً من بينها لا يمكن أن نمرّ به صامتين: إنّه اكتشاف النفط عام 1933. وبداية استغلاله عام 1936. ذلك لأنّ هذا الاكتشاف الذي وقع بغتة في عهد الوالد، قد لعب دوراً رئيسياً في عهد الولد.

إنّ من العنت أن نتصوّر اليوم فقر الموارد التي كان يتصرّف بها ابن سعود حين انطلق عام 1900 لغزو مملكته. في تلك الفترة، لم يكن ما يملكه ككلّ، غير جمل أعرج وأربعين بندقية قديمة. من أجل ذلك قيل: "إنّه لم يحدث أبداً في التاريخ كلّه أنّ عملاً أعظم جرأة قد تمّ إنجازه بمثل هذا القليل من الوسائل".

وحتى بعد الاستيلاء على الحجاز كانت موارد المملكة محدودة بالرسوم المجبيّة من الحجاج. لكنّ هذا المورد نفسه لم يكن يصبّ غير قطرة قطرة، ذلك لأنّ قوافل الحجاج كانت ما تزال مشتّتة مبعثرة (لم يبدأ عددها بالزيادة إلا ابتداء من عام 1940 [1]). إنّ مالية العربية السعودية كانت من القلّة بحيث أنّها كانت محتواة في صندوق صغير يخفيه وزير المال تحت سريره ويحمله معه في تنقّلاته. وكان ابن سعود، الذي أثقلته الديون، يتساءل دائماً كيف يتوصّل إلى دفع الرواتب لقوّاته. من أجل ذلك كان التعويض الذي حصل عليه من الإمام يحي مقابل انسحابه من اليمن قد جاء في الوقت المناسب: لقد سمح له بالامتناع عن تصفية الأخوان وتسديد ديونه العاجلة (وبخاصة تلك التي عقدها مع مبارك أمير الكويت [2]).

وأيضاً فقد كان حظاً غير متوقّع له – بل يمكن القول أنّه معجزة – أن اكتشف المنقّبون الأمريكيون حقول النفط تحت رمال الأحساء (والحقيقة أنّ ابن سعود كان يفضّل ألف مرة لو أنّهم وجدوا الماء، إذ أنّ الماء يسمح له بتطوير الزراعة وتأمين الغذاء لرعاياه) وأخيراً، ما دام أنّ الله قد قرّر غير ذلك، وأنّ بعض المنقّبين من تكساس قد اكتشف النفط، أفليسَ من الحكمة أن يستفاد منه؟ وأنّهم موّلوا البعثة التي سمحت لعبد العزيز بالعودة إلى غزو الرياض (1901)، وأخيراً زوّدوه بالأسلحة والمؤن خلال السنوات التالية.

بلدان بريطانيا العظمى وأميركا كانوا يتنافسون للحصول على امتياز هذا النفط. أما فيلبي، الذي أدرك جيداً قيمة هذا الكشف، فقد أنذر أصدقاءه في الوايت هول وبذل أقصى ما عنده من الجهد لكي

---

1 . راجع رسم المؤتمرات الاسلامية 1950 – 1974

2 . لنذكر هنا أنّ أمراء الكويت – أولاً محمد ثم أخوه ومبارك – قد استضافوا السعوديين حين أخرجوا من نجد (1895)

يمنحهم ابن سعود حقّ الأفضلية. لكنّ ملك الجزيرة العربية لم يكن يحرص أبداً على تمييز الانكليز، الذين كانوا قد ساعدوا أعداءه ولم يكفّوا عن إلقاء العقبات ورمي العثرات في طريقه. وزيادة على ذلك، قدّر القادة البريطانيون أنّ المبلغ الذي يطالب به مرتفع جداً. بينما ظهرت شركة زيت ستاندرد كاليفورنيا أقلّ شحاً منهم فانتزعت عقد الامتياز.

يخيّل إلينا أنّنا نحلم حين نعلم أنّ ما طالب به ابن سعود هو18 سنتاً عن كلّ برميل من النفط الخام المصدّر إلى الخارج، ومبلغ اتفاقي قدره 000، 450 [1] دولار يدفع على صورة قرض غير مستردّ. أي أقلّ قليلاً من نصف مليون دولار للحصول على امتياز متفرّد لاستغلال حقول النفط الموجودة في النصف الشمالي من المملكة حتى عام 1999؟ ومن هنا ندرك كيف أنّ الأميركيين قد شعروا بأنّهم عقدوا أروع صفقة في حياتهم، رغم ما أعلنوه من أنّ صفقتهم لا تتناول حالياً غير "جبل من الرمال، والحرارة والذباب، والأمل". والشيء الأكثر إدهاشاً أيضاً، إذا صدّقنا أقوال عبد الله سليمان، وزير المال السعودي في ذلك العصر، أنّ الملك لم يكن واثقاً أبداً من مستقبل الذهب الأسود، وكان مقتنعاً بأنّه لن يقبض شيئاً بعد الدفعة الأولى!

وما أسرع ما ندم الانكليز على أنّهم أضاعوا هذا المورد العظيم من المال. على أنّهم لو جمعوا المبالغ الضرورية لما حصلوا على الامتياز المطلوب. لماذا لم يصغوا إلى نصائح فيلبي؟ فالملك لم ينسَ أبداً معاهدة الاقتسام المعقودة عام 1914 بين الأتراك والانكليز، ولا المساندة الدائمة التي قدّمتها السلطات البريطانية لحسين وأولاده. لقد شرح ابن سعود، بوضوح تام، أسباب اختياره لكارل. س. تويتشل، أحد المفاوضين الأميركيين، مع فلويد أوهليجر وجيمس ماكفرسون.

قال لهم : "لقد أعطيتكم حق الأفضلية لأنّ الشركات الأميركية تتمتّع باستقلال ذاتي أمام حكومتها أكثر من الشركات الانكليزية، وزيادة على ذلك، فإنّ الولايات المتحدة الأميركية هي أكثر بعداً عن

1 . إنه يساوي على التحديد 65 ألف جنيه استرليني محسوباً على أساس 7 دولارت لكل ليرة ذهبية.

الجزيرة العربية من انكلترا. وليست لها أغراض سياسية نحو بلادي". يضاف إلى ذلك أنّ التعاطف مع الأميركيين عند فيصل كان له وزن كبير في القرار الذي اتخذه الملك.

الحرب العالمية الثانية

مقابلة كوينسي (1945)

حرصت العربية السعودية على الوقوف بعيداً عن النزاع خلال الحرب العالمية الثانية. بيد أنّ واقعة جرت في تلك الفترة تستحق الإشارة إليها والتحدّث عنها: إنّها المقابلة التي تمّت بين ابن سعود وروزفلت في فبراير (شباط) 1945. كانت مقابلة رغب فيها فيصل وأعدّ لها خلال إقامته الطويلة التي أتمّها في نيويورك وواشنطن قبل ذلك بثمانية عشر شهراً.

في ربيع عام 1945 اقتربت الحرب من النهاية. وعاد روزفلت من مؤتمر يالطا. لقد شعر في أعماق نفسه بكلّ القوة رغم مرضه الشديد، ذلك لأنّه أنجز قبل قليل خطة اقتسام العالم مع تشرتشل وستالين، وكان من قبل في أثناء رحلته إلى طهران عام 1943 قد مرّ بالشرق وتشمّم رائحة النفط في كلّ مكان. أما الآن فهو يريد، كما باح بذلك لولده إليوت، أن يدعم النفوذ الأميركي في تلك المنطقة، والتي يحسّ في أعماق نفسه أنّها ستلعب دوراً هاماً في مستقبل الأيام، فأبلغ ملك الجزيرة العربية أنّه سيكون سعيداً بالتعرّف إليه وأرسل إليه نسافة أميركية لحمله من مدينة جدة. فتردّد ابن سعود في قبول هذه الدعوة. إذ بدأ المحارب العجوز، الذي أنهكته سنوات الكفاح الطويلة، يشعر بثقل السنين ويشكو من بداية شلل في ساقيه.

لكنّ فيصلاً رجا والده أن يجيب بالموافقة على نداء روزفلت، لأنّه يرى، في هذا اللقاء، عاملاً جديراً بتشجيع سياسته في التقارب العربي — الأميركي.

وتمّت المقابلة على ظهر كوينسي، طراد حربي يمخر في مياه البحيرة المرة الكبيرة، على مسافة متوسّطة بين بورسعيد والسويس.

قال رئيس الولايات المتحدة بابتسامة عريضة "إنّني سعيد جداً بلقائك" وبينما كان يمدّ يديه إلى الملك أردف قائلاً : "ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟"

لا ريب أنّ روزفلت قد فكّر بأنّ ابن سعود سيتأثر بهذا الاستقبال. بل لا بدّ أيضاً من أن يتهيّب وجوده إلى جانب واحد من ثلاثة رجال قرّروا مصير العالم قبل قليل. لكنّ شيئاً من هذا لم يحدث أبداً.

فأجاب ابن سعود باقتضاب "بل أنت الذي طلبت رؤيتي، فأنا أفترض إذاً بأنّ عندك شيئاً تريد أن تطلبه".

عضّ روزفلت على شفتيه. ذلك أنّه لم يكن ينتظر مثل هذه البداية في الحديث. وهي تتعارض تعارضاً تاماً مع روح المجاملة الشديدة التي يظهرها الحكام الشرقيّون في الغالب. وأيضاً فقد ضاعف من تلطّفه نحو مخاطبه. فأبدى له شديد اهتمامه بالصداقة الأميركية السعودية، وتحدّث عن الامتيازات والمنافع السياسية والاقتصادية التي لا بدّ أن تنشأ عنها لكلا الجانبين. ثم سأل ابن سعود بأن يدلي بوجهة نظره في مستقبل الشرق الأدنى.

وهنا طرح ابن سعود رأياً يشبه، في أكثر من نقطة واحدة، الرأي الذي طرحه من قبل أمام الشبان الأتراك عام 1913:

قال له: "لقد حرّرت الحرب العالمية الأولى البلاد العربية من النير العثماني، لكنّها وضعت أكثرها تحت وصايات أجنبية. ولذلك فإنّ على الحرب العالمية الثانية أن تلغي نظام الانتدابات وتعيد إلى هذه البلاد استقلالها الناجز. إنّها يجب أن تكون اتحاداً للشعوب، يرتبط بعضها ببعض بروابط الإيمان المشترك".

لم يقل له – أو ربما قال له ذلك؟ - إنّه يقدّر بأنّ زعامة هذا الاتحاد يجب أن تؤول إلى حارس الأماكن المقدّسة، الذي أصبح منذ إلغاء الخلافة أعلى سلطة دينية في العالم الإسلامي.

على أنّ روزفلت لا يرى أيّ ضير في تحقيق هذا المشروع، ذلك لأنّه سيضعف من النفوذ الانكليزي في الشرق ويدعم النفوذ الأميركي. بل هو مستعدّ لمدّ يد العون إلى هذه الخطة التي تؤكّد شهرته كمعارض للاستعمار يحرص عليها بكل وسيلة ممكنة (وقد سبق له بأن ألمح إلى شيء من ذلك حين قابل سلطان مراكش في مؤتمر أنفة). لكنّ الأمور لم تلبث حتى فسدت حين تعرّض روزفلت لمشكلة فلسطين. فهو من جانبه مستعد لاستدراج الانكليز إلى الإقلاع عن انتدابهم لهذه البلاد بشرطين اثنين:

1) أن يوافق العرب على إنشاء وطن قومي يهودي سبق الوعد به في تصريحات بلفور عام 1917.

2) أن يوافقوا على زيادة ملموسة في حجم الهجرة الصهيونية خلال الأعوام التالية.

هنا تصلّب ابن سعود:

لقد صرح بلهجة حاسمة قائلاً: "إنّه لن يسعنا إطلاقاً أن نوافق على زيادة الهجرة اليهودية إلى فلسطين. بل العكس هو الصحيح. إنّ المسألة في نظرنا هي إضعاف مدّها إذا أريد لها ألّا تسبّب منازعات غير منقطعة".

ضاعف روزفلت جهوده لإقناع ابن سعود في أن يكون أقلّ تصلباً. لكنّها كانت جهوداً ضائعة. فلم تتوصّل أية ملاطفة ولا أية وعود إلى زحزحته عن موقفه. ولما لم تكن المسألة الفلسطينية في جدول الأعمال فقد اقتصر روزفلت على الكلام عن أمور أخرى. وافترق رئيسا الدولتين في جو حميم من الصداقة. ولما كان روزفلت راضياً عن مقابلته للملك في الظاهر فقد أهداه مقعده المتحرّك. لكنّه اعترف فيما بعد لبرنارد باروخ قائلاً:

"بين كلّ الرجال الذين قابلتهم في حياتي، لم ألتق واحداً منهم استخرجت منه أقلّ ممّا استخرجته من هذا الملك العربي ذي الإرادة الحديدية".

تقسيم فلسطين (1947)

في نهاية عام 1945، وكانت الحرب قد انتهت، توجّه فيصل إلى سان فرانسيسكو على رأس وفد كبير للمشاركة في تأسيس الأمم المتحدة. وقد ألقى في تلك المناسبة خطاباً هاماً أمام المجلس، امتدح فيه الصداقة العربية – الأميركية، وأعلن أنّه يثق كلّ الثقة بالولايات المتحدة لإنجاز استقلال البلاد العربية التي ما تزال موضوعة تحت الوصاية.

وفي عام 1947 عاد مرة أخرى إلى الأمم المتحدة. وفي هذه المرة أدرجت في جدول الأعمال قضية دقيقة: إنّها مصير فلسطين. وكان الانكليز الذين أرهقهم كبح جماح الاضطرابات المثارة بحضور العرب واليهود في وقت معاً، قد قرّروا التنازل عن انتدابهم الذي كان قد وكل إليهم القيام به من قبل عصبة الأمم الراحلة في 25 ابريل (نيسان) 1920. وفي ضوء هذا الواقع، طرح سؤالين: لمن تسلّم فلسطين؟ إلى العرب أم إلى اليهود؟ وفي ضوء معرفة فيصل العميقة لهذه المشكلة، تمّ اختياره من مجموعة الوفود العربية

ليكون الناطق باسمهم. ولما شاعت في كواليس المجلس بأنّ الدول الكبرى ميّالة إلى تقسيم فلسطين وخلق "دولة إسـرائيل" قلقت الوفود العربية. لكنّ فيصـلاً طمأن الجميع: إذ لا مبرّر لقلقهم في نظره. إنّ الاتصـالات الحميمة التي عقدها مع شـخصـيات أميركية كثيرة ولا سـيما مع السـفير جورج ودزورث، مستشـار الوفد الأميركي إلى الأمم المتحدة في الشؤون الخارجية للشرق الأدنى، تسمح له بأن يؤكد لهم عداوة أميركا لتقسـيم فلسـطين، وأنّها سـتعارض بكلّ الحزم فكرة خلق دولة يهودية. ثمّ جاوز هذا الأمر فجعل من نفسه ضامناً لها أمامهم.

وفجأة غيّر الرئيس ترومان موقفه بعد محادثة سـرية جرت مع الدكتور وايزمن. فأعلن ميله إلى التقسـيم واعترف بدولة إسرائيل بعد الإعلان عن إنشائها بربع ساعة فقط 14 مايو(أيار) 1948.

ذهل فيصـل أمام ما حدث. إنّ هذا التحوّل الذي لم يكن شـيء يسـاعد على التنبّؤ به قد وضـعه في موقف مربك جداً. إنّه لم يشعر فقط بأنّ أصدقاءه الأميركيين قد استغلّوا ثقته استغلالاً سيئاً، بل سوّدوا وجهه أمام الوفود العربية الأخرى التي لم ترضَ عمّا حدث بالطبع فأسِفت على أنّها قد اتخذت منه ناطقاً باسمها، وراحت تتساءل إلام يجب أن تعزو "سذاجته غير المبرّرة". والواقع أنّ في وسعنا اتهام فيصل بكلّ ما نريد، باستثناء أن يكون ساذجاً. إذاً فما معنى ذلك؟ الثابت أنّ نائب الملك في الحجاز هو من الحذر والوعي بحيث لا يسمح لغضبه أن يبدو أمام الناس. وأيضاً فهو واقعي جداً.

إنّه يعلم أنّ الولايات المتحدة دولة عالمية لا تسـتطيع البلدان العربية أن تقيس نفسـها بها. لكنّه في أعماق نفسه راح يتساءل عمّا إذا لم يكن مخطئاً في موقفه من الأميركيين، وفي اعتبارهم أصدقاء دائمين. هذا الحادث، ألقى، لأول مرة، ظلاً على العلاقات الأميركية – السعودية.

وفاة ابن سعود

سعود يصبح ملكاً (1953)

بعد سـنوات كثيرة من الكفاح اقتربت أيام ملك الجزيرة العربية العجوز من نهايتها. لقد دخل منذ قليل عامه الرابع بعد السبعين. فضعف بصره. وبدأت ساقاه تعجزان عن حمله. ثم توفي، بعد احتضار قصير،

في التاسع من نوفمبر (تشرين الثاني) 1953 في مدينة الطائف، وفي المكان نفسه الذي قتل فيه جدّه سعود الكبير.

وطرح السؤال الكبير: لمن يورث "فهد الصحراء" مملكته؟ لقد وقع اختياره، قبل وفاته، على البكر من أولاده، الأمير سعود، المولود عام 1901، في الساعة نفسها التي كان منهمكاً فيها باستعادة عاصمته. وبعد خمسة وعشرين عاماً، وفي أثناء معركة مع محاربي شمر، قفز سعود أمام أبيه وتلقّى في صدره طعنة الخنجر التي كانت موجّهة إلى والده. إنّ في وسعنا القول أنّ مصير المملكة في ذلك اليوم كان معلّقاً بخيط ضئيل. هذا التفاني والحب البنوي هما اللذان أراد ابن سعود أن يكافئهما.

ولا شك أنّ اختياره قد أملي على الوالد من واقع أنّ والدة سعود هي من أسرة السديري، بينما والدة فيصل تنتمي إلى أسرة الشيخ.

(إذ مهما تكن المظاهر، فإنّ قوانين الأنساب في الجزيرة العربية تكمن وراء القرارات السياسية). لكنّ فيصلاً لن يستبعد من أجل ذلك. فقد بادر سعود يوم تولّيه العرش إلى تسمية أخيه الصغير أميراً وارثاً وثبّته في وظائف الشؤون الخارجية.

وبهذا اللقب استمرّ الفيصل في إشرافه على شؤون المملكة.

الباب الثاني

فترة خلوّ العرش مع سعود

(1953 – 1964)

سعود يعتلي العرش

سعود، هو أيضاً، رجل عملاق، (طوله متران و4 سم). يتمتّع كأبيه بقوّة جسدية غير عادية، إنّه يجب أن ينفق طاقته في جولات طويلة على الحصان وفي سهرات ماتعة. نشاطه المحبّب هو الصيد بالبازي. إنّه إنسان قريب محبّب إلى القلب، حافل بالحيوية والقوة. ولكنّه بعيد من أن تكون له عبقرية أبيه السياسية. وهو على العكس من فيصل-صاحب العقل المنفتح على العالم. إنّ رؤيته للأشياء لا تتجاوز الآفاق الرملية للجزيرة العربية الوسطى. وهل يمكن أن يكون غير ذلك وهو الذي لم يغادرها إلا في القليل النادر؟ كان رجل وقار وهيبة، كريماً حتى الإسراف. إنّه طفل يستمتع قبل كلّ شيء بمصاحبة شيوخ القبائل الذين يعرف بالتفصيل كلّ محالفاتهم وشجرات أنسابهم. إنّه يعرف كيف يميز بنظرة واحدة ولاءهم أو تحفّظهم تجاه شخصه. لكنّ شؤون العالم تحتاج إلى غير هذا النوع من البصيرة والفطنة. إنّه لا يملك كأخيه ما جاء في الصيغة الرائعة التي وضعها بيرونسيل هوجوز "تلك الحدّة من الذكاء الذي تكيّف، بصورة معجبة لمعضلات عصره". والحقيقة أنّ ممارسة السياسة تتعبه وتضايقه. فلماذا إذاً يكون ملكاً إذا كان الغرض من ذلك هو الاهتمام بهذه المشكلات الثانوية؟ وأيضاً فهو يفضّل أن يتخفّف منها ويلقيها على كواهل الآخرين.

تابع فيصل مهمّته على رأس وزارته. والثابت أنّ الموضوعات الخاصة بمشاغله لم تكن تنقصه في نهاية ذلك العام 1953. لكن هناك موضوعاً يستحوذ بخاصة على انتباهه كلّه. إنّه ظهور جمال عبد الناصر على مسرح الشرق الأدنى.

فيصل في مواجهة الثورة المصرية

إنّ فترات الإقامة الطويلة التي قضاها فيصل في القاهرة سمحت له بمراقبة ثورة "الضباط الأحرار" عن قرب، وبالتالي ارتفاع جمال عبد الناصر إلى قمّة السلطة. إنّها الفترة التي كان جيفرسون كافري سفير الولايات المتحدة إلى القاهرة ينادي فيها، دون تكلّف منه، جمالاً ومعاونيه بكلمة "أولادي" ممّا يدلّ في ظاهر الأمر

إلى أنّ البكباشي وفريقه من الضباط يتمتّعون بمساندة الولايات المتحدة. لكنّ بعض اللمسات لم تلبث حتى جاءت توقظ مخاوفه بسرعة.

أن يكون جمال عبد الناصر قد طرد الملك فاروق من عرشه ونفاه (26 يوليو "تموز" 1952)، وأن يستدرج الانكليز إلى إخلاء منطقة السويس (27 يوليو "تموز" 1954)، وأن يستغلّ هذا الإخلاء سريعاً لتأميم القناة نفسها (26 يوليو "تموز" 1956)، وأن يخرج بانتصار سياسي من الأزمة المتولّدة عن الهزيمة العسكرية التي نشأت عنها (نوفمبر "تشرين الثاني" 1956) ليس فيه ما يدهشه، بل ليس فيه ما يسوؤه. هذه الوقائع كانت مسجّلة في برنامج الثورة. لكنّ القطيعة مع البيت الأبيض على أثر التصرفات الخرقاء الكبيرة من قبل فوستر دالس والتقرّب من الكرملين الذي نتج عن ذلك، والوحدة (العابرة) بين سوريا ومصر (مارس "آذار" 1958)، والمساندة الصريحة للثورة العراقية (يوليو "تموز" 1958)، ثمّ المواقف المتزايدة العنف التي اتخذها عبد الناصر ضدّ النظم الملكية التي يتّهمها بمقاومة أطماح الشعوب العربية إلى الوحدة (لقد أقام الملوك عروشهم فوق بسط من السجاد، إنّني سأسحب هذه البسط إليّ فتترنّح العروش وتسقط)، هذه كلّها لم تكن من ذوقه ولا تسرّه. وأكثر من هذا ما يدّعيه من حقّه في ممارسة الزعامة على العالم العربي، ألا تهدف هذه كلّها إلى استبعاد العربية السعودية ووضعها في الصفوف الخلفية باتهامها أنها بلاد الجهالة والرجعية؟

(لقد استمرت الأضواء موجّهة نحو القاهرة بصورة متفرّدة لمدة خمسة عشر عاماً). أما فيصل من جانبه فلم يغيّر رأيه: ففي نظره أنّ الجزيرة العربية هي وحدها صاحبة الحقّ في تنفيذ الوحدة العربية. إنها، في رأيه على الأقل، لم تستعمر من قبل أبداً، كما تحتوي على الأماكن المقدّسة حيث تردّدت لأول مرّة أصداء وحي النبوة.

لكنّ هناك شيئاً آخر سيرفع بين الرجلين سوراً من المنازعات. أن يمارس عبد الناصر سياسة "عدم الانحياز" فهذا أمر لا اعتراض عليه، أما أن يتحيّز بوضوح إلى جانب موسكو، وأن يُدخِل الشيوعية إلى الشرق، فإنّ هذا في نظر فيصل، الجريمة التي لا تغتفر، ليس لأنه ينال من سلامة الإسلام وكماله وحسب، بل لأنّه بعيد عن توحيد العالم العربي، فقد جعله فريقين: فريق الجمهوريات الاشتراكية والتقدّمية، وفريق

الملكيات التقليدية. كما جعل الشعوب فريقين: فريق الشعوب المأخوذة بالحرية والمولعة بها من جانب، ومن جانب آخر "عملاء الامبريالية الأميركية". ثمّ لم تكفّ العداوة بين فيصل وعبد الناصر عن النموّ فيما بعد، وقد بلغت القمة في أثناء النزاع الذي وضع كلاً منهما ضدّ الآخر حول قضية اليمن.

مأزق اليمن

في عام 1948، قتل الإمام العجوز يحي، حميد الدين، وهو في الثمانين من عمره، في مؤامرة ذهب ضحيّتها كلّ من وزيره الأول واثنين من أبنائه. والجدير بالذكر أنّ إمام اليمن يحي حميد الدين هو الذي هزم فيصل جيشه في معركة جرت بعد الاستيلاء على الحجاز.

وقد خلفه على العرش ولده الثالث، أحمد بن يحي، وفجأة تسامع الناس أنّ الإمام أحمد بن يحي قد توفي متأثراً بالمرض خلال شهر سبتمبر (أيلول) من عام 1962، وأنّ ولده الإمام البدر قد خلفه على العرش، لكنّ الشعب الثائر قد عاقبه دون جريرة ارتكبها في قصره ورفع إلى السلطة ضابطاً شاباً غير معروف يدعى عبد الله السلال. ثم لم يلبث هذا الأخير حتى أعلن النظام الجمهوري ومنح نفسه رتبة "مشير".

كان فيصل خلال تلك الفترة في واشنطن، حيث جاء يجري محادثات خاصة مع السناتور فولبرايت وكثير من كبار الموظفين في وزارة الخارجية، وفجأة، وصلت برقية صحفية تعلن أنّ الاتحاد السوفياتي قد اعترف بحكومة صنعاء الجديدة.

في ذلك اليوم كان فيصل يتناول طعام الغداء في البيت الأبيض على مائدة الرئيس كنيدي. وفيصل يعرف اليمن جيداً، إذ قاتل فيها خلال أيام شبابه، فسأله كنيدي عن رأيه في الموقف.

أجابه فيصل: "إنّني لا أنصحك بالتسرّع في الاعتراف بنظام السلال، ذلك لأنّ الانقلاب الذي أطاح بالإمام البدر، وإعلان الجمهورية بعد ذلك، لا يعبّران عن الإرادة الشعبية. لقد حدث هذا كلّه بسبب انقلاب عسكري أعدّه ووطّأ له جمال عبد الناصر".

لكنّ كنيدي، الذي كانت تملأ رأسه هموم أخرى، لم يستمع إليه إلا بأذن ذاهلة شاردة. إنّ انشغاله الأكبر هو في الحيلولة دون أن تتغلّب موسكو عليه. ولذلك فإنّ الولايات المتحدة أقدمت بدورها على الاعتراف بجمهورية اليمن في 19 ديسمبر (كانون الأول).

عاد فيصل مسرعاً إلى الرياض، حيث وجد الأفكار هناك في حالة قلق وبلبلة. أمّا أخوه سعود فقد بدا أنّه لا يدري كيف يواجه الخطر الذي يمثله إعلان الجمهورية في اليمن.

لقد وجد فيها مناورة شيطانية من قِبَل عبد الناصر، الغرض منها هو الاستيلاء على الجزيرة العربية من الخلف. وأخيراً كلّف فيصلاً بتأليف حكومة جديدة دخل فيها أربعة أعضاء من الأسرة الملكية وثماني شخصيات سعودية.

وفي أثناء الأسابيع التالية، زاد الموقف في اليمن سوءاً. لقد تبيّن أولاً أنّ الإمام البدر لم يمت، خلافاً لما شاع من قبل. لقد نجح في الهرب متسلّلاً إلى الجبال، حيث بدأ بإثارة الكثيرين من الأنصار. وفي مقابل ذلك لم يعد في وسع أحد أن يتجاهل إسهام عبد الناصر في إعداد هذا الانقلاب.. أوَليس أنّ أول وحدة من القوات المصرية وصلت إلى صنعاء قبل إقدام السلال على تنفيذ انقلابه بأربع وعشرين ساعة؟ ومنذ ذلك اليوم جاءت تشكيلات أخرى لتدعيمها. وفي أثناء الأشهر التالية ارتفع عدد القوات المصرية في اليمن من عشرين ألفاً إلى أربعين ألفاً. وبعد قليل اقترب مجموع القوات المصرية من مائة ألف رجل.

هذا وقد أخذت الوحدات القادمة من القاهرة تشرف على كلّ مواقع المدن، والوديان المنخفضة والشريط الساحلي. لكنّ المناطق الجبليةن ولا سيما الأراضي الواقعة في الجزء الشمالي من البلاد، أي تلك الموجودة في محاذاة العربية السعودية، بقيت بعيدة عن متناول يدها. هذه المناطق أشرف عليها أنصار البدر الذي وجّه إلى الجزيرة العربية نداء الاستغاثة. فأرسل فيصل إليهم أسلحة وذخيرة ومؤناً وأعتدة مختلفة، وباختصار، أرسل كلّ ما يستطيع إرساله لتدعيم مقاومتهم. فردّ الجيش المصري على هذا التصرّف بتنظيم سلسلة من الغارات الجوية على نجران ومدينة جيزان الساحلية، حيث تمرّ قوافل المؤن السعودية. وفي الثالث من يناير (كانون الثاني) عام 1963، أمر فيصل بالتعبئة العامة في الجزيرة، وفي الوقت نفسه قطع العلاقات الدبلوماسية مع القاهرة.

وفجأة اضطربت أميركا. ذلك أنّ البيت الأبيض كان حريصاً على الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع الرياض، التي أصبحت من أكبر موارده النفطية. ولما كان الرئيس كنيدي قد اعترف بجمهورية اليمن، حاول أن يوازن علاقاته على سواء بين الرياض وصنعاء. فأرسل إلى العربية السعودية السيد إيلسورث بنكر، برتبة سفير، ليطلب إلى فيصل الامتناع عن القيام بأية خطوة تصبح بها بلاده في حالة حرب مكشوفة ضد مصر. وفي الوقت نفسه، توصّل إلى إرسال مراقب إلى اليمن من قِبَل الأمم المتحدة.

فكان هذا المراقب هو السيد رالف بانش السكرتير العام المساعد لمنظمة الأمم المتحدة. وبعد محادثات جرت من قبل السيد بنكر في الرياض والسيد بانش في صنعاء، وافقت مصر والعربية السعودية على تحمّل نفقات بعثة من الأمم المتحدة تكون مهمّتها تعيين الحدود بطريقة محدّدة بين جنوب العربية السعودية وشمال اليمن، وخلق منطقة محايدة بين الفئتين المتحاربتين.

وبعد ذلك بخمسة عشر يوماً أرسلت إلى الموقع المطلوب قوة من الأمم المتحدة بقيادة ضابط سويدي هو الجنرال فون هورن لتنفيذ خطة فكّ الارتباط. وتشتمل هذه القوة على مائة وعشرين كندياً وثمانين يوغوسلافياً. لكن كيف يتوصّل مائتا رجل إلى الإشراف على ألف كيلو متر من الحدود تقريباً ومراقبتها، عبر جبال وصحاري، مع مراقبة حثيثة لخمسمائة كيلو متر من الساحل؟ لقد كانت النتيجة كما هو منتظر: إنّ الأسلحة والأعتدة والنجدات بقيت تتدفّق نحو المعسكرين، دون أن يتوصّل أنصار السلال وأنصار البدر إلى انتزاع المبادرة والتغلّب على الجانب الآخر.

أما فيما يتعلّق "بخطة فكّ الارتباط" فقد ظهر فوراً أنّ تطبيقها أمر خيالي لا يتحقّق.

وفجأة، استقال الجنرال فون هورون، في 20 أغسطس (آب) 1963. فخلفه ضابط هندي هو الجنرال غياني. فاستغل السيد يوثانت، السكرتير العام للأمم المتحدة هذا الحادث وصرّح قائلاً: "إنّ البعثة تمارس نشاطها كاملاً". وبعد ذلك بخمسة عشر يوماً فرض عليه أن يعترف "بأن البعثة عاجزة عن القيام بمهمّتها"، وألقى اللوم على عبد الناصر. لكنّه، محافظة منه على التوازن، لام الحكومة السعودية أيضاً. وبذلك انكشف تدخّل الأمم المتحدة عن فشل مؤسف.

في بداية عام 1964، وصل النزاع في اليمن إلى مرحلة التجمّد. وهنا قرّر الرئيس السلال تدويل النزاع بطلب المساعدة من روسيا والصين، فتوجّه في آذار (مارس) 1964 إلى الاتحاد السوفياتي وعقد مع زعماء الكرملين معاهدة صداقة وتعاون اقتصادي وتقني. هذه المعاهدة اشتملت على قرض بقيمة 56 مليون روبل. وبعد ذلك بثلاثة أشهر زار بكّين ووقّع مع الصينيين اتفاقيات مماثلة. وفي أثناء ذلك الوقت، استمرّت القرى اليمنية تحترق.

السفن الروسية تمخر مياه البحر الأحمر! وقريباً يأتي دور الخليج العربي. فكيف لا يرى الأميركيون هذا الخطر؟ لقد رجاهم فيصل أن يتّخذوا موقفاً واضحاً، وأن يقطعوا كلّ علاقاتهم مع نظام السلال. فأجابه البيت الأبيض قائلاً: "هذا أمر غير مرغوب فيه لأنّه يعني ترك الميدان حراً أمام الروس". فكم من الوقت يجب أن يشهد هذه المذبحة؟ ومتى يُرفَع سدٌّ أمام هذا المدّ المتزايد من الهدم والتخريب.

وضعت أعصاب فيصل أمام امتحان شديد، وظهر أثر ذلك في صحته. لقد أخذ وجهه بين وقت وآخر تعبيراً مؤثراً وتحدّد بخطّين محتفرين بين أنفه وملتقى شفتيه. ومع ذلك فإنّه لم يقم بأية حركة تؤدّي إلى تفاقم النزاع. إنّه يراقب تتابع الأحداث دون أن يخرج على هدوئه، ذلك لأنّه مقتنع في أعماق نفسه بأنّ عبد الناصر، لا هو شخصياً، سينهار ويسقط أولاً في حرب الاستنزاف هذه. لقد قال في نفسه، أميناً على تكتيكه الذي نجح به دائماً: "إنّ الصبر ومرور الزمن الطويل يصنعان من القوة أكثر مما يصنعه التهيّج الغاضب".

الملك سعود يعتزل العرش
1964

تمثل السنوات العشر التي انقضت بين 1954 – 1964 في حياة فيصل فترة طويلة من المحن والمصائب، بقي خلالها محتفظاً بصمته وراح يصقل أسلحته: الاحتراس والفطنة في السياسة الداخلية، والتوازن والازدراء والحكمة في عالم الدبلوماسية. لم يكد أبوه يتوفى حتى شعر بضرورة تصفية النزاع السخيف حول البريمي

الذي انضوى فيه الملك سعود في قليل من الخفّة، وهو النزاع الذي حسمه الانكليز لمصلحة سلطان عمان (فالبريطانيون رغم التقلّبات في سياستهم كانوا مصمّمين على الاحتفاظ بسيطرتهم على كلّ الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة، من رأس كابر إلى بيريم [1]).

فهناك قضية اليمن المؤسفة التي تمتد وتستمر أبداً. وهناك أيضاً صحّته التي تسبّب له المزيد من الوساوس وترغمه على الإقامة المتكرّرة في مستشفى ولتر ريد في نيويورك. يقول أصدقاؤه: "لا تجزعوا عليه من شيء أبداً إنّه سيعيش طويلاً: إنّ له صحة سيئة من حديد". ومع ذلك فإنّ فيصلاً، في بعض الساعات، يبدو وكأنّ الألم يعترضه، والوساوس تستنزفه. لكنّ الرجال في حجرات قصر الرياض يهمسون "إنه مريض جداً، ولم يبق له وقت طويل". فماذا إذا لم يكن غير ذلك؟

ذلك لأنّ الشؤون الداخلية مطمئنة جداً. فالملك سعود مقاتل عظيم، لكنّه يفتقد الحسّ السياسي، وله مفهوم شخصيّ جداً حول مهمّته كملك. إنّه يغرف بيدين ممتلئتين من خزينة الدولة ويتصرّف بما يغرفه كما لو أنّه ملكه الشخصي ليبني لنفسه قصوراً شديدة الترف. تارة يرشو رجالاً لاغتيال عبد الناصر، وتارة أخرى يريد أن يقطع كلّ العلاقات مع واشنطن وقد أسخطه الرفض الأميركي لمقاطعة السلال، في الوقت الذي يبذل فيه فيصل كلّ جهد ممكن للحفاظ على هذه العلاقات، علماً منه بأنّ تطوّر المملكة سيتجمّد في مكانه دون العون التقني من قبل الولايات المتحدة، وبأنّ كلّ ما حقّقه والده سيتحوّل إلى العدم. ولنضف إلى هذا كلّه أنّ صحة الملك سعود قد بدأت أيضاً تقلق رجال حاشيته. إنّها تدفعه إلى قضاء فترات استشفاء طويلة في سويسرا، والنمسا، وباريس. ويزيد من دواعي الأسف في هذا الغياب الطويل رفضه المستمر في أن يخوّل فيصلاً السلطات التي يطالبه بها، فتكون المملكة في أثناء غيابه غير محكومة.

لم تلبث نتائج هذه الإدارة المتفكّكة حتى ثقلت على الجميع. نجح سعود في إفراغ صناديق الدولة بسبب إسرافه في إنفاق الأموال العامة. فالريال لم يعد مقبولاً في الأسواق الأجنبية رغم المدّ المتصاعد في موارد

1 . راجع حول قضية البريمي للمؤلف نفسه: الملك سعود، ص 145.

الذهب الأسود، والعجز في ميزان المدفوعات التجارية يزداد يوماً بعد يوم، ولم يعد توقيع الدولة موضع الثقة. ثم لن يمضي وقت طويل حتى تصبح العربية السعودية عند حافة الإفلاس.

وكما هو الشأن دائماً، فقد أحدثت هذه الأوضاع آثارها في السياسة الخارجية. لقد أخذ صوت الجزيرة العربية يتضاءل أكثر فأكثر في المؤتمرات الدولية. فمن هو الذي يستطيع أن يقيم أي وزن لكلام بلاد عاجزة عن تأمين تعهّداتها المالية؟ ومن هنا قلّل فيصل من ظهوره أكثر فأكثر في مدينة الرياض بعد أن استولى اليأس عليه. لقد عزل نفسه في مواطن إقامته الخاصة من جدة ومكة.

ولا شك أنّ جمهور الشعب لم يدرك الخطر إلا عن طريق الهمسات والإشاعات المتداولة. لكنّ أمراء الأسرة الملكية يدركون هذه الحقيقة بوضوح تام. لقد وجدوا أنّ مبادرة جدّية هي وحدها القادرة على رفع البلاد وتصحيح الأوضاع. من أجل ذلك لا بدّ من إجراء حاسم، ووضع حدّ سريع لهذه الثنائية الملكية التي نشأت بين سعود وفيصل بطبيعة الأشياء.

أخذ الأمراء خلال شهر أكتوبر (تشرين الأول) 1964 يتداولون ويتشاورون في الموقف ويبحثون عن الدواء. وبالرغم من أنّ آراءهم تختلف في كثير من النقاط، فقد اجتمعت كلّها وتوحّدت حول هذا الأمر: أن يختفي سعود وأن توضع السلطة بيد أخيه.

طبعاً لم يكن فيصل يجهل شيئاً مما يجري إعداده. كما أنّه لم يفعل شيئاً لإزالة المخاوف العامة، لكنّه حرص على البقاء بعيداً عن هذه المشاورات الخفيّة. فهو لا يريد أن يتّهم بالتآمر على أخيه.

في الخامس والعشرين من أكتوبر (تشرين الأول) اجتمع الأمراء من أفراد الأسرة في دار خالد بن عبد العزيز، نائب رئيس الوزراء – وهم يمثّلون نوعاً من البرلمان في واقع الأمر – وقرّروا نقل السلطة الزمنية إلى فيصل. وفي التاسع والعشرين من الشهر نفسه تنادت مجموعة من فقهاء الشريعة للاجتماع عند المفتي الأكبر في العربية السعودية، محمد بن ابراهيم الشيخ [1] (1) وتوصّلوا إلى اتخاذ مثل هذا القرار فيما يتعلّق بالسلطة الروحية.

1 . المفتي الأكبر، أو رئيس علماء العربية السعودية، ينتسب إلى أسرة طرفة الشيخ والدة فيصل.

بعد ذلك عقد الفريقان مجتمعين مجلساً عاماً في الرياض. حضره تقريباً مائة أمير من أفراد الأسرة وخمسة وستون فقيهاً. فوقّعوا بياناً ينادون فيه بفيصل ملكاً على البلاد. ثم أرسلوا إليه وفداً ليطلعه على هذا القرار.

وحُمِلت الرسالة، التي تنادي به ملكاً، إليه، في مكان ما بين جدّة والرياض حيث كان في مؤتمر مع زعماء القبائل. وبينما كان يكمل قراءتها ارتفع صوت المؤذّن يؤذّن المؤمنين بالاجتماع لصلاة العصر. توجّه فيصل إلى المسجد وغرق في تأمّل عميق. وعندما خرج منه، ألحّ عليه الفقهاء أن يعطي جوابه.

- قال لهم: "دعوني أفكّر حتى صلاة العشاء".

وعندما انتهت صلاة العشاء، بدا العلماء أكثر إلحاحاً عليه.

- قال لهم "قبل أن أجيبكم، أرى من واجبي أن أسألكم: كيف تجدون الوسيلة إلى تطبيق قراركم؟
- "بالمناداة بك ملكاً!"
- وماذا سيكون مصير الملك الحاكم؟
- لزم العلماء الصمت. فهذه مسألة لم يفكّروا فيها من قبل. وهنا قال لهم فيصل بصوت وقور:
- "في دار عبد العزيز لا يُعزَل الملك ما لم تستنفد كلّ الوسائل لإقناعه. فهل استنفدتموها حقاً؟"

فبدا التأثّر على وجوه العلماء، ثم تقدّموا نحو وِلد ابن سعود وقالوا له:

- " الحقيقة، يا فيصل، إنّك جدير بأن تكون ملكاً علينا".

وهنا عاد الوفد إلى الرياض، إلى قصر الناصرية، للحصول من سعود على تخلّيه عن العرش، بعد أن قاوم أياماً كثيرة، إذ أنّه لم يدرك جيداً ما يؤاخذونه عليه، وانتهى به الأمر إلى الرضوخ. ثم قرّر التوجّه إلى القاهرة [1].

وفي صباح الثاني من نوفمبر (تشرين الثاني) 1964 اجتمع مجلس الوزراء مجدّداً فصدّق بالإجماع وثيقتين هامتين: أولاً بيان العلماء الذي ينادي بفيصل ملكاً على الجزيرة العربية ويوليه السلطة الروحية، ثمّ تصريحاً موقّعاً من كلّ أعضاء الأسرة الملكية يقسمون فيه على الولاء له، ويضعون بين يديه كامل السلطة الزمنية.

هنا فقط مضى فيصل نحو عاصمته.

---

1 . ومن القاهرة توجّه فيما بعد إلى أثينا حيث توفي عام 1969.

وقد انتشر نبأ خلافته على العرش في المدينة بعد ظهر ذلك اليوم. وفوراً تشكّلت مجموعات من الناس: أمراء، وشيوخ، وشخصيات مختلفة، توجّهوا جميعاً نحو فيصل ليعربوا له عن ولائهم. وعندما وصل إلى الرياض، كان جمهور كبير من الناس يجتمع على امتداد الجادة الوسطى، ويهتف طويلاً له.

وفي مساء الرابع من نوفمبر (تشرين الثاني) أقسم رجال الحرس الوطني وأفراد الجيش يمين الولاء. هكذا أصبح انتقال السلطة أمراً محقّقاً.

الباب الثالث

فيصل ملك العربية السعودية

(1964 – 1973)

فيصل يتبوّأ عرش البلاد

(4 نوفمبر (تشرين الثاني) 1964)

الآن، أصبح فيصل ابن عبد العزيز آل سعود ملكاً على الجزيرة العربية. كان في الثامنة والخمسين من عمره حين تبوّأ العرش. وقد مضت عليه خمسٌ وأربعون سنة وهو يشارك في توجيه شؤون البلاد. لكنّه، للمرة الأولى، سيتصرّف كملك مطلق، دون أن تناقش قراراته أو يعترض عليها من الآخرين. من أجل ذلك سيستطيع أخيراً أن يعطي كلّ ما يقدر عليه.

وفي الوقت نفسه، حدث تحوّل عميق في داخل ذاته. إنّ هذا الرجل الذي كان يظنّ أنّ قواه قد خارت وأنّ المرض قد غلب عليه، لم يلبث حتى صلب عوده وبدا كأنّه استردّ شبابه من جديد. الصحيح أنّه بقي متلفعاً برداء كرامة الحاكم السيّد. إنّ مناداته بصاحب الجلالة ليست صيغة بروتوكولية: بل هي تعبير عن واقع. وقد لوحظ في أعماقه ظهور قوة جديدة أخذ يواجه بها في نشاط متزايد كلّ المعضلات الصعبة التي تطرح نفسها أمامه. قال أحد أخصّائه: (إنّه ليقال أنّ الله لم يؤجّل تسلّمه للعرش إلا ليتيح له الفرصة اللازمة لكسب التجربة الضرورية).

وفي أقلّ من ثلاث سنوات، نجح في تصحيح الوضع المالي الذي كان قد تعرّض لخطر شديد. ولكي يبدأ عملية الإصلاح، ميّز تمييزاً تاماً بين ميزانية الدولة ومخصّصاته الشخصية. بين النفقات العامة ومخصّصاته. ثم أعاد إلى ميزان المدفوعات توازنه، كما أعاد إلى الريال قيمته الحقيقية، ووضع حداً للتبذير والإسراف، وكافح استغلال النفوذ، وقضى إلى أبعد حدّ ممكن على المحاباة والفساد اللذين انتشرا في الأوساط الحاكمة، وخفض مستوى العيش عند الأمراء والشخصيات الوجيهة، ودعم سلطان الملك، ونفوذ الحكومة. ثم ظهرت على الفور إدارة جديدة، في ظلّها ملكت العقول نفسها، وصلبت الإرادات، واستؤنفت المشاريع الكبيرة، وازدهرت التجارة. أمّا منحنيات الإحصاءات التي كانت على وشك السقوط فقد استأنفت، سريعاً، مسيرتها الصاعدة.

مؤتمر الخرطوم
(29 أغسطس (آب) 2 سبتمبر (أيلول) 1967)

في وسعنا أن نقيّم سعة النهضة المحقّقة في العربية السعودية لأوّل مرّة في مؤتمر الخرطوم المنعقد عام 1967.

ففي الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والخمسين من صباح اليوم الخامس من يوليو(حزيران) 1967، انفجرت حرب الأيام الستة (كأنّها الرعد القاصف بين إسرائل والبلاد العربية). وعند ظهر ذلك اليوم كان الطيران المصري قد سُحِق وهو جاثم على أرضه. وخلال أربعة أيام خسِر عبد الناصر كلّ مدرعاته، ومزالق صواريخه، وأسلحته الحديثة. وبعد ستة أيام كان الإسرائيليون يحتلّون سيناء، والجولان، والضفة الغربية من الأردن. إنّه ما كان ليحدث هجوم صاعق أشدّ زلزلة من هذا الهجوم. ففي أقلّ من أسبوع كانت القوات الإسرائيلية تحاذي تقريباً كلّ الضفة الشرقية من قناة السويس.

من الطبيعي أن تكون الصدمة عنيفة رهيبة بالنسبة لعبد الناصر، بحيث أنّه أصيب بالذهول والارتباك. فأعلن استقالته من الحكومة، ثمّ لم يعد عن قراره إلا بعد ليلة من الهذيان كان فيها الشعب بعيونه الدامعة يناشده البقاء في مكانه من السلطة وألّا يتخلّى عنه (9-10 يوليو"حزيران").

أمّا بالنسبة لمصر فالكارثة أكبر من الخيال. لا لأنّ قوتها العسكرية قد أبيدت وحسب، بل لأنّ وضعها المالي في حال ميئوس منها. لقد استدانت لسنوات طويلة جداً من أجل أن تغطّي مشترواتها من السلاح. يضاف إلى ذلك أنّها ستحرم من موارد القناة، حيث سيتمّ قطع الطريق في هذا الممرّ البحري لأجل غير مسمّى. هذه الموارد ترتفع إلى 200 مليون دولار في كل عام. والجدير بالذكر أنّ عبد الناصر كان يواجه أمامه هاوية فاغرةً فاها تحت قدميه، حيثما نظر من حوله. ولذلك فهو لا يسعه في هذه الحال إلا أنّ يتوجه بنداء استغاثة إلى البلاد العربية الأخرى.

قرّرت هذه البلاد أن تجتمع في الخرطوم، عاصمة السودان، بين 29 أغسطس (آب) و2 سبتمبر (أيلول)، لكنّ الأفكار والعقول قلقة مرتبكة. فهل أنّ ملك العربية السعودية، الذي لم تعد عداوته لعبد الناصر سراً خفياً على أحد، يوافق على حضور هذا المؤتمر؟ وإذا لم يأت، فمن هو القادر على ردم الثغرة المنفتحة، التي تزداد سعة في كلّ يوم، في الأوضاع المالية المصرية؟

بعد التأمّل عدداً من الأيام، أعلن فيصل عن رغبته في المجيء. وبادر عبد الناصر إلى أرض المطار لاستقباله (فالله وحده يعلم ماذا كان يعاني في أعماق نفسه خلال تلك الفترة).

وعندما هبط ملك الجزيرة العربية من طائرة البوينغ الخاصة ووجد نفسه وجهاً لوجه أمام الرئيس المصري، احتفظ الرجلان بصمتهما مدة طويلة وكلّ منهما يتفحّص الآخر بنظره. ثمّ تحرّك كلّ منهما نحو الآخر تقريباً في الوقت نفسه، ومدّ الأيدي وضمّ أحدهما الآخر، بينما كان جمهور الحضرين يتنفس الصعداء. فقد كان مثل هذا البؤس الكبير وحده هو القادر على تحقيق المصالحة بينهما. ثم مضى عبد الناصر يقود فيصلاً نحو السيارة يداً بيد.

وفي أثناء المؤتمر أعلن ولد ابن سعود أنّ العربية السعودية تتعهّد بالتعويض عن 37 في المائة من الخسائر المترتّبة على إغلاق القناة. لقد صرح أنّ حكومة الرياض ستدفع لحكومة القاهرة في كلّ شهر مبلغاً من المال يساوي أكثر من ثلث المبلغ الذي كان يمكن أن يعود به عليها استغلال الممر المائي، ثم يستمرّ هذا الأمر حتى تستردّ وضعها العادي بصورة نهائية. (سيرتفع هذا المبلغ مع مرور الأعوام إلى أكثر من مليار دولار). أمام هذا المثل الطيب تأثّر أمير الكويت سالم الصباح وأمير ليبيا الوارث فأعلنا أنّهما سيشاركان على الترتيب في تقويم الأوضاع المالية المصرية بنسبة 40 في المائة للأول و23 في المائة للثاني.

هكذا تمّ إنقاذ عبد الناصر. والواقع أنّ فيصلاً قد تصرّف بكثير من اللباقة واللطف حين حال بأسلوبه الخاص دون أن يقال بأنّ الريّس في توجّهه إلى الخرطوم إنّما توجّه إلى كانوسّا. لقد أظهر تحرّكه كما لو أنّه مجرد شهادة على التكافل العربي.

ومن الواضح أنّ رئيس الحكومة المصرية، سيكفّ منذ ذلك الوقت، عن حملاته على النظم الملكية بصورة عامة والنظام الملكي السعودي بصورة خاصة. كما أنّ عليه أيضاً أن يتوقّف عن متابعة المنازعات في اليمن، وأن يعيد قواته إلى البلاد ويوافق على حق الشعب اليمني في تقرير النظام السياسي الذي يختاره لنفسه بكامل حريته. لقد كان من الأفضل أن يوافق على هذه الدعوة قبل سنوات كثيرة، بدلاً من أن ينطلق في مغامرة جنونية كلّفت مصر قريباً من عشرة مليارات فرنك، وجمّدت في وديان اليمن أكثر من خمس فرق كانت مصر أحوج ما تكون إليها في سيناء!

لكنّ أساليب التاريخ غامضة لا سبيل إلى اختراقها والنفاذ منها. فلو أنّ هذه الفرق الخمس موجودة في سيناء، فالثابت أنّها كانت ستتعرّض للسحق والتدمير مع غيرها. لكنّ بقائها مجمّدة في اليمن هو وحده الذي أنقذها من الإبادة. وبعودتها إلى ضفاف النيل بعد إيقاف إطلاق النار، ستكون نواة لجيشٍ مصري جديد. وهو الجيش نفسه الذي استخدمه أنور السادات بعد ذلك لتحرير قناة السويس في أكتوبر (تشرين الأول) 1973. لكنّ عبد الناصر لن يرى هذا اليوم. إنّه سيكون ميتاً في أثناء ذلك قد صرَعته أزمة قلبية (29 سبتمبر"أيلول" 1970).

فيما مضى، كان فيصل، باعتباره مستشاراً لأبيه، أتاح لابن سعود فرصة الحصول على امتيازات غير مأمولة من خطة الجلاء عن اليمن، وفي هذه المرة، خرج فيصل، وقد أصبح ملك الجزيرة العربية، بامتيازات أعظم من خطة (فكّ الارتباط الثاني اليمني).

إنّه بإستدراجه عبد الناصر إلى سحب قواته يكون قد وضع حداً لخطر مجابهة دموية ليست أقلّ تمثيلاً لاستمرار تهديد بالغ الخطورة لشبة الجزيرة كلّها، رغم أنّ هذه المجابهة قد وصلت إلى نقطة التوقّف. (وفي المناسبة ذاتها يمكنه أن يقول لنفسه: أنّه فرض فترة توقّف على التغلغل السوفياتي في هذه المنطقة من العالم).

إنّه إذ يمدّ يده إلى الرئيس، إنّما يستردّ لمبدأ التضامن الإسلامي شرفه وكرامته. هذا المبدأ الذي لطالما أثير الحديث عنه، وطالما سُخِر منه وهُزِئ به.

وأخيراً فإنّه بالعون المالي الذي قدّمه إلى مصر، بدأ يستعيد المكانة التي طالما طمح إليها في صميم العالم العربي، أي المكانة الأولى، والجدير بالذكر أنّ إدراك هذه الحقيقة لم يتهيّأ للجميع، لكنّهم، بعد بضع سنوات، لم يلبث حتى أشدّ المعاندين منهم أن وافق على هذه الحقيقة.

(نعم... الصبر وعامل الوقت الطويل...) إنّ الأحداث لن تستطيع أبداً أن تؤكّد صحة هذا التوجيه بمثل هذه الطريقة الساطعة الرائعة.

فيصل ملك الجزيرة العربية

(1964– 1973)

إذا كانت السنوات العشر التي انقضت بين عام 1954 وعام 1964 بالنسبة إلى فيصل فترة انتظار ومحنة، فإنّ تلك التي انقضت بين 1964 و1974 تمثّل فترة نجاح، بل يمكننا القول أنّها فترة انتصارات. لقد حقّقت الجزيرة العربية (قفزة خصبة إلى الأمام) تحت قيادته النشيطة المشرقة.

إنّ المملكة التي أورثه أبوه إيّاها، والتي استولى عليها هذا الأخير بذؤابة سيفه، لم تتجاوز في مقدّمتها مرحلة الإقطاع. لقد كانت في الحقيقة (امبراطورية أبوية)، لكنّ ابن سعود، المجَمّع العظيم للصحاري، كان أيضاً موجّهاً قوياً للرجال. وبالرغم من الجهود التي بذلها خلال السنوات الأخيرة من حياته لم يتوصّل إلى أن يجعل من الجزيرة دولة عصرية. كانت شؤون البلاد تعالج بالمناقشات الطويلة المملّة بين زعماء القبائل الذين يتميّزون بالنزق والحذر. كلمة واحدة تقال في شيء من الحدّة، أو حركة يومِئ بها صاحبها في غير حكمة تعرّضان وحدة البناء إلى الانهيار. كلّ هذا قد تغيّر في عهد فيصل. فها هو على رأس بلاد مساحتها 1840.000 كيلومتر مربع، أي ما يساوي مساحة البلدان التالية مجتمعة(فرنسا، ألمانيا، إيطاليا، سويسرا) يسكنها قريب من 8 ملايين من السكان، وهي تتمتّع بثروات أعلى كثيراً من حاجات شعبها.

في عهد والده، كانوا يحتاجون إلى أسبوع كامل لحمل نبأ من شاطئ من المملكة إلى شاطئ آخر. أمّا الآن فإنّ في وسعه، بالطائرة، والراديو، والتلفزيون (الذي بنيت منه سبع محطّات مرسلة) أن يتوجّه يومياً، وبصورة مباشرة إلى كلّ واحد من رعاياه.

الدستور والشعار الوطني

القرآن هو دستور العربية السعودية. كلّنا نعلم أنّ هذا الكتاب ليس توراةً وحسب، بل هو قانون جزائي ومدني يضبط سلوك الإنسان في كلّ ظروف حياته الفردية والجماعية.

كان فيصل يكرّر القول غالباً (كيف يمكن أن تكون هناك شريعة أرفع من تلك التي أوحى بها الله إلى نبيّه؟ إنّ أوامره، التي تطبّق بأمانة والتي تؤخذ ككلّ، هي أكثر الأوامر ديمقراطية، ما دام أنّها تعلّمنا بأنّ الناس متساوون أمام خالقهم، وأنّ المصالح الشخصية يجب أن تمحى دائماً أمام الخير العام والمصلحة المشتركة. على أنّ كلمات الملكية، والديمقراطية، والجمهورية، والاشتراكية لا تعني شيئاً كبيراً بالنسبة إلي. إنّ ما يهمّ هو قدرة الحكومة على رفع مستوى العيش عند المحكومين بطريقة فاعلة، وعلى توفير المزيد من الرفاه والعدل الاجتماعي لهم).

أمّا الشعار الوطني، فهو يحمل، على بياضٍ فوق خلفيةٍ خضراء، الآية القرآنية التي تعلن وحدانية الله ومجده. من أجل ذلك – وخلافاً لما يجري في البلاد الأخرى – فإنّ العلم السعودي لا ينكّس أبداً في أيّ ظرف من الظروف.

الحكومة

لم يكن في وسع فيصل أن يرضى بواقع الأشياء لتأمين سلامة الحركة في شؤون المملكة. كان يجب عليه، في الوقت نفسه، أن يصنع الأداة الضرورية لممارسة السلطة، وأن يجمع من حوله طرازاً جديداً من الرجال (لا ريب أنّ عهده كان سيمثّل في تاريخ الجزيرة العربية النقلة من عصر السادة الإقطاعيين إلى عصر (الأمراء – المديرين) الذين تمّ إعدادهم على الطراز الأميركي).

ونتيجة لذلك أدخل تعديلاً على بنية الإدارة، وحدّد واجبات كلّ وزارة وصفتها، وجعل المشرفين عليها مسؤولين أمامه. كما اعتبر نفسه مسؤولاً أمام شعبه. وأخيراً أحلّ عدداً من الدوائر التقنية محلّ تلك التي كانت موجودة من قبل، والتي لم تكن تؤلّف حتى ذلك الوقت غير مجلس غامض للتاج كان الملك حراً في أن يستشيره أو يستغني عن مشورته. وبفضل هذه الأداة الجديدة التي تتمتّع في الوقت نفسه بالمرونة والفاعلية، استطاع أن يركز جهوده الإنمائية في الميادين التالية: الدفاع، الزراعة، المواصلات، التربية الوطنية والصحة العامة.

الدفاع

الحقيقة أنّ منظمة الأخوان قد أدّت خدمة العلم. إنّ هذه (الإخوانية العسكرية) التي خلقها ابن سعود، قد خصّصت نفسها، جسداً وروحاً، لتوحيد المملكة. وكانت متميّزة حيث ظهرت في ميادين القتال. لكنّ كثيراً من أعضائها كانوا قد ماتوا بمرور السنين. والأحياء منهم قد تقدّمت بهم السن. إنّهم لم يعودوا غير محاربين قدماء، أصلح ما يكونون للأعمال الزراعية منهم لمحن الحرب وبلائها. الواقع أنّ هذه المنظمة لم تعد تصلح للوضع الجديد في البلاد. وقد أبدلها فيصل بمنظّمتين منفصلتين إحداهما عن الأخرى: حرس وطني وجيش نظامي.

أمّا الحرس الوطني المزوّد بما يتراوح تعداده بين ثلاثين وأربعين ألف رجل، فإنّ مهمته هي الحفاظ على الأمن في العاصمة والتجمّعات المدينية. كذلك تأمين هذا النظام على امتداد الطرقات العامة والدروب الصحراوية. إنّ ما يميّزه هو سرعة تحرّكه، لذا زوّد بأسلحة خفيفة وأعتدة هامة للاتصالات اللاسلكية.

أمّا الجيش النظامي الذي يمكن أن تقدّر إطاراته بخمسين ألفاً من الرجال الذين تمّ تدريبهم وتنظيمهم بطريقة معجبة، فمهمّته هي تأمين الدفاع عن البلاد. إنّه جيش عصري بكلّ معنى الكلمة، لا سيّما وأنّه مزوّد بدبابات أ.م.اكس.2، وطائرات أسرع من الصوت، ميراج 3، ونورثروب ف–5ب، ف–5أ، وأنّه يستند إلى سلسلة قوية من الرادار تمّ شراؤها بمبلغ 260مليون دولار من شركتي ماركوني ولوكهيد.

الزراعة

يلاحظ أنّ فيصلاً قد وجّه عناية خاصة إلى تنمية الزراعة، كما تشهد على ذلك ميزانية هذه الوزارة التي ارتفعت من 21.3 مليون ريال عام 1960 إلى 382.3 مليون ريال عام 1970، ممّا يمثل نمواً بالغاً بنسبة 1900 في المائة خلال عشرة أعوام تقريباً، ثم ارتفعت هذه النسبة أكثر فأكثر خلال السنوات الأربع التالية. والواقع أنّ الإنماء الزراعي في الجزيرة العربية يستحقّ فصلاً بكامله. وهو فصل مثير جداً. لكنّنا هنا لا نستطيع أن نحتفظ منه إلا بالسطور الأساسية.

والجدير بالذكر أنّ ابن سعود كان قد عقد أهميةً خاصة لمشكلة الماء، إذ أنّه كان يعلم أنّه لا سبيل، دون ماء، إلى تخصيب الصحراء وتأمين المؤن لشعب لا يكفّ عن النموّ والتكاثر (كان عدد الناس عام 1910 مليوناً ونصف مليون. ثم ارتفع الرقم إلى ثلاثة ملايين عام 1940. وها هو اليوم يرتفع إلى ثمانية ملايين).

وأيضاً فقد أحسّ بخيبة شديدة حين راح المنقّبون الأمريكيون يعملون بحثاً عن الماء فإذا بهم يكتشفون النفط. كان الملك يقول متذمّراً ساخطاً في فترات الغضب (في هذه البلاد يكفي أن تغرس عصاك في التراب لتجد فيه نفطاً). ومع ذلك فإنّ خيبة أمله لم تدم طويلاً، فإنّ منقبين آخرين انتهوا إلى استخراج الماء بكميات هائلة في منطقة الرياض. هذه الموارد سمحت بتزويد العاصمة الجديدة بحاجتها من هذه الماء. لكنّ ما اكتشف منه هو كمّيات محدودة قد لا تزيد فيما بعد.

وفي عام 1956 أي بعد وفاته بثلاثة أعوام، استطاعت مجموعة من الباحثين المائيين الفرنسيين أن تكشف عن وجود بحيرة هائلة من المياه العذبة في باطن الأرض، طولها 900 كيلومتر وعرضها 500 كيلوا متر، موجودة على عمق 1400م تحت المساحات الرملية من الجزيرة العربية الوسطى. ولم يكد فيصل يعلم بهذا النبأ حتى بادر إلى الاهتمام به. إنّ إحدى الصور تظهره لنا، جالساً على مقعد قابل للانطواء وموضوع فوق حصيرة بسيطة في وسط الصحراء، يراقب انبثاق أول نقبٍ مائي (ربيع 1957) وهو بصحبة السيدين ساشا نيون وبوريمون.

منذ ذلك اليوم تضاعفت عمليات التنقيب، ثمّ أخذت الأراضي المرويّة تتّسع، ووضع الملك موضع التنفيذ خطة واسعة (لتخصيب الصحراء)، يقصد بها تمكين الجزيرة العربية من تأمين حاجتها من المواد الغذائية — حتى حين يتمّ استنزاف الحقول النفطية. هكذا بدأت الصحراء تغطّى بالجُزَيرات الخضراء، حيث القمح، والشعير، والبرسيم تنبت بغزارة عظيمة. كما أُنشئت مزارع مكثفة تخترقها من جانب إلى جانب قنوات الريّ التي تبلغ من الاتساع حدّاً يظنّ من يشاهدها من الجوّ أنّها طرق دولية واسعة. وبالرغم من أنّ النجاح الذي تحقّق هو نجاح مثير مدهش (حوالي 3 ملايين ونصف هكتار حرثت واستصلحت وأصبحت معدّة للتوزيع على فقراء فلاحين خلال السنوات الأربع الماضية) فإنّ في وسعهم تحقيق المزيد منه بسرعة أكبر كثيراً لولا أنّ العنصر البشري ينقصهم للقيام بهذه المهمة.

إذ لا يكفي الحصول على الماء والبذور والسماد لنشر الخضرة في الصحراء: بل يجب أن تتوفّر اليد العاملة الكافية لذلك. من هنا ترتبط خطة التنمية الزراعية بتحقيق الخطة التربوية وتحضير جماعات البدو الرحّل.

طرق المواصلات

أمّا فما يتعلّق بالمرافئ، والاتصالات الجوية واللاسلكية والطرق، فإنّ ما أنجز منها في العربية السعودية يتجاوز كلّ ما تحقّق منها في المدة نفسها في كلّ البلاد الأخرى من الشرق الأدنى.

فالدولة العربية السعودية تملك عشرين مرفأ رئيسياً أو ثانوياً. أمّا مرفأ الدمّام فقد أعدّ، وهو يطلّ على الخليج العربي، لاستقبال 2.75 مليون من الأطنان. وأمّا مرفأ جدّة، وهو يطلّ على البحر الأحمر فقد أعدّ لاستيعاب ما حمولته 1.7 مليون طن.

فإذا انتقلنا إلى النقليات الجوية تبيّن لنا أنّها مؤمّنة في 23 مطار داخلي، منها اثنان دوليان (جدة والظهران). ويتألّف الأسطول الجوي من أحدث الطائرات في العالم: د.س.6، فيكرز فيسكاونت وبووينج 707 و727.

وكذلك الطرق فإنّها لا تكفّ عن الامتداد أيضاً. ففي عام 1976، ينتظر أن تنضمّ مسافة 8500 كيلومتر من الطرق الدولية المسفلتة سفلتة ممتازة إلى ما أنجز من الطرق العادية قبل ذلك وهويبلغ 6000 كيلومتر.

ومنذ أربعين عاماً لم يكن في البلاد عملياً أيّ اتصال تلفوني (لقد أرغم ابن سعود على خوض معركة حقيقية ضد فقهاء الشريعة لإقناعهم بأنّ التلفون ليس بدعاً من الشيطان). أمّا اليوم فإنّ العربية السعودية تتصرّف بـ 108000 خط تلفوني – وهذا يمثل عملاً عظيماً حين نتذكّر أنّ المسافات بين المدن تبلغ مئات الكيلومترات –كما توجد فيها شبكات تلكس مؤلفة من 850 خطاً ومحطتان لتأمين الاتصالات التلغرافية بواسطة الأقمار الصناعية. يكفي أن نعلم بأنّ الميزانية المخصّصة للعام المالي (1972 – 1973) للاتصالات اللاسلكية قد بلغت 480 مليون دولار.

التربية الوطنية

إنّ المعضلة الكبرى في العربية السعودية هي ندرة الإطارات والعمّال الماهرين. ولكي تداوي هذا الواقع، ركّزت الحكومة جهودها في ميدان التربية الوطنية. والجدير بالذكر أنّ الأرقام هنا تلفت النظر وتثير الاهتمام.

لقد زاد عدد المدارس الابتدائية والثانوية من 316 عام 1952 إلى 6595 عام 1973. أمّا عدد الطلاب فقد ارتفع في المدة نفسها من 39920 إلى 707318. كما ارتفع عدد المدرّسين فكان في البداية 1605 ثم أصبح في نهاية تلك المدّة 15232 [1]، ممّا يمثّل، خلال عشرين عاماً، نسبة تساوي 15000 في المائة. (صحيح أنّ البلاد قد انطلقت عملياً من لا شيء) أمّا مجانية التعليم فهي مؤمّنة للجميع.

الصحة العامة

هنا بذل الجهد نفسه – وتمّ الحصول على النتائج نفسها – في ميدان الصحة العامة. لقد ارتفع عدد المستشفيات والمستوصفات بين 1960 و1973، من 40 إلى 197، كما ارتفع عدد الأسرّة من 3668 إلى 10156، أمّا الأطبّاء فقد زاد عددهم زيادة ملحوظة. فبدأ ب 280في عام 1960 وأصبح 1260 عام 1973. (يلاحظ أنّه لم يكن في كلّ الجزيرة العربية عام 1950 غير عشرين طبيباً). فإذا انتقلنا إلى ميدان التمريض تبيّن لنا أنّ عدد الممرّضين والممرّضات عام 1960 يبلغ 757 لكنّه قفز عام 1973 إلى الرقم 3800. لقد زادت ميزانية وزارة الصحة خلال عشر سنوات بنسبة 188 في المائة فكانت عام 1960: 58.3 مليون ريال ثم أصبحت 168.2 مليون ريال عام 1970. (نلاحظ أنّ كل هذه الأرقام سابقة على الارتفاع المفاجئ في أسعار النفط). وأخيراً يجب أن نسجّل شيئاً آخر هو أنّ المعالجة والأدوية تقدّم مجاناً للمرضى دون استثناء.

توسيع بيوت الله

حرص الملك فيما سوى التربية الوطنية والصحة العامة على تشجيع الحياة الدينية في البلاد. من هنا كان ترميم بيوت الله وتوسيعها. في المدينة جرى توسيع ساحة المسجد النبوي فأصبحت 16326م^2 بعد أن كانت6024 م^2. أما المبنى نفسه فقد أعيدت عمارته من جديد، وتوّج بمئذنتين ارتفاع كلّ منهما 70 متراً. أمّا البيت الحرام في مكة فقد تمّ تعديله بحيث يستطيع أن يستوعب مرة واحدة 300 ألف حاج.

1 . انظر في آخر الكتاب الجدولين: 1- تنويع التعليم التقني والعالي 1973 – 1974.

وبذلك زادت مساحته من 29127 م^{2}إلى 160168م2، وهذا يعني أنّه قد رفع من الأنقاض ما يبلغ 1.227.000م3. هكذا يزدان البيت الحرام اليوم بثلاث مآذن ارتفاع كلّ منها 90 م. ويمكن الوصول إليه عبر طريق عرضه ثلاثون متراً يحيط به من الجانبين مصابيح ارتفاع كلّ منها عشرون متراً.

فيما مضى، قبل اكتشاف النفط، كان المورد الأساسي – إذا لم نقل المورد الوحيد – في الحجاز هو مجموع الرسوم التي تستوفى من الحجّاج القادمين إلى مكة. أمّا اليوم فقد ألغيت هذه الرسوم. لقد قدّر الملك أنّه لا يليق بالحكومة أن تحقّق أي ربح مادي من طقوس العبادة عند المؤمنين. إنّه لا يريد أن يفوز إلا بمزيد من السلطة الروحية فقط.

ألا يسمح لنا، بعد تقييمنا لهذه النتائج، أن نفكر بأنّ حياة الملك فيصل كانت أبعث على الإعجاب من حياة والده؟ صحيح أنّها لا تمثّل نفس الطابع الملحمي. فهو لم يحقّق في ميدان القتال ما حقّقه أبوه من الانتصارات. لكنّ المعارك التي ربحها لا تقلّ عنها مكانة وأهمية، إذ أنّها معارك ضد الأمّية والبؤس، والمرض والموت.

حافز النفط

لم يكن من الممكن أبداً تحقيق هذه (القفزة إلى الأمام) دون الزيادة المستمرة في موارد النفط. فإذا فكّرنا أنّ ابن سعود كان عام 1936 يشكّ في مستقبل الذهب الأسود ولا يخطر في باله أنّه سيحصل يوماً على ما يزيد عن 450.000 دولار، وهو المبلغ الذي دفعته الشركة الأميركية صاحبة الامتياز قبل الابتداء بالتنقيب، إذا بنا اليوم نتبيّن، بفضل الحقول الجديدة التي اكتشفت، أنّ الجزيرة العربية تحوي على الأقل ثلث احتياطي العالم من هذا الوقود (142 مليار برميل) [1] وتصبح أكبر منتجة للنفط في الشرق الأوسط وأعظم مصدّرة له في العالم كلّه.

1. البرميل يساوي 159 لتر.

ولنضف إلى ما سبق أنّ ثمن النفط قد تضاعف أربع مرات على أثر القرارات المتّخذة في أكتوبر (تشرين الأول) عام 1973 من قبل منظمة البلدان المنتجة للنفط (أوبيك). فإذا حوّلنا هذه الزيادة إلى أرقام، فهذا يعني، استناداً إلى أسعار السوق العالمية ومعدّلات الإنتاج الحالي، أنّ الموارد النفطية في العربية السعودية ستبلغ عام 1976 ما قيمته 57.487.500.000 دولار.

من الصعوبة بمكان أن نتخيّل القوة المالية والاقتصادية التي تمثّلها هذه الأرقام. (لقد حسب بعضهم أنّ ثروة الملك تزيد في الثانية 115.000 دولار). ولكي نتيح للقارئ أن يكوّن فكرة تقريبية حول هذه الظاهرة، يكفي أن نذكر بأنّ المدفوعات السنوية تمثّل أكبر من مجموع احتياطي الذهب في الولايات المتحدة، وأكثر من نصف مجموع احتياطيات الذهب في الدول الغربية الكبرى. إنّ هذه الاحتياطات ترتفع في الحقيقة إلى 52425 مليون دولار في الولايات المتحدة، و22365 مليون في ألمانية الاتحادية، و19170 مليون في فرنسا، و4015 مليون في بريطانيا العظمى، فيكون المجموع 97975 مليون دولار [1].

وهناك سببان يكمنان في أساس الزيادة في المبالغ المدفوعة للعربية السعودية:
1) زيادة حجم النفط المستخرج: 5475 مليون برميل عام 1975، مقابل 1731 عام 1970.
2) الزيادة في سعر البرميل حول 10.70 دولارات عام 1974 مقابل 2.72 دولار عام 1973.

فإذا أضفنا إلى المبالغ المدفوعة للعربية السعودية وحدها، تلك المدفوعة لبلدان الأخرى المنتجة في الشرقين الأدنى والأوسط، نصل إلى مبلغ 85 مليار دولار يتمّ نقله من رأس المال الأجنبي عام 1974 مقابل (22.5 عام 1973)، وهو رقم يقدر الخبراء أنّه دون الحقيقة.

---

1 . هذه الأرقام تضع في الحساب عملية إعادة تقييم احتياطيات الذهب في المصارف المركزية المتفق عليها من قبل السيدين فورد وجيسكار دبستان في ديسمبر (كانون الأول) 1974، خلال مقابلتهما التي عقداها في المارتينيك. إنّ إعادة التقييم هذه تساوي ضعف قيمة الإحتياطات بنسبة 4.3.

الإدارات الجديدة الحاكمة

ما كان في وسع الملك فيصل أبداً أن يتوصّل إلى هذه النتائج فيما لو كان وحده في الميدان. لقد أحاط نفسه – وهذا دون ريب واحدة من أهمّ ميزاته – بجماعات من الأعوان الشبّان الذين استبسلوا في الحصول بنجاح سريع على الكفاءات التي تقضيها الإدارة الجديدة للمملكة.

فإذا كانت السنوات العشر من عهده (1964 – 1974) قد تميّزت بتصحيح الوضع المالي والانطلاقة المثيرة في تجهيز البلاد، فقد تميزت أيضاً بظهور مجتمع جديد وخلق إدارة لم تكن موجودة من قبل. فالحق أنّ العربية السعودية قد انتقلت، تحت قيادة الملك، من مجتمع القبائل المتباينة، إلى مجتمع الدولة المركزية. فلم تتغيّر وجوه المدن فقط بل خضع المجتمع نفسه لتحوّل عميق.

هذا التجديد تميّز بدخول أفراد للإدارة لا يدينون في تقدّمهم إلا لثقافتهم، وتأهيلهم المهني، وتكيّفهم للمعضلات الاقتصادية القائمة.

إنّ ملحمة المغفور له الملك ابن سعود وضعت في الصف الأول قادة الإخوان، كالأمير ابن جلوى، حاكم الأحساء القديم، أو خالد بن لؤي، الذي رافق الأمير الشاب فيصلاً في بعثته العسكرية إلى عسير وسحق الجيوش الهاشمية في كرمة وتربة. ولكنّ هؤلاء الرجال الأتقياء كانوا أقلّ انتساباً إلى القرن العشرين منهم إلى الجزيرة الأسطورية. ثمّ خلفهم طراز آخر من الرجال. إنّهم، في كثرتهم الغالبة، شبّان جيّدون وعاملون، ورجال أعمال تابعوا دراستهم في المدارس الانكليزية والأميركية الكبيرة وأصبحوا على علم واسع بالمعضلات الاقتصادية في زمنهم.

يقول لنا وليام راف الذي كان ملحقاً صحفياً في سفارة الولايات المتحدة إلى جدّة: (أنّ المثل النموذجي للجيل السعودي الجديد يطمح إلى الارتفاع في السلم الاجتماعي وتحسين مستوى عيشه. فهو يتميّز في هذا من سعودي الطبقات الدنيا، في قدريّته وسلبيّته. إنّ طموحه المتزايد مرتبط باقتصاد مزدهر يعترف بفائدة التربية التقنية وكفاءاته المهنية بفتح منطلقات له لم تكن موجودة من قبل. لكنّه، كأكثر مواطنيه، يعير لاعتبار الوظيفة وشرفها أهمية أكبر من الامتيازات المالية التي توفّرها له.

وبالقدر الذي نما فيه هذا الجيل السعودي الجديد، تمّ نشوء طبقتين على مستويين مختلفين: فالمستوى الأرفع يستوعب السعوديين الذين تابعوا دراساتهم العليا من مثل الأساتذة والأطباء والمهندسين وبعض رجال الأعمال، ثمّ أولئك الذين يطلق عليهم اسم "رجال السياسة" أي رجالاً من الطبقة الدنيا توصّلوا، بفضل ثقافتهم، إلى أعلى المراكز في الإدارة العامة، وبصورة خاصة بسبب كفاءتهم الشخصية. هذه الطبقة من المواطنين تشتمل على الموظفين والمدرّسين والعمّال المتخصّصين في الصناعة [1]، بقي النظام السياسي في العربية السعودية استبدادياً بمعنى أنّ السلطة كلّها موضوعة بين يدي الملك. فلا توجد فيها معارضة مفتوحة للسياسة التي تتّخذها الحكومة. والنشاط السياسي فيها مركزي جداً. ومع ذلك فإنّ أي سعودي يستطيع أن يرفع إلى الملك عريضته.

وعندما يريد هذا الأخير أن يتّخذ قراراً من القرارات، يلجأ إلى استشارة مجموعة من الرجال النافذين في العادة: بعض أعضاء من الأسرة الملكية أو العلماء (لنذكر أنّ هاتين المجموعتين هما اللتان منحتا سلطانه شرعيته، بحمله إلى العرش). في كلّ يوم خميس يدعو هاتين المجموعتين للمشاورة، وفي كلّ يوم يحضر المجلس، أو مجلس العرش، حيث يقابل كلّ الناس، حتى أبسط رعاياه. لكنّ إدارة جديدة تشكّلت، على هامش هذا النظام التقليدي، وأصبحت، بالنسبة للطبقة الجديدة، وسيلة لأنّ يكون لها صوت لإبداء الرأي والمشاركة في المشورة.

صحيح أنّها لا تستطيع التدخّل عندما يتّصل الموضوع باتخاذ قرارات هامة، وبخاصة على المستوى الدستوري، لكن لهذه "الطبقة الجديدة" كلمتها التي تقولها حينما تتعلّق القرارات بالاقتصاد، أو بعض الميادين الأخرى من مثل إدارة النفط والزراعة والمناجم، تلك التي أصبح لها في الأيام الأخيرة شأن كبير.

إنّها لم تنجح فقط في التغلغل في مجلس الوزراء، بل تتدخّل أيضاً، وبصورة يومية في سير الأعمال على المستويات الإدارية المتوسطة، كما أنّها تمارس نفوذها الكبير في حياة البلاد من خلال الأساتذة ومختلف

---

1 . وليام راف : "ظهور طبقة وسطى في العربية السعودية" جريدة الشرق الأوسط، واشنطن شتاء 1973، المجلد 711 رقم 1 ص 7 – 20

الاختصاصيين [1]. هكذا حلّ جيل من رجال الأعمال والتقنيين دون ضجة أو تشامخ محلّ القادة السابقين، المؤلّفين في كثرتهم من القادة العسكريين وزعماء القبائل.

بعض الوجوه البارزة

لم يكن أمام الملك، لإيجاد المساعدين الذين يحتاج إليهم، غير اللجوء إلى المجموعتين النافذتين اللتين حملتاه إلى السلطة: فمن جانب، يوجد العلماء أو فقهاء الشريعة، بعضهم ينتسب إلى عائلة الشيخ التي كانت تنتسب إليها والدته وأجداده من أمه، ومن جانب آخر أمراء الأسرة الملكية، الذين يعدّون أكثر من ألفي عضو، فيما إذا دخلنا فيها القرابات الفرعية.

فإلى جماعة العلماء ينتسب، فيمن ينتسب، الشيخ محمد الأركان، وزير العدل، الشيخ راشد الكنين وكيل الوزارة نفسها، الشيخ محمد بن جبير، رئيس مجلس القضاء الشرعي الأعلى، الشيخ عبدالله المسند المدير العام للكلّيات الدينية في جامعة الرياض. هؤلاء الرجال الأربعة الذين يمثّلون أعلى السلطات الروحية في العربية السعودية، جاءوا حديثاً إلى أوروبا، يرافقهم عميد جامعة جدة، والشيخ المبارك، واحد من أبرز العلماء الدينيّين في جامعة مكة، واستقبلهم في الفاتيكان قداسة البابا بولس السادس [2] في هذه الزيارة، التي تمّت بتحريض من الملك، شوهد لأول مرة في تاريخ المسيحية، أحدُ البابوات يدخل في محادثات ودّية مع بعض أبرز ممثلي الدين الإسلامي.

أما في عِداد "التقنيّين" الذين تابعوا دراساتهم العليا في جامعات أجنبية، وبخاصة في انكلترا والولايات المتحدة، فيجب أن نذكر الدكتور عمر السقاف، المجاز من جامعة القاهرة ووزير الشؤون الخارجية، الدكتور راشد فرعون، السيد فاضل قباني، نائب وزير الموارد المعدنية، السيد ابراهيم عبد الله الزايد، المدير العام لصناديق الضمانات الاجتماعية، الدكتور رفعت السيد علي، المكلّف بالصحة العامة وخاصة بمستشفى الرياض، الشيخ أحمد زكي يماني، تلميذ قديم لهنري كيسنجر في جامعة هارفارد، وهو اليوم وزير النفط، الذي تنشر تصريحاته غالباً في الصحافة الدولية.

1 . المصدر السابق نفسه.
2 . 25 أكتوبر (تشرين أول) 1974.

وأيضاً فإنّ أعضاء الأسرة الملكية الذين اجتمعوا حول الملك لمساعدته على أداء مهمّته هم كثيرون (ذلك لأنّ الملك يهتمّ شخصياً بكلّ شيء، وقد وافق حديثاً فقط على تخفيض ساعات عمله من 16 إلى 14 في كلّ يوم). نذكر من بينهم: أخوه غير الشقيق الأمير خالد، ولي العهد، في العقد السادس من عمره، رقيق ومجامل، لكنّه يبدو أميل إلى الصيد منه إلى السياسة، وتشكّل صحّته مصدر قلق كبير عند من يحيط به من المقرّبين إليه (لقد أجريت له مرتين عملية "القلب المفتوح")، ثمّ الأمير سلطان بن عبد العزيز، وزير الدفاع والطيران، والأمير فهد، الذي هو اليوم، بعد الملك، الشخصية المركزية للسياسة السعودية، والذي يحمل ألقاب نائب رئيس الوزراء، وزير الداخلية، ورئيس المجالس العليا للنفط والاستثمارات المالية والتربية، ثمّ الأمير سلمان حاكم الرياض، فالأمير فوّاز، حاكم مكة، فسعادة كمال أدهم، شقيق زوجة الملك، وهو، وإن لم تكن له صفة محدّدة تماماً، يعتبر واحداً من أكثر المستشارين تأثيراً.

كما أنّ الملك يستطيع أيضاً — وهذا هو ما يفخر به دون ريب – أن يعتمد على أبنائه السبعة الذين تابعوا جميعاً دراساتهم في أشهر الكليات والجامعات الغربية، ولا سيما في لورانسفيل، برنستون، أوكسفورد، ساندهرست [1]، كمبردج، كرانول [2]، واشنطن جورج تاون [3]. كلّ منهم يشرف على مركز هامّ في إدارة البلاد، ولا سيما الأمير سعود ابن فيصل، الذي سمّي قبل قليل وزير الشؤون الخارجية.

هؤلاء الشبّان الذين وهبوا عقلية واقعيّة هم أكثر الممثّلين النموذجيّين للجيل الجديد الذي يقوم بدور"البديل" في حكم البلاد. إنّهم يواجهون المستقبل برؤية واسعة و"هواية العمل" في ضوء ما يملكون من الوسائل المالية.

---

1 . الأكاديمية العسكرية في بريطانيا العظمى.
2 . كلية انكليزية عليا تابعة للقوات الجوية الملكية.
3 . انظر الجدول: تنمية التعليم الابتدائي والثانوي.

لقد شاءت الظروف أن يستقبل كاتب هذه السطور، حديثاً، في منزله واحداً من هؤلاء الأمراء الشباب. إنّه لم يسعه إلا أن يقول باسماً، وقد أدهشته سعة معارفه ودقّة أحكامه:

- "إنّ ثوبكم أشبه بالكمين! فعندما أراكم في عباءتكم الكبيرة وأثوابكم الفضفاضه يخيل إليّ أنّني أواجه ملوكاً سحرة. لكنّي حين أبادلكم الحديث والمناقشة، ألاحظ أنّكم أصبحتم في بضع سنين مدراء أميركيين".

وصمت الأمير برهة، ثم رفع رأسه قليلاً وفي عينيه بريق الاعتزاز والفخر، وأجاب دون تردّد:

- " أرجو أن نكون قريباً أكثر من ذلك!"
- فماذا يا صاحب السموّ؟
- "مديرين عرباً".

إنه جميل حقاً، بالنسبة للشباب، الشعور بأنّ أعظم الأطماح هو في متناول اليد.

ملك تقدّمي وشعب رجعي

ملك تقدّمي، شعب محافظ، طبعاً، هناك بعض الظلال في اللوحة. فالملك يردّد القول غالباً: "إنّ إدخال أيّ تعديل على مصنع أو طريقة تقنية لا يحتاج غير بضعة أسابيع، بينما تحويل الرجال يحتاج إلى أجيال كثيرة"، فالتقاليد والعادات والأفكار المسبقة صلبة جداً! إنّها تشكّل درعاً عقلية يصعب تحطيمها!

لقد طالما اتُّهِم الملك بالرجعية. وهذا خطأ تماماً. العكس هو الصحيح. إنّه متقدّم كثيراً على شعبه، الذي يكره في الغالب أن يترك عاداته القديمة. إنّ فيصلاً لا يكفّ عن دفعه إلى الأمام، لكنّ الشعب هو الذي ينفر من ذلك. وقد يبلغ درجة التذمّر والزمجرة. لكنّ هذا ليس لأنّ الملك لا يتقدّم، بل لأنّه يتقدّم كثيراً، وبصورة خاصة بسرعة شديدة. قال أيضاً: إنّه من الصعب جداً دفع الشعب في طريق التقدّم دون تمزيق الغشاء الدقيق لبنيته الصحيحة. إنّها مهمّة صعبة أن نجدّد في كلّ مكان تقضي به الضرورة، مع الحفاظ على فلسفة سياسية ثابتة: تلك التي تنبع من تعاليم القرآن. وهنا لعلّك تقول لي: "هل أنّ القرآن قد مضى عهده؟ إنّها فكرة دنسة! فالقرآن لا ينتمي إلى الأمس ولا إلى اليوم: إنّه أبداً خالد. والحقائق التي يحتويها هي دائماً حيّة معاصرة حتى ولو لم يتحدّث عن السيارات أو الطائرات".

من أجل ذلك يجب على الحاكم دائماً أن يضع في اعتباره رأي العلماء والأمراء والجيش الذي يمثّل قواعد سلطانه. أوَليس أنّه يستمدّ منهم "شرعيّته"؟

صحيح أنّ بعض المجموعات تتمرّد في بعض الأوقات. ففي عام 169 أعدّت مؤامرة من قِبَل بعض الناصريين فأخمدت في مهدها وحكم على أصحابها بالعقوبة العظمى، دون أن تنفّذ فيهم.

إنّ الملك لا يمزح أبداً حين تتعرّض سلطته للخطر. إنّه يعلم أنّ الشيء الوحيد الذي لا يغفره الشعب له هو افتقاد الحزم، أوَليس أنّه في الوقت نفسه "السيف" و"الحكم" أي الحاكم العادل؟ لكنّه حين يستطيع، تدفعه طبيعته العميقة إلى إيثار الحِلم والوداعة والإقناع.

أوَليس أنّ أباه قد ضرب له المثل على ذلك مرّات كثيرة؟ فعندما أراد أن يدخل التليفون إلى الجزيرة العربية اصطدم بمعارضة فقهاء الشريعة. وراح هؤلاء يردّدون في كل مكان:

- "هذا صنع شيطاني، إنّه بدعٌ من الشيطان!".

وهنا وضع ابن سعود عالِماً عند كلّ طرف من طرفي الخط التليفوني وأمر أحدهما بتلاوة القرآن ثمّ سأل الآخر ما إذا كان قد سمع النصّ المقدّس.

- فأجابه العالم المسؤول قائلاً: "لقد سمعته جيداً".
- قال الملك: "ودون أن يحدث أيّ تحريف في أيّ مقطع من مقاطعه؟"
- "نعم دون أن يحدث أيّ تحريف في أيّ مقطع من مقاطعه"
- " إذاً فأنتم ترون أنّ هذا الجهاز ليس بدعاً من الشيطان. ولو كان كذلك لما نقل كلام الله بمثل هذه الأمانة!".

وفجأة لم يعد العلماء يجدون ما يقولونه.

في يوم من الأيام اجتمع فريق من الفلاحين أمام القصر الملكي واحتجّ بعنف على فتح مدرسة للبنات وهدّد بإحراقها فيما إذا أصرّ وزير التربية على فتحها. فواجههم الملك وانتهى إلى إقناعهم "بأنّ مربّية جيدة خيرٌ من حمارة معاقة". فهدأ الفلاحون وعادوا إلى منازلهم.

وفي يوم آخر هاجمت جماعة من الطلاب المحافظين بناية الإذاعة احتجاجاً على بث برامج التليفزيون. في هذه المرة لجأ الملك إلى القوة. فأمر رجال الشرطة بإخلاء المبنى منهم. وقد قُتِل شابٌ خلال هذا الصدام. إنّه ولد للأمير مساعد، أحد أخوة الملك. وهو حادث يزداد استعصاء على الفهم عندما نعلم

أنّ هذا الفتى قد تابع جزءاً من دراساته في الولايات المتحدة. على أنّ التظاهرات من هذا النوع قليلة جداً. وهي في كلّ مرّة صادرة عن عناصر معادية لتحديث البلاد.

ولا شك أنّها تفرض على الملك بعض الحكمة والتعقّل.

لكنّها من الندرة بحيث لا تعرقل مسيرة البلاد إلى الأمام. إنّ هذه المسيرة تتتابع بسرعة مطّردة.

مكانة الملك فيصل في العالم

هذه الأرقام التي تزيد، ولوائح الإنتاج التي تتسلّق والنسب المئوية التي ترتفع، وتلك المنحنيات التي تتّجه صعداً كما لو أنّها مدفوعة بقوّة تصعيدية لا تقاوم، تساعدنا على إدراك هذا النفوذ الاستثنائي الذي يحظى به الملك بين بلدان الشرق الأدنى. ولكنّها لا تسمح لنا أيضاً بتكوين فكرة صحيحة عن المكانة التي يشغلها اليوم في العالم، بصفته المزدوجة، أي باعتباره صاحب أعظم قوة اقتصادية، وزعيماً دينياً للمسلمين.

فباعتباره عضواً نافذاً في منظمة البلدان المنتجة للنفط — والتي تشترك فيها: الجزائر، الايكواتور، الغابون، أندونيسيا، إيران، العراق، الكويت، ليبيا، نيجيريا، قطر، اتحاد الإمارات العربية، وفنزويلا – وباعتباره عضواً في المنظّمة الملحقة للبلدان المنتجة للغاز– يلعب فيصل دوراً حاسماً في تثبيت أسعار البيع وتعيين نسب الإنتاج لهذين الموردين من موارد الطاقة، اللذين لا تستطيع الدول الصناعية حتى إشعار آخر، أن تستغني عنهما. (وسيكون ذلك في وسعها دون ريب حين تستطيع الاعتماد على الطاقة النووية — وخير من ذلك أيضاً، على الهيدروجين — لكنّ الواجب يدعونا ألّا نذهب كثيراً مع الأوهام: إنّ هذا التحوّل يحتاج على الأقل إلى عشر سنوات ويشتمل على صعوبات نخطىء في التقليل من أقدارها، ولا سيما فيما يتعلّق بصعوبات النقل، ونسبة التلوّث وأسعار التكلفة).

فإذا قرّر ملك الجزيرة العربية "أن يغلق صنبور النفط" أو يقف إلى جانب رفع الأسعار، فإنّ البلدان المنتجة الأخرى لن تستطيع أن تفعل شيئاً غير الوقوف إلى جانبه لكي لا تتيح له على الأقل أن ينطلق فارساً وحده في الميدان، ممّا يغرق أوروبا في أزمة لا سابقة لها من قبل. ذلك أنّه ليس هناك غازويل وبنزين وكيروسين فقط، بل توجد أيضاً منتجات النفط الفرعية والتي يمكن أن تكون أرفع من الوقود نفسه، وهي

المنتجات التي تمتدّ لائحتها وتطول يوماً بعد يوم. على أنّه لا شيء يدلّ – في الحقيقة – أنّ في نيّته فعل شيء من ذلك – لكنّ الوقائع كلّها تبرهن على أنّه لو أراد ذلك، لما اخطأته الوسائل.

والسعة في هذه الأزمة تزداد أكثر فأكثر بواقع أنّ فيصلاً وقادة المنظمة الآخرين لن يلبثوا بعد قليل حتى يستحوذوا على كميات من العملات الأجنبية تكون من الضخامة بحيث أنّهم إذا قرّروا طرحها في السوق المالية أحدثت انهياراً عاماً في كلّ النقود والعملات الأجنبية.

لقد أجرى بعض الخبراء الكويتيين حساباتهم فوجدوا أنّ البلدان المنتجة للنفط ستكون قادرة خلال عشر سنوات على جمع كمية من العملات الأجنبية والذهب مساوية في قيمتها الحالية لـ 800 مليار دولار. ويرتفع آخرون بهذا الرقم إلى 1200 مليار، فيما إذا اتخذت منظمة البلدان المنتجة للنفط –كما هو حديث اليوم – مبدأ المطابقة بين سعر النفط وسعر المنتجات الرئيسية للبلدان الصناعية.

إنّ مؤلف هذه السطور يؤثر أن يترك لآخرين غيره مهمّة حساب ما يمكن أن يشترى بهذه المبالغ الفلكية والتي تبدو كأنّها متّصلة بعالم الخيال في السياسة.

لكنّه لا يستطيع مع ذلك، الامتناع عن الإلماح، في مقابل هذا الوضع، إلى ضخامة الاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية التي تترتّب عليه وتنتج عنه. أوَليس أنّ من طبيعة هذا الوضع الجديد إحداث تعديلات أساسية ينقلب بها وجه العالم رأساً على عقب قبل أن ينقضي الربع الأخير من هذا القرن؟ أيّ زعيم دولة أخرى يستطيع التفاخر بملكية مثل هذا السلطان العظيم؟

الحقيقة أنّ فيصلاً يجب أن يجد صعوبة في ردّ ابتسامة على شفتيه حين يعيد التفكير في مناجم الفحم من كارديف، والتي رغبت الحكومة البريطانية أن تفتنه بها وتثير دهشته وهو في الثالثة عشرة من عمره...

أمّا باعتباره زعيماً دينياً، فإنّ سلطانه على العقول والقلوب هو أيضاً قوي جداً. فبواقع أنّه حارس المدينتين المقدّستين، فإنّ سلطانه الأدبي لا يقف عند الملايين الثمانية من العرب الذين يعيشون داخل حدود بلاده: هذا السلطان يمتدّ فوق أكثر من 400 مليون مسلم موزّعين بين موريتانيا والفيليبين، حول ثلاثة محيطات في العالم كلّه. وفيصل لا يستقبل ويستضيف عدداً كبيراً من الناس في موسم الحج السنوي

وحسب (ممّا يسمح له بعقد صلات مباشرة معهم)، لكنّه اتخذ، منذ بضع سنوات، عادة تنظيم "مؤتمرات إسلامية على مستوى القمة" تتيح للملوك والرؤساء والزعماء في الدول الإسلامية أن يجتمعوا لتبادل وجهات النظر ودراسة الإجراءات التي يجب أن تتّخذ لتأمين "الدفاع عن مصالح الإسلام". هكذا انعقدت خلال السنوات الأربع الأخيرة مؤتمرات من هذا النوع في مكة (1968) والرباط (1969)، وباندونغ (1970) وجدّة (1971) وبيروت، وطرابلس وفي بنغازي (1973). وعقد آخر هذه المؤتمرات في لاهور(فبراير"شباط" 1974).

هذا وقد لعب فيصل في كلّ واحد منها دوراً من الدرجة الأولى. فهل من المبالغة القول بأنّه، وإن لم يحمل اللقب المطلوب، يتمتّع اليوم بسلطان روحي يقارن بسلطان الخليفة؟ أوَليس أنّ أصواتاً تتزايد عدداً في كلّ يوم وترتفع في العالم الاسلامي مطالبة بإيلائه هذا الشرف العظيم؟

فإذا وضعنا كلّ هذه الوقائع موضع الاعتبار وقرّبنا بعضها من بعض، فإنّه لا يسعنا الامتناع عن التفكير بأنّ فيصلاً هو الحاكم الأمثل في عصرنا كلّه، وأنّه لا مبرّر أبداً لتنكيس العلم السعودي في أية مناسبة، حتى ولو لم يحمل على مستطيله الأخضر العبارة التي تعلن وحدانية الله وتمجّد اسمه!

رحلة الملك فيصل إلى باريس 1973

لا ريب أنّ الرأي العام الغربي لم يستوعب بعد هذا الواقع. لكنّ المستشاريات تعرف هذا معرفة تامة، من أجل ذلك تحيط فيصلاً بالكثير من الرعاية والاهتمام. وكان الأمر من الوضوح بخاصة خلال الرحلة التي قام بها إلى فرنسا، خلال شهر أكتوبر (تشرين الأول) من عام 1973، بدعوة من الرئيس بومبيدو.

وعندما جاء إلى باريس عام 1957، لم يكن أحد في مطار أورلي لاستقباله، إن من دوائر الكي دورسي، أو البروتوكول، حتى ولا عجلة بخارية من دائرة الشرطة، مع العلم أنّ وِلد ابن سعود كان قد مضى

عليه خمس وعشرون سنة وزيراً للشؤون الخارجية من بلاده. (تجب الإشارة هنا إلى أنّ العلاقات الدبلوماسية بين باريس والرياض كانت مقطوعة في تلك الفترة).

وعندما عاد فيصل إلى فرنسا في عام 1973 كانت قد انقضت ست عشرة سنة على الزيارة السابقة، ست عشرة سنة أصبح خلالها للعالم العربي وزن لم يكن له من قبل. من أجل ذلك كان رئيس الجمهورية وكلّ أفراد الحكومة الفرنسية موجودين في المطار لاستقباله عند نزوله من الطائرة. ثمّ رافقه موكب مؤلّف من 24 عجلة بخارية إلى فرساي، حيث شغل، باعتباره ضيفاً على فرنسا، قصر التريانون الكبير الذي تمّ تجديده بكامله.

وتتابعت حفلات الاستقبال في كلّ من قصر الإليزيه وقصر الكي دورسي، وكانت قمّة هذه الحفلات في الغداء الباذخ المترف في بهو المرايا. قال لنا شاهد عيان: "عندما رؤي الملك يدخل إلى البهو المتألّق والمتلألىء بقطع البلور، وقد تلفّع بعباءته البيضاء، وأحاط رأسه بالخيوط الذهبية، بدا وكأنّه أمير من ألف ليلة وليلة جاء يزور لويس الرابع عشر". وهذا صحيح دون ريب فيما إذا ألمحنا إلى جلال شخصيّته. ولعلّ من الأفضل أن نتخلّص مرة واحدة من تلك المقارنات السهلة اليسيرة بألف ليلة وليلة، ذلك لأنّ الجزيرة العربية اليوم ليس بينها وبين بغداد هارون الرشيد أي شبه قائم.

الباب الرابع

السياسة العربية الجديدة

(1973 – 1974)

الصلاة في بيت المقدس

الثابت أنّ فيصلاً لم يكن في وسعه أن يتخيّل بأنّ الحياة قد أعدّت له مثل هذا المصير، في اليوم الذي ولد فيه في قصر الرياض القديم، هذه المتاهة من الممرّات القاتمة، والمبنيّة من الطين واللّبن. أيّ صعود مدهش! أفلا نقول بعد هذا كلّه أنّ القدر قد عمل على تحقيق كلّ أمنياته؟

كلا، ليس كلّ الأمنيات. لقد بقيت منها واحدة لم تنجز بعد وهي عزيزة جداً على قلبه.

لقد أعار الملك، أكثر فأكثر، مزيداً من الاهتمام بواجباته الدينية، على مرّ السنين، لا سيما وأنّ تقواه قد بلغت درجة عظيمة في نفسه. هناك وظيفة للملك تتفوّق على كلّ وظائفه المتعدّدة. إنّها "حراسة المدينتين المقدّستين" وهي مهمّة لا يقوم بها باسمه الخاص بل باعتباره "منتدباً من قِبَل كلّ المؤمنين". وكان أبوه ابن سعود قد أعلن هذه الحقيقة حين دخوله إلى مكة عام 1924 وأيضاً فهي تتّخذ في نظره صفة مزدوجة القداسة.

وعلى ذلك فإنّ المدن المقدّسة التي يعتبر فيصل أنّ الله قد وكل إليه أمر حراستها هي ثلاث: مكة، والمدينة وبيت المقدس.

أمّا مكة فقد تلقّى فيها النبي محمد "عليه السلام" وحي السماء، وفي المدينة بنى النبي مسجده الأول الذي دفن فيه، أمّا مدينة بيت المقدس فقد أنجز فيها رحلته عبر السماء، فوق فرس مجنّحة، زار خلالها "طبقات الجحيم السبع ومثلها في الجنة، ورأى الله من خلف سبعين ألف ستارة من النور، بين كلّ واحدة وأخرى مسافة خمسمائة عام" [1].

1 . هذه القصة هي التي أوحت لدانتي ببناء ملحمته الإلهية.

لكن هل يستطيع فيصل أن ينجز مهمّته ما دام أنّ مدينة بيت المقدس باقية خارج سلطته التشريعية؟ من أجل ذلك أقسم في نفسه ألّا يموت قبل أن يصلّي في المسجد الأقصى وأن يضمّ منه حجر القبّة من الصخرة حيث ترك النبي أثراً لموطىء قدمه.
لكنّ قبة الصخرة والمسجد الأقصى هما في أيدي الإسرائيليين منذ يوليو(حزيران) من عام 1967.

إنّ هذا الموقف يطرح أمام فيصل واحدة من أشدّ معضلاته الشائكة في حياته، ذلك لأنّها تعرّضه لخطر النزاع والتصادم بين رسالته الروحية ودوره السياسي. هل تجب عليه الموافقة على قطع الروابط التي تشدّه إلى الولايات المتحدة، تلك الروابط التي يدين لها هووبلاده بالكثير من الأشياء باعتبار أنّ أميركا تزوّد إسرائيل بالعون العسكري والمالي؟ أوَليس أنّ الأطباء الأميركيين هم الذين عنوا به، حين كان متمدّداً فوق سرير الألم في مستشفى ولتر ريد؟ أوَليس أنّه وكل إلى الأميركيين مهمّة تربية أولاده، حين أرسل هؤلاء إلى هان سكول في برنستون؟

أوَليس أنّ الذين قاموا بأول عمليات التنقيب في الدمّام ونشروا في الجزيرة العربية خيرات الذهب الأسود، هم رواد من تكساس؟ لكلّ هذه الأعمال الخيّرة والفوائد الناتجة عنها يحفظ الملك لهم شعوراً عميقاً بالعرفان بالجميل. لكن ألا يتّهمه المؤمنون بخيانة أخوانه الفلسطينيين ورسالة الله التي انتدبه لها في وقت معاً، فيما إذا بقي خارج النزاع الإسرائيلي العربي؟ ألن يقولوا بأنّه قد تنكّر لله ليحتفظ بدولاراته؟ إنّه مأزق مقلق يبدوأنّه لا مخرج له إلا في "مراجعة ممزّقة".

الثابت أنّه يؤثر تجنّب القيام بهذه المراجعة. فهو لا يرغب أبداً في الاختلاف مع أميركا. بل هويرى أنّ الاختلاف معها من الناحية السياسية عمل أخرق، والخرق في السياسة لم يكن صفة من صفاته أبداً. لكنّ القيام بواجباته الدينية قد أخذ يشغل من عقله بمرور الزمن قدراً متزايداً من الأهمية. إنّه يجد في ذلك ما لا سبيل إلى تجنّبه دون أن يغضب السماء. ليت أنّ روزفلت قد أصغى لأبيه، وليت أنّ ترومان لم يكن قد خدعه.

وبعد أن أعاد النظر في هذه المعضلة مرة بعد مرة، راح يتساءل عمّا إذا كان التوفيق غير ممكن بين الحفاظ على روابط الصداقة مع أميركا من ناحية، والصلاة في بيت المقدس من ناحية أخرى. أليست هناك وسيلة للتوفيق بينهما، مع كلّ الأوراق الرابحة التي يتصرّف بها؟

وانتهت خطورة الموقف بأن كشفت له عن حلّ مناسب. وبدأ العمل دون أيّة ضجة. لقد بدأ يحدّد — متقدّماً خطوة خطوة — سياسة عربية جديدة يأمل أن يشرك فيها في وقت واحد كلاً من أميركا ومجموعة البلدان الموجودة في ميدان القتال. هذه السياسة لن يعلن عنها بخطب مثيرة، فهذه ليست طريقة في العمل. إنّ مسيرته ستكون خفيّة، معقّدة، محيّرة. وهي من التحيير في بعض الأوقات بحيث يجب أن نعود قليلاً إلى الوراء لاستيعاب كلّ الأبعاد فيها.

أنور السادات يخلف عبد الناصر

كانت الحكومة السوفياتية قد تمثّلت في جنازة عبد الناصر بعد وفاته بألكسي كوسيغين. وقد مدّد إقامته في القاهرة بضعة أيام ليشارك القادة المصريين الرئيسيين في تسوية المسألة المتعلّقة بخلافة الريّس، فمن يقع عليه الاختيار؟ أهوزكريا محي الدين، الذي كان عبد الناصر قد سمّاه خليفة له في خطاب الاستقالة الذي وجّهه إلى شعب مصر في ليلة 9 – 10 يوليو(حزيران) 1967؟ هذا غير ممكن! ذلك لأنّه يعتبر، بحقّ أوبباطل، رجل أميركا في مصر. هل يكون علي صبري؟ هذا صعب أيضاً، إنّه يعني بكلّ وضوح تحوّلاً نحوموسكو. وأخيراً تحوّلت الأصوات نحوشخصية أشدّ حياداً لا تثير أيّ شك أوقلق عند أحد من المسؤولين: إنّه رئيس المجلس الوطني أنور السادات. وكان كلّ من حوله يعتقد أنّه ليست له البنية التي تصلح لاستيعاب مسؤوليات وظيفته الجديدة، وأنّه سيجري استبداله بغيره خلال بضعة أسابيع. أمّا هذا الغير فإنّه لن يكون في عقل كوسيغين غير علي صبري. فعلى هذا الأخير أن يصبر قليلاً. فإنّ خلافته على السلطة العليا لن تتأخّر كثيراً.

ذلك لأنّ السادات في نظر الرأي العام رجل عاجز متذبذب ضعيف الإرادة. إنّ صعوده إلى مركز الرئاسة ليس في نظر بعض الناس غير حلّ وقتي، وفي نظر البعض الآخر الحلّ الأسوأ.
(منذ ذلك الوقت، علم السادات أنّ الروس يعتبرونه انساناً تافهاً لا قيمة له، وطبيعي أنّ هذا الواقع لا يحدث في نفسه أيّة عاطفة طيبة نحوهم).

لكنّه لم يكد يتسنّم زمام السلطة، حتى بدا فجأة أمهر وأقوى ممّا كان يعتقد المشنّعون عليه. لقد استطاع في بعض ضربات موزّعة بحكمة ومهارة يميناً ويساراً، أن يخرج علي صبري من الحكم ثم يلقي به في السجن، كما تخلّص من عدد من القادة العسكريين المتآمرين، وضبط طبقة الطلاب في القاهرة، وأرغم محمد حسنين هيكل، مدير صحيفة الأهرام، على الاستقالة، ثمّ لم تمض بضعة أشهر حتى تمّت تصفية النظام الناصري وتدعّم مركزه.

لكنّه حين نظر من حوله، لاحظ أنّ مصر في حال موئسة. فالجيوش الإسرائيلية تحاذي القناة وتحتلّ سيناء. كما حُرِمت مصر من النفط وتجارة الترانزيت. أمّا حرب الاستنزاف التي شنّها عبد الناصر على امتداد القناة فقد دفعت بسكان المدن المتاخمة للقناة نحوالعاصمة. إنّهم أكثر من مليون رجل وامرأة لا يدرون ما يفعلون، حتى أنّ بعضهم قد أقام في قبور مدينة الأموات حين لم يجد مأوى يأوي إليه. ثم ارتفعت الأسعار وانهار الاقتصاد، وتعذّر على الناس الحصول على الفول والأرز والسكر التي هي في قاعدة الغذاء الأساسي. أمّا النفقات العسكرية فإنّها تسحق البلاد سحقاً. هكذا شلّت جوارح السادات بحالة "اللاسلم واللاحرب". وقيّدت حريّته في العمل باللاءات الثلاث التي تبنّاها مؤتمر الخرطوم: لا للاعتراف بدولة إسرائيل، لا للسلام مع إسرائيل، لا للمفاوضات المباشرة مع ممثّليها. إنّه يجب أن يفعل شيئاً إذا أراد أن يخرج مصر من الهاوية التي تتردّى فيها. لكن ماذا يفعل؟ وفكّر السادات طويلاً: إنّ من الصعب أن يقول ما عزم على فعله...

وهنا تدخّل فيصل، بطريقة حذرة متكتّمة.

- لقد ارتكب عبد الناصر خطأ فاحشاً في سعيه إلى مساندة موسكو"هذا ما أبلغه إلى السادات بواسطة ممثّليه في القاهرة".

لقد اكتسب بذلك عداوة أميركا. فما هي الفائدة التي خرج بها من ذلك؟ لا شيء غير الفشل والخيبة، فيما عدا سدّ أسوان الذي يثير بعض جوانبه التقنية شكوك الخبراء وقلقهم. ماذا فعل الروس من أجلكم، خلال حرب الأيام الستة؟ لا شيء. لقد تركوكم تسقطون. وهم سيضحون بكم دائماً في سبيل "التعايش السلمي". تقولون: أنّهم قطعوا علاقاتهم الدبلوماسية مع إسرائيل؟ أيّة صفقة طيبة هذه! إنّهم في أثناء ذلك لم يزوّدوكم إلا بأعتدة عسكرية غير كافية وقديمة متخلّفة. إنّهم لن يدخلوا أبداً في أيّ نزاع إلى جانبكم. كما أنّ تيتووبومدين لم ينجحا، رغم ما بذلاه من الجهود، في إخراجهم من تحفّظهم. إنّهم سيخونوكم دائماً في الدقيقة الأخيرة. على أنّكم لا تجهلون العواطف التي يحملونها نحوكم.

"وإذاً، فلماذا هذا العناد في اتخاذ طريق مزعجة لا يصدر عنها غير المزيد من الصعوبات لمصر، كما تجعل المعضلة الإسرائيلية مستعصية على الحل؟ اتخذوا الخطوة المقابلة لتلك التي اتخذها عبد الناصر. تحرّروا من موسكوواتجهوا نحوالأميركيين. إنّهم وحدهم القادرون على ممارسة ضغط حقيقي على قادة تل أبيب لإرغامهم على التراجع. أفهِموا البيت الأبيض أنّ مصلحتهم هي في مساندة العالم العربي والتحلّل من إسرائيل. فإذا وجدتم ضرورة للمساعدة فنحن سنساعدكم على ذلك".

وفكّر السادات طويلاً في هذا الاقتراح. وصدّقه لأنّه يتّفق في الأعماق مع قناعاته الصميمة. إنّ هذا الاقتراح مؤسّس على حسّ سليم. إنّ مصر والعالم العربي في حاجة إلى من يحميهما، ولن تكون روسيا، المشغولة بالمعضلة الصينية قبل كلّ شيء، هي الدولة الحامية. وإذاً فما الرأي في أميركا؟ ولماذا لا، بعد هذا كلّه، ما دامت الحاجة ماسة إلى من يحمي مصر؟!.

وفجأة قرّر السادات أن يتحوّل في اتجاهه. فأمر في 12 أغسطس (آب) 1972، وفجأة، بإخراج خمسة الآف مستشار سوفياتي مقيمين في مصر، ومنح المدرّبين العسكريين وأفراد عائلاتهم ثمانياً وأربعين ساعة للعودة إلى بلادهم.

أحدث هذا النبأ دوياً كبيراً لا سيّما وأنّه كان غير منتظر.

لكن لا معنى لهذه العملية إلا إذا فهمها الأميركيون وأمسكوا العصا الممدودة إليهم.

وفي 18 أغسطس (آب) سأل كاتب هذه السطور الرئيس السادات في مقابلة عقدها معه لراديولوكسمبورغ عن معنى هذه المبادرة قال:

"أيها السيد الرئيس، أنا أعلم أنّ القضية في ذهنك ليست إبدال دولة بدولة، فإنّ هذه الطريقة في التصرّف مذلّة للكبرياء المصرية. لكن لنفترض جدلاً أنّ أميركا قد مدّت يدها إليك، وأدركت أنّها تحقّق دفاعاً أمثل عن مصالحها الضخمة التي تملكها في البلدان العربية بتبنّي موقف أكثر ودّاً نحو مصر، هذه اليد الممدودة، هل تقبل أن تمسك بها؟

فابتسم إبراهيم عزّت الذي حضر هذه المقابلة، وهو وزير مصري للإعلام وللشؤون الخارجية بالوكالة. إنّه يعلم أنّ هذا السؤال هوما يتمنّى السادات أن يُطرَح عليه. وهنا أجاب الرئيس دون أن يتردّد:

"سأجيبك بكلّ صراحة. إنّ المسألة لا يمكن بأية حال أن تأخذ صفة المساومة، ذلك لأنّها تتعلّق باستقلالنا، وهذا ميدان لا سبيل إلى المساومة في شأنه. لقد بقيت خلال السنة الماضية على اتصال مع بعض القادة الأميركيين ولم أكفّ عن إطلاعهم على مقاصدي. وفي أثناء ذلك الوقت لم يكفّ الإسرائيليون عن إعلان رغبتهم في السلام، لكنّ السلام في ذهنهم، هوسلام قائم على الاستسلام المصري، وهو حلّ لن أوافق عليه أبداً. ذلك أنّ هذا السلام، كما تريده حكومة تل أبيب، يقوم على امتيازات ومكاسب في الأرض مترتّبة على نتيجة حرب الأيام الستة، وهي امتيازات ومكاسب لا أجدني ولن أجدني مستعدّاً لمنحها إياها. أمّا إذا أدركت أميركا ما في قضيتنا من الحق والعدل، وإذا أراد الأميركيون أن يعيدوا النظر في موقفهم منّا، فإنّ هذه اليد الممدودة التي تحدّثت عنها أعلاه، سأمسك بها دون تردّد".

وقبل أن يذاع هذا الجواب من قبل راديولوكسمبورغ كانت وكالة اليونايتد برس قد اشترت حقوق نشره ووزّعته على 1400 صحيفة انكليزية وأميركية 20 أغسطس (آب) 1972.

هكذا وبصورة نهائية بدا التحوّل واقعاً مجسماً. ومع ذلك فإنّ الأميركيين لم يقوموا بأيّة حركة [1]، هل لم يدركوا الفرصة التي سنحت لهم؟

والجدير بالذكر أنّ صمت البيت الأبيض، وهزّ الكتفين عند الكرملين، وضعا السادات في موقف غير مريح أبداً. لقد شعر وكأنّه موجود في فراغ. يضاف إلى ذلك أنّ أحداً لم يسانده في رأيه. إنّ اللعب بورقة

---

1 . وأكثر من ذلك، فإنّ الروس الذين لم يحتجّوا إلا شكلياً على إخراج مستشاريهم قد اعتبروا بادرة السادات كـ "وخزة ذبابة". إنّهم لا يريدون الدخول في مهاترة مع شخصية بمثل هذه الأهمية الضئيلة التي ما يزالون ينتظرون إخراجها من يوم لآخر.

واشنطن لا يسرّ الشعب المصري أبداً، الذي ما يزال يذكر لعنات عبد الناصر "للامبريالية الأميركية"، كما أنّ دمشق وطرابلس والجزائر راحت تتساءل عن المعنى في مبادرة الرئيس، ومالت إلى إثارة الشكوك في سلامة مقاصده.

هنا، تدخّل فيصل من جديد ليشدّد من عزيمته ويشجّعه. وكما هوشأنه دائماً، كان تدخّله بالغ الخفاء والتكتّم.

- أرسل إليه يقول "لا تفقد الأمل، إنّك في الطريق الصحيحة. يجب أن تستمرّ فيها. إنّ نقل العالم العربي إلى المعسكر الأميركي ليس بالأمر اليسير. إنّ توتّرات السنوات العشر الأخيرة لا يمكن أن تمحى بين ليلة وضحاها. فالديمقراطية الأميركية آلة ثقيلة يحتاج فهمها إلى فسحة من الزمن، لكن، صدّقني، إنّها ستفهم. اطمئنّ إلى مساندتي الودّية".

والواقع أنّ التحرّك الأميركي قد تأخّر في ظهوره. لكنّ فيصلاً رجل صلب عنيد. إنّه يعلم، في الحقيقة – وحياته كلّها تثبت ذلك – وجوب توفير الوقت للأشياء إذا أريد لها أن تنضج. هذا وقد ازداد مركز السادات صعوبة أكثر فأكثر. إنّه يشعر بأنّ عليه أن يرفع الصوت ليدعم رصيده الذي يتفتّت بصورة خطرة.

"إذا لم تفعل الدول الكبرى، ولا سيما الولايات المتحدة، شيئاً لحلّ المعضلة الفلسطينية، وإذا لم تفعل شيئاً لإرغام الإسرائيليين على إخلاء الأراضي التي تحتلّها بغير حق منذ حرب الأيام الستة، فإنّني سأكون مضطراً للّجوء إلى السلاح. احذروا! إنّ الموقف يصبح في كلّ يوم أكثر تفجّراً!".

أمّا زعماء الكرملين فقد نظروا إليه يتخبّط بابتسامة ساخرة.

نعم إنّها غلطته! فما كانت حاجته إلى التنكيد على الدبّ السوفياتي؟

وكرّر السادات في مناسبات كثيرة قوله:

- "سأهاجم!".

لكنّ الجميع يهزّون أكتافهم. لا أحد يأخذه مأخذ الجد. هل يعتقد حقاً أنّه في حال تسمح له بخوض الحرب مع جيش أضعفته مغادرة التقنيين الروس ولن يلبث أن ينسحق بأسرع مما انسحق عام 1967؟

هل صحيح أنّ أحداً لا يأخذه مأخذ الجد؟ هذا غير صحيح. إنّ رجلاً واحداً يصغي إليه باهتمام شديد: إنّه فيصل. وعندما عرض عليه السادات خططه ومشروعاته، أيّده بكلّ قوّته.

إنّ الرئيس السادات لا يخدع نفسه: إنّه يعلم جيداً أنّ جيشه ليس من القوة بحيث يقارن بالجيش الإسرائيلي، وأنّ حرباً جديدة ستنتهي إليه، إلى كارثة جديدة. لكنّه لا يفكّر في خوض معركة حاسمة. إنّه يفكر في القيام بعمليات محدودة، في صدمة، في ضربة عنيفة يزلزل بها الأشياء ويثير تعديلاً في الموقف. فلكي يخرج من الموقف الحرون الذي يجد نفسه فيه، ولكي يضع حدّاً لما يدعى "لا حرب ولا سلم"، يريد، حسب تعبيره الخاص "أن يهزّ السلّة لإحداث موقف سياسي جديد".

في هذه الرؤية، لا يهمّ أن تنتهي المحاولة إلى انتصار أوهزيمة. فالقضية تدور حول منع الرأي العام العالمي من النظر بلا مبالاة واستخفاف إلى التعفّن البطيء في الموقف. إنّه واثق من أنّ الأمل الوحيد يقوم على المفاوضة. لكن، ما دام أنّ أيّة واحدة من الدول الكبرى لا تريد الاهتمام بهذا الأمر، فإنّه سيفرض المفاوضة بطلقات المدفع. من أجل ذلك ستكون هزيمة الجيش المصري، التي يرافقها تقدّم جديد للإسرائيليين، ذات فعالية كفعالية الانتصار في ميدان الحرب. إنّها ستوقظ العالم الغافي وستُفهِمه أنّه لا يستطيع الاستمرار في تخلّيه عن المشكلة.

الثابت أنّ السادات ذكي جداً! ذكي أكثر كثيراً ممّا يظنّ المشنّعون عليه. وعندما أحيط فيصل علماً بمقاصده، وهو الوحيد الذي علم بها، أعطاه موافقته، لكن على شرط واحد: ألّا يكون الهجوم المخطّط له حرباً شاملة تزعج أميركا وتقلقها، بل عملية محدودة.

حرب أكتوبر (تشرين الأول) 1973

العمليات العسكرية

مضت أسابيع كثيرة دون أن يحدث شيء جديد.

ثمّ فجأة، في وقت لم يعد أحد يترقّب شيئاً، هاجم الجيش المصري. لقد اجتاز قناة السويس ظهر يوم السادس من أكتوبر (تشرين الأول) وانقضّ على تحصينات بارليف، المؤلّفة من سلسلة من النقاط المدعمة

من قبل الإسرائيليين على الضفة الشرقية من الممرّ المائي. وفي الوقت نفسه، تقدّمت مدرّعات حافظ الأسد السورية واخترقت منطقة الجولان المحتلّة من قِبَل القوّات الإسرائيلية.

كانت الصدمة رهيبة، في الشمال كما في الجنوب. أمّا الإسرائيليون الذين لم يكونوا على أهبّة، فقد أرغموا على إخلاء خطوط دفاعهم الأولى. كانت المفاجأة بالنسبة لهم كاملة. مع العلم أنّ أكثرهم كان منهمكاً بالاحتفال بعيد الغفران.

بعد أربع وعشرين ساعة كان خطّ بارليف قد سقط كلّه. لقد أصبح شريطاً ينتشر على امتداد القناة بعمق عشرة كيلومترات بين أيدي الجنود المصريين. إنّهم لا يصدّقون عيونهم، فهم يقذفون خوذاتهم في الفضاء ويطلقون صرخات الفرح. لقد حقّقوا هذا الشيء الذي لا يصدّق: النصر. ولم يعد لهم غير التقدّم إلى الأمام...

وفي الشمال أيضاً، بدا النصر محقّقاً. فالمدرّعات السورية المتقدّمة جنباً إلى جنب تقريباً، قد استردّت منطقة الجولان كلّها، على التقريب، تلك الأرض التي انتزعت من سوريا عام 1967. ولن تلبث أرتالهم الفولاذية أن تدوس أرض إسرائيل.

إنّ عنف الصدمة الأولى، وحماسة المقاتلين المصريين، وتأثير المفاجأة، كلّ هذا أحدث الارتباك والحيرة في القيادة الإسرائيلية العليا، وهو أمر لا يدعوإلى الدهشة.

لكنّ الأكثر إدهاشاً، في مقابل ذلك، أنّ النجاح الكبير الذي حقّقته القوات المصرية قد بدا مفاجئاً للقادة المصريّين.

الآن وقد تمّ اختراق خط بارليف وأصبحت فرقهم على الضفة الشرقية من القناة، فلماذا لا ينقضّون دون توقّف على ممرّي جدي ومتلا اللذين يشرفان على الممرّ المائي، ثمّ تنفتح أمامهم الطرق المؤدّية إلى إسرائيل؟

إنّهم لم يمتنعوا عن ذلك وحسب، بل بقوا جامدين وكأنّهم قد عطّلوا تماماً، هنا يكمن سر خفيّ لن يلبث المراقبون الأجانب أن يشيروا إليه.

لكنّ هذا السر (على العكس من كثير غيره) ليس سراً بالنسبة إلينا. فإذا كانت الانتصارات التي حقّقتها القوات المصرية قد فاجأت القادة المصريين، فإنّها قد جاوزت تقديرات السادات.

لقد تعهّد الرئيس المصري أمام فيصل أن يقوم "بعمليات محدودة" وهو يريد المحافظة على تعهّده. لقد شعر، إن جاز القول بأنّه "مجروف بانتصاره". إنّه يهدّد بإيصاله إلى ما وراء الهدف الذي فرضه على نفسه،

وهو أن يحتل إسرائيل (وهو يعلم أنّه لن يتوصّل إلى ذلك) بل يريد أن يرغم حكومة تل أبيب على مباشرة المفاوضات معه. ولهذا الغرض، فإنّ شريطاً بعمق عشرة كيلومترات على امتداد القناة هوكاف له. من أجل ذلك لم يكن عند القادة المصريين أمر بتوسيع هجومهم، فلا خطط، ولا تعليمات لاستغلال نجاحهم الأساسي. فتوقّفوا حيث لا يدرون ما يفعلون...

هذا التردّد سمح للإسرائيليين أن يستردّوا جأشهم. ففي 16 من الشهر نفسه، أي بعد عشرة أيام من بداية القتال نجح بعض المدرّعات ومجموعات من المظليّين الإسرائيليين التابعين لفرقة الجنرال شارون، في اجتياز القناة باستخدام "الدفرسوار"، وهو ممرّ غير محروس بما فيه الكفاية، واقع عند خرائب الإسماعيلية. وبسرعة زاد عددهم. فأصبح التسلّل سيلاً جامحاً، إنّ ما كان في البداية أربع دبابات أوخمساً، أصبح فرقة كاملة تتّجه نحوالجنوب وتهدّد بمحاصرة الجيش المصري الثالث، المتجمّع في الضفة الأخرى من القناة. حدث هذا دون أن تتمّ أيّة محاولة جدّية من الجانب المصري (لرتق تلك الثغرة).

وفي المساء نفسه أعلنت غولدا مائير أمام مجلس الكنيست بصوت يضطرب بالانفعال:

- "لقد اجتازت قوّاتنا قناة السويس لأول مرة في التاريخ، إنّها تقاتل في أفريقيا...".

وفي الوقت نفسه، كانت المهلة التي حصلت عليها إسرائيل في الجنوب قد سمحت لها بتعبئة كلّ مدرّعاتها التي تملكها والقيام بهجوم مضاد عنيف جداً في الجبهة الشمالية. المعركة رهيبة. نظراً لعدد الدبابات الكبيرة من ناحية وضيق الميدان من ناحية أخرى، هكذا بلغت المعركة بسرعة درجة من العنف لم يسمع بها من قبل أبداً. (لم يتردّد بعض المراقبين في مقارنتها بمعركة ستالنغراد).

وفي بضع ساعات تمّ استرداد جزء من الجولان. وبالرغم من أنّ الجنود الإسرائيليين كانوا يقاتلون بجنون اليأس وسعاره، فقد أعلنوا أكثر من مرة أنّهم يسيرون نحودمشق، لكنّهم لم يتوصّلوا إلى خرق الجبهة السورية. لقد صمدت هذه الجبهة جيداً. وبدلاً من أن يتراجع جنود حافظ الأسد دافعوا عن مواقعهم حتى النهاية.

حرب أكتوبر (تشرين الأول) 1973

المناورات السياسية

في الساعة التي أعلنت فيها غولدا مائير بأنّ الطلائع الإسرائيلية تقاتل في أفريقيا، ألقى السادات خطاباً أعلن فيه ما يلي:

- "إنّني لست عازماً على إطالة القتال. لقد سقط حتى الآن عدد كبير من الجنود الشجعان. إنّ أهدافنا قد تحقّقت: لقد تحرّرت القناة. وأنا مستعد لحضور مؤتمر السلام".

مؤتمر للسلام! هاتان الكلمتان تستحقّان الذكر. فالقضية لم تعد قضية "وقف إطلاق النار" كتلك التي وضعت حدّاً لحرب الأيام الستة، بل قضية "مؤتمر" تطرح فيه كلّ المعضلات المعلّقة منذ الثاني والعشرين من نوفمبر (تشرين الثاني) 1967، التاريخ الذي تبنّت فيه الجمعية العامة للأمم المتّحدة بالإجماع قراراً يطالب الإسرائيليين بإخلاء كلّ الأراضي التي يحتلّونها في مصر وسوريا والأردن.

إذا كان السادات قد أراد أن يوجّه إلى العالم صدمة نفسية، فقد توصّل إلى ذلك. أمّا إذا ظنّ أنّه بلغ الغاية فهو مخطىء، إذ أنّ الموجات التي أحدثتها هذه الصدمة لن تكفّ عن الاتساع.

في الساعات الأولى من النزاع المسلّح، بقي الاتحاد السوفياتي محتفظاً بصمته. لكنّه لا يرغب بالطبع في أن يكون بعيداً عنه، فضاعف من قوافل السلاح إلى سوريا بنسبة كبيرة – دبابات، ميغ 23، صواريخ أرض – جو،إلخ، واستغلّ هذا الوضع ليضاعف من سلطانه على حكومة دمشق.

وفي السادس عشر من أكتوبر (تشرين الأول)، وصل أليكسي كوسيغين إلى القاهرة. هذه الزيارة عند السادات ليست طيبة ولا ممتعة. فماذا عسى الرجلان يقول أحدهما للآخر؟ إنّ مباحثاتهما لم تعط أيّ مجال للتعليق، أولإصدار بيان معيّن. فإذا كان الوزير السوفياتي قد جاء لتوجيه اللوم إلى الرئيس المصري على موقفه ضد الروس، هذا الموقف الذي كشف عنه خلال الأشهر الأخيرة، فإنّه يكون قد أساء في اختيار الوقت.

أم أنّه جاء ليقدّم إليه مساعيه الحميدة ويحاول أن يصل ما انقطع بين القاهرة وموسكو؟ هناك قول "غير مؤكّد" ولكنّه يبدوأكثر احتمالاً، يعلن أنّ السيد كوسيغين جاء يطالب السادات بثمن الأسلحة

الروسية التي زوّدت بها مصر ويقول له: أنّه منذ اليوم لن يرسل شيئاً ما لم يدفع ثمنه نقداً. والجدير بالذكر أنّ نتيجة هذا المسعى قد انتهت إلى نتيجة مضادة مع ما كان يقدّره الوزير السوفياتي. لقد عمل على إقناع السادات بأنّ فيصلاً على حقّ حين أكّد أنّ البلاد العربية لا يجب أن تنتظر سلامها إلا من الولايات المتحدة.

ومع ذلك فإنّ ردود الفعل الأميركية أبعد من أن تكون ملائمة للعرب. إنّ الاعلان عن سقوط خط بارليف وعن الخسائر الكبيرة في الرجال والمعدّات التي أنزِلت بالجيش الإسرائيلي أحدث في نيويورك موجة من الوجوم والذعر. وخوفاً من أن يتمّ اجتياح إسرائيل نفسها، فقد أقامت الحكومة الأميركية بالسرعة القصوى جسراً جوياً بين الولايات المتحدة وتل أبيب 11 أكتوبر (تشرين الأول).

وفي تلك الأثناء، كانت وحدات الجنرال شارون التي اتخذت لنفسها موطىء قدم على الضفة الغربية من القناة قد أكملت تجهيز نفسها. إنّها الآن فرقتان إسرائيليتان تتابعان محاصرة الجيش المصري الثالث المحتجز على الضفة الأخرى.

هذه المناورة الجريئة وضعت السادات في موقف خطر.

لقد راح يشهد ساعة بعد ساعة تفتّت الامتيازات التي وفرتها له صفحة المعارك الأولى. هذه الحرب، هل ستكون خاتمتها كخاتمة الحرب السابقة، هزيمة جديدة له؟ الثابت أنّه لم يكن في نيته أبداً أن يمدّدها، لكنّ مصلحته الكليّة تقضي الآن بإنهائها بسرعة. ولما كان الموقف العسكري أقلّ قليلاً مما كان يلائمه، ولما كانت الضرورة ماسة لمنع محاصرة الجيش الثالث بأي ثمن، فقد وجب أن يتراجع قليلاً عن مطالبه. فبدلاً من أن يطالب بـ "مؤتمر السلام"، يطرح كلّ المعضلات المعلّقة فهو يقبل الآن بوقف إطلاق النار شرط أن يتوافق هذا مع مفاوضات تهدف إلى رفع الحصار عن الجيش الثالث والاحتفاظ بشريط الأرض الذي يحتلّه على الضفة الشرقية من القناة. فإذا تحقّقت هاتان النقطتان، يجب أن يبادر مؤتمر دولي إلى بذل الجهد للوصول إلى حلّ لمجموع المعضلات التي تدمي المنطقة.

وعندما علم هنري كيسنجر، وزير الخارجية الجديد، بهذه الاستعدادات، توجّه إلى بيت المقدس ليستدرج الحكومة الإسرائيلية هي أيضاً إلى القبول بوقف إطلاق النار.

لكنّ الموقف الذي واجهه في إسرائيل كان معقّداً. كانت الأذهان مصدومة في عنف بالغ بسبب نكسات البداية. كيف سمحت القيادة العليا بأن تؤخذ على غير أهبّة إلى مثل هذه النقطة؟ هل هوالغرور؟ أم هي الغفلة؟ إنّ قيادة أركان الحرب تواجه أخطر الاتهامات، وأيضاً فهي أقلّ استعداداً من أيّ وقت مضى للقبول بوقف إطلاق النار. إنّها تنتظر من سلسلة العمليات — ولا سيما من ثغرة الجنرال شارون — انقلاباً في الموقف، وبالتالي استعادة لهيبتها. إنّها غير مستعدّة أبداً للتوقّف عن محاصرة الجيش المصري الثالث الذي تعتبر إبادته شيئاً مقرّراً في الأيام التالية. القبول بوقف إطلاق النار؟ هذا يعني التوقّف عن مسح الإهانة المتمثّلة في سقوط خط بارليف، والإقلاع عن انتصار يبدومنذ اليوم في متناول اليد.

حسن... فما هي الحجج التي استعان بها هنري كيسنجر ليقنعهم برؤية الأشياء على غير هذا النحو؟ هل دلّ بالأصبع إلى الموقف المأساوي الذي يجد فيه الجنرال شارون نفسه فيما لوحوصر هوبدوره — ذلك لأنّه يوجد بين القناة والقاهرة جيش مصري آخر لم يشارك بعد في القتال؟ هل قال لهم: إنّ تصلّبهم السريع جدير بأطيب المديح، لكنّه ما كان ليتحقّق أبداً لولا الجسر الجوي الأميركي الذي أقيم، بسبب الخسائر الكبيرة التي نزلت بهم من قبل أعدائهم في العتاد والسلاح (ولا سيما السوريون)؟

الإسرائيليون شديدو العناد وهم يريدون كسب الوقت. لكنّ كيسنجر، هوأيضاً، في عجلة من أمره، لأنه يخاف من تدخّل السوفيات بين وقت وآخر. على أنّ هؤلاء لم يفعلوا شيئاً حتى ذلك الوقت. لكنّه يعلم أنّ بومَدين قد ذهب إلى موسكوفي الرابع عشر من الشهر وعقد مع برجنيف مباحثات استمرّت ست عشرة ساعة. فماذا قال الرجلان أحدهما للآخر؟ إذا دخل الاتحاد السوفياتي في المعركة يصبح النزاع عالمياً، ويكون من المستحيل وضع حدّ للخسائر. كما ستقع المسؤولية على إسرائيل، ما دام السادات، من جانبه، قد وافق على وقف إطلاق النار.

لكنّ الإسرائيليين متردّدون دائماً في الانحناء والخضوع للواقع الجديد. وهنا لجأ كيسنجر إلى حجّته الكبرى. فسألهم، بطريقة مباشرة أوغير مباشرة (والأمر هو نفسه) كيف سيصبحون إذا علّقت أميركا مساعداتها وألغت الجسر الجوي؟

هذه هي الحجّة القاتلة، الحجّة التي لا جواب عنها.

وهنا رأى الإسرائيليون فوراً معالم التهديد، وإن بقي وراء ستار. فوافقوا في المساء نفسه على وقف إطلاق النار 22 أكتوبر (تشرين الأول).

كان سرور كيسنجر عظيماً بما حصل عليه. إنّ نجاح مسعاه قد زاد من شهرته كسياسي "ساحر". كما أكّد رأيه في أنّ أخطر الأزمات تحلّ وهي "حامية".

أمّا فيصل الذي يتابع مسيرة الأحداث بانتباه شديد، والتي هومنها، جزئياً، رئيس الجوقة الخفي، هوأيضاً راض بما تحقّق. إنّ نجاح كيسنجر قد أكّد قناعاته: في أنّ حلّ المعضلات يقوم بين أيدي الأميركيين. فهؤلاء يستطيعون الحصول على كلّ ما يريدون، شرط ممارسة الضغط المطلوب على الإسرائيليين. وها هوكيسنجر يبرهن على ذلك. لقد أطلق "ديناميكية السلام". وعلى العرب أن يتصرّفوا بحيث لا تتوقّف أبداً.

أما في ميدان القتال، فالأشياء أشدّ تعقيداً. لقد تابع القادة الإسرائيليون محاصرتهم للجيش الثالث يدفعهم غضب شديد من أن ينتزع انتصارهم منهم على نحومن الأنحاء. فتوغّلت في "الدفرسوار" وحدات متزايدة العدد أكثر فأكثر. وجاءت تتجمّع عند الضفة الأخرى من القناة. وبدأت تستعدّ للقيام بهجوم حاسم حين جاء من واشنطن أمر يجمّدهم في مكانهم.

صحيح أنّ الجيش المصري الثالث سيحاصر، ولكنّه لن يدمّر أبداً.

وفي جبهة الجولان، استمرّت العمليات العسكرية. لقد رفضت الوحدات السورية أن تتخلّى عن مواقعها وهي التي يوالي الاتحاد السوفيات تزويدها بالمؤونة والسلاح. إنّها لم تستطع أن تدرك الهدف المتّبع من قِبَل السادات، ولا لماذا لم تقدم الفرق المصرية التي اجتازت القناة على الإفادة من هذا الكسب للاستيلاء على سيناء. إنّ حافظ الأسد رجل مستقيم شديد الاعتزاز بنفسه. إنّ نظام "العمليات المحدودة" لا يعني شيئاً ذا قيمة في نظره. إنّه لايضع آماله في "حسن نية" الأميركيين. شيء واحد هوذوقيمة في رأيه: إنّه القتال. تقولون: مفاوضات؟ بكل تأكيد! لكن على شرط أن نكون منتصرين. فمتى رؤي الفريق الأضعف يفرض شروطه على الفريق الأقوى؟ كانت بين يدي السادات فرصة وحيدة. فلماذا تركها تبتعد عنه؟ هل هوضعيف، أم مهمومٌ حصراً؟

لقد رغب الأسد حقاً في القتال. وها هوجيشه يخوض المعركة منذ ثمانية عشر يوماً. لقد بدأ يلهث. ليس في هذا ما يدهش أبداً. إنّ عنف المعركة في الجولان أمر لم يُسمَع به من قبل. الخسائر جسيمة. المدن

والقرى تحترق. والخرائب في الريف كلّه. في كلّ مكان لا يُرى غير الشاحنات المحترقة، والدبابات المبقورة البطون. إنّها كثيرة في كلّ مكان بحيث أنّها تتلاقى ويتراكم بعضها فوق بعض على صورة أكوام من الفولاذ. أمّا فيما يتعلّق بالرجال فإنّ من لم يحترقوا أحياء أولم يمزّقوا برصاص الرشاش قد أنهكت قواهم. ولئن خرقت الجبهة في نقطة واحدة ضاعت دمشق. وهنا قبِلَ الأسد ما لا سبيل إلى تجنّبه. لقد وافقت سوريا في 24 أكتوبر (تشرين الأول) بدورها على إيقاف إطلاق النار.

في اليوم التالي، 25 أكتوبر (تشرين الأول)، استيقظ العالم على ضربة كأنّها الرعب القاصف. لقد أصدر نيكسون قراراً بإعلان "حالة الطوارىء النووية" لكلّ القوات المسلّحة التابعة للولايات المتحدة من ألاسكا إلى مانيلا، ومن الفيلبين إلى فرانكفورت، كلّ وحدات البر والجوأصبحت على أهبّة الحرب. كما أقلعت القاذفات العملاقة التابعة للقيادة الجوية الاستراتيجية من قواعدها تحمل معها حمولاتها من القنابل الذرية. أمّا الصواريخ عابرة القارات فقد وضعت على قواعدها المعدّة لإطلاقها.

لمن يتوجّه هذا التهديد الرهيب؟ وما الذي يقصد إليه، ما دام أنّ الحرب في الشرق الأدنى هي في طريقها إلى الانطفاء، وما دام أنّ البلدان المتحاربة – مصر، إسرائيل، سوريا – قد قبِلَت وقف إطلاق النار. إنّ هذا التهديد يبدوعارياً من كلّ محرّك في ذلك اليوم حيث تسكت الأسلحة ويعود السلام إلى الولادة من جديد.

إنّ هناك ما يدفعنا إلى القول بأنّ أحداً لا يصدّق ما حدث يومذاك.

ومع ذلك فإنّ نيكسون لم يتصرّف بخفة. إنّ لمبادرته ما يحرّكها، والمحرّك خطير جداً. حتى ذلك الوقت بدا الاتحاد السوفياتي متكتّماً. لكنّ الكرملين وجّه في ليلة 24 أكتوبر (تشرين الأول) مذكّرة إلى البيت الأبيض يطالب فيها بإشراكه في تصفية النزاع لا باعتباره جانباً ثانوياً بل كشريك له حصّته الكاملة، وأنّه لا يستطيع أن يفعل غير ذلك دون أن يفقد رصيده في نظر الشعوب التي يتولّى حمايتها. إنّ عدم حضوره على طاولة المفاوضات يساوي في نظره هزيمة دبلوماسية.

هذا هوالاحتمال الذي يبدوأنّ البيت الأبيض غير مستعدّ أبداً لمواجهته. فلا اقتسام في المسؤوليات! إنّه عازم على تسوية النزاع في الشرق الأدنى وحده، وبالطريقة التي يريدها. هل أنّ روسيا لم تتدخّل حقاً في ميادين القتال؟ (لوأنّها فعلت لفجّرت حرباً عالمية ثالثة). وهل أوتيت من الحكمة ما جعلها تمتنع عن ذلك؟

حسن جداً، لتستمر في الوقوف جانباً. سيقال أنّ مثل هذا المطلب غير متّفق مع مبادىء "التعايش السلمي" الذي جرى افتتاحه من قبل جونسون وكوسيغين خلال لقائهما في غلاسبورو[1].

في هذه الحال ليسقط التعايش السلمي غير مأسوف عليه؟ فالرئيس نيكسون لن يغيّر موقفه. من هنا كانت طلقة الإنذار العنيف.

لقد بدا نيكسون وكأنّه استخدم وسيلة غير متّسقة مع الهدف الذي كان يريد بلوغه. فهل كانت هناك ضرورة ماسة لإحداث مثل هذه الضجة الشديدة؟ في رأيه أنّه على حق. لقد أراد توجيه ضربة قوية جداً لتجميد كلّ ردة فعل. فنجح في ذلك. واحتجّ الكرملين بحسن نيته لكنّه لبث ساكتاً. وفي اليوم التالي استطاع نيكسون أن يلغي أمره بإعلان الطوارىء وأصبح في وسع المفاوضات المصرية الإسرائيلية أن تبدأ عند الكيلومتر 101 دون أن يحدث حادث آخر 6 نوفمبر (تشرين الثاني) 1973.

حرب أكتوبر (تشرين الأول) 1973

جبهة النفط

في ذلك الوقت، لم يبق الملك فيصل ساكناً لا يتحرّك. فمنذ بداية القتال، كلّف الشيخ أحمد زكي يماني، وزير النفط، بتوجيه دعوة عاجلة إلى أعضاء منظمة "الأوبيك" لدراسة الإجراءات التي يجب أن تتّخذ من أجل تكوين جبهة موحّدة "للبلدان المصدّرة" للذهب الأسود.

كان العراق منذ 7 اكتوبر (تشرين الأول) قد أمّم ممتلكات الشركتين: أكسون، وزيت موبيل التي أقيمت فوق أراضيه. لكنّ هذا لم يكن غير بادرة فردية، عاجزة عن التأثير على تطوّر النزاع. إنّ فيصلاً يريد شيئاً آخر: إنّه يريد سلسلة من الإجراءات الشاملة، قادرة على زلزلة الاقتصاد الغربي وعلى إفهام قادة ذلك الاقتصاد بأنّ الزمن الذي كان في وسعهم أن يقابلوا فيه مطالب البلدان العربية بالصمت المتعالي ذهب إلى غير رجعة.

---

1 . **23، 24، 25، يونيو(حزيران) 1967 بعد حرب الأيام الستة.**

على أنّ الحكومات العربية كانت قد تظاهرت بإشهار سلاح النفط عام 1967 بعد حرب الأيام الستة – ولوأنّ هذا السلاح قد استعمل بطريقة مناسبة، لكان أشد تخريباً من القنبلة الذرية. لكنّ مدّة الحرب التي كانت من القصر، وأعضاء منظمة الأوبيك من الضعف في الاتحاد بينهم، بحيث أنّه لم يتّخذ أيّ إجراء جدّي. فلم تكد تنتهي المعارك حتى عاد كلّ واحد إلى داره. ثمّ لم يخرج إلى النور أيّ قرار مشترك، كلّ شيء عاد إلى الانتظام، حتى أنّ الخبراء الغربيين قالوا في أنفسهم مع ابتسامة هادئة: "ليس سلاح النفط سلاحاً خطراً وليس التهديد باللجوء إليه غير نوع من التبجّح الفارغ".

في هذه المرة تعاقبت الأشياء على غير هذه الصورة. ست سنوات مضت أصبحت البلدان العربية خلالها أشدّ قوّة من قبل، إمّا لأنّ العرب استردّوا كلّ مصادر ثرواتهم أوبعضها، وإمّا لأنّ حجم هذه الموارد قد زاد زيادة كبيرة جداً. ثم هناك فيصل الذي يغيّر حضوره كلّ شيء، ذلك لأنّه أصبح أكبر مالك للنفط في العالم كلّه، متجاوزاً إلى بعيد كلاً من إيران، والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة [1]!

وهذا كافٍ ليُسمع صوته باحترام، حتى دون أن يُدخِل في الموضوع سلطته الشخصية. وإذاً فليست تعترض طريقه أيّة صعوبة في إقناع أعضاء المنظّمة الآخرين بوجهة نظره، وفي إكسابهم وحدة عمل كانوا يفتقدونها بقسوة حتى ذلك الوقت.

وفي الاجتماع المنعقد في الكويت، في جلسة غير عادية، اتخذ أعضاء منظمة الأوبيك القرارات التالية :

- رفع أسعار النفط بنسبة 70 في المائة (16 أكتوبر "تشرين الأول").
- تخفيض الإنتاج بنسبة 5 في المائة في كلّ شهر، حتى انسحاب إسرائيل من كلّ الأراضي المحتلّة منذ عام 1967 (17 أكتوبر "تشرين الأول").
- حظر كلّ الصادرات باتجاه الولايات المتحدة والبلدان المتّهمة بمساندة إسرائيل (21 أكتوبر "تشرين الأول")

إنّ هذه الإجراءات التي لم تستطع منظمة الأوبيك أن تتّخذها عام 1967 لعدم توفّر التناسق بين أعضائها، أعطت النزاع الإسرائيلي – العربي أبعاداً لم تكن له من قبل أبداً.

1 . انظر الجدول الثامن في نهاية الكتاب.

وفجأة، أصيبت البلدان الغربية بحالة شديدة من الذعر. لقد خافت، وهي فريسة لتضخّم مقلق، من أن يعرّض ارتفاع الأسعار توازنها الاقتصادي والمالي لخطر لا علاج له (هذا مع العلم أنّ الأسعار قد ارتفعت فيما بعد حتى بلغت رقمها القياسي الذي هو50،10 دولار للبرميل الواحد) [1]. إنّه يعني إعادة النظر في خطط متابعة الإنماء مع ما يجرّ ذلك من مواكب البطالة والاضطرابات الاجتماعية [2].

لقد ظنّ الغرب لمدة طويلة أنّ في وسعه تأسيس نهضته الصناعية بالاعتماد على نفط غزير ورخيص جداً، ويكون من الرخص بحيث أنّ الدول المشترية تستطيع أن تفرض عليه رسوماً بنسبة 76 في المائة من السعر الذي يدفعه المستهلك، وهذا هامش كانت هذه الدول قادرة بفضله على تغطية العجز في ميزانياتها الوطنية. هذا العصر بدا اليوم وكأنّه لا رجعة له أبداً. ولما كان المسؤولون حريصين على عدم إعلام الرأي العام، وعلى إبقائه في وضع لا يسمح له بمعرفة المعطيات الحقيقية للمعضلة، فقد بقيت قلّة منهم تعرف حقيقة الموقف.

لكنّ هناك اعتراضاً يأتي بالطبع إلى الأذهان. إنّ المشاركة في اتخاذ هذه الإجراءات – حتى لا نقول: إنّ تشجيعها – (قد كانت بالنسبة لفنزويلا وإيران غير صعبة أبداً، بل الذي حدث هوضرورة التدخّل لمطالبتهما بالاعتدال)، لكن، ألّا يتعرّض فيصل هنا لفقدان الصداقة الأميركية؟ كيف تتّفق هذه السياسة مع إرادته التي يعبّر عنها باستمرار، في ألّا يتعرّض بسوء لصداقته مع الولايات المتحدة؟

الثابت أنّه يواجه الخطر! لكنّه في الواقع خطر محسوب. إنّه يقدّر أنّ هذا الخطر ليس كبيراً جداً ما دام أنّ نيكسون وكيسنجر في مركزيهما من مسؤولية الحكم. وثمّ – وهذه بينة مفارقة – فلا الشركات النفطية الكبرى، التي هي في كثرتها الغالبة أميركية [3]، ولا الولايات المتحدة، تتأثر جدّياً بارتفاع هذه الأسعار. بل إنّ في وسعنا القول بأنّها ملائمة لها. أمّا الجانب الذي يتأثر حقاً بهذه الأسعار فهو أوروبا واليابان، اللتان

---

1 . هنا يطول بنا الأمر لو أردنا أن نعطي شرحاً مفصلاً لبنية الأسعار، وتأثيرها في الدورات النقدية والاقتصادية. وفي وسعنا اللجوء في هذا الموضوع إلى جان ماري شيفاليه: الرهان النفطي الجديد، باريس 1973، ونيقولا سركيس: النفط في الزمن العربي، باريس 1975.

2 . انظر الجدول التاسع في نهاية الكتاب.

3 . أكسون، تكساكو، موبيل، ستاندارد أويل كاليفورنيا، وغالف أويل. التي يجب أن تضاف إليها بريتش بتروليوم (بريطانية) ومجموعة رويال دوتش شل (انكليزية هولندية). هذه الشركات السبع المدعوة من قبل أنريكوماتي "الشقيقات السبع" تشرف وتسيطر وحدها على 51 في المائة من السوق الأميركية، 5،60 في المائة من السوق الأوروبية، و1، 55 في المائة من السوق العالمية.

لا تملكان أيّ مورد نفطي تقريباً، وكذلك شأن أكثر الدول فقراً من العالم الثالث (وإن كان هذا الفقر أقلّ ممّا تدّعيه هذه الدول).

أمّا فيما يتعلّق بالشركات النفطية وأرباحها فقد سجّلت انخفاضاً بسيطاً منذ عام 1973، لكنّها تضاعفت من حيث قيمتها المطلقة. إنّها تستطيع أن تستخدم هذه الزيادة في الموارد في البحث عن أشكال من الطاقة البديلة. وفيما يتعلّق بأميركا نفسها، فإنّها خرجت بامتياز مزدوج من هذا الوضع الجديد: أولاً نلاحظ أنّ ارتفاع سعر النفط يجعل النفط المستخرج من الصخور القارية، من موارد الطاقة الأخرى، سلعة تجارية مربحة. وهي موجودة بغزارة في أراضيها الخاصة. (من أجل ذلك كان إصرار كيسنجر على تثبيت حدّ أدنى للنفط لا يجوز النزول عنه).

فارتفاع الأسعار لا يضايقه، بل هوالهبوط الذي يزعجه، إذ أنّه يعرّض للخطر كلّ الاستراتيجية النفطية التي وضعتها الحكومة الأميركية. يضاف إلى ذلك، أنّه بالقدر الذي تتأثر به أوروبا واليابان بخاصة، فإنّها تستعيد تفوّقها على منافسين بدأوا يقلقونها.

هكذا يتبيّن لنا أنّ فيصلاً يقدّم للأميركيين خدمة لا تقدّر بثمن بتشجيعه لارتفاع أسعار النفط المقرّر من قبل منظمة الأوبيك.

ولنلاحظ، إضافة إلى ذلك، أنّ الحرب الإسرائيلية العربية عام 1973 لم تكن من وراء الزيادة في أسعار النفط. كلّ ما فعلته أنّها عجّلت بتفجير أزمة كانت ستنفجر في كلّ حال.

أمّا إشارة الانطلاق فقد أعطيت من قبل الرئيس بومدين في سبتمبر (أيلول) 1972 خلال مؤتمر الدول غير المنحازة، في اليوم الذي صرّح فيه، وهو على المنبر، أمام سبعين رئيس دولة من العالم الثالث قائلاً:

- "نحن نمثّل أربعة أخماس السكّان في العالم، ونملك ثلاثة أخماس الثروات في الأرض، ومع ذلك فنحن لا شيء. هذا ما يجب أن يتغيّر... ".

وعندما سكتت المدافع وانقشعت غيوم الدخان، اكتشف العالم ثلاثة أشياء هي مفاجأة مدهشة بالنسبة له:

1) العرب يعرفون كيف يصمتون.

2) ويعرفون كيف يتّحدون.

3) ويعرفون كيف يقاتلون بأسلحة حديثة.

وفي مقابل ذلك أضاع الجيش الإسرائيلي شهرته في أنّه قوّة لا تقهر.

فمن جانب، اهتز وتزلزل عدد من الأساطير، ومن جانب آخر اختفت عقد كثيرة.

مفاوضات الكيلومتر 101
ومؤتمر جنيف

لكنّه لم يتغيّر غير هذا، ومن أجل ذلك سجّلت حرب أكتوبر (تشرين الأول) انعطافاً في تاريخ العالم العربي، وأيضاً في تاريخ العلاقات العربية الأميركية.

إنّها لم تتوقّف عند وقف بسيط لإطلاق النار، كما كان الشأن عام 1967. لقد أطلّت على سلسلة من المفاوضات قصد بها تحريك "ديناميكية السلام".

في 11 نوفمبر (تشرين الثاني) تمّ اللقاء بين الفريق المصري الحمصي وزميله الإسرائيلي أهارون باريف عند الكيلومتر 101 من الطريق التي تقود من الإسماعيلية إلى القاهرة. ثم وقّعا على اتفاق من ستّ نقاط يقضي بانسحاب جيش شارون وفكّ الارتباط عند القناة. وفي الوقت نفسه أعلن البيت الأبيض إسهامه في تطهير القناة ووضعها موضع الاستعمال، وأنّه سيزوّد مصر بأرصدة ذات آجال طويلة لمساعدتها على موازنة وضعها الاقتصادي.

هكذا بدت جهود السادات في الإمساك باليد الممدودة إليه، والمنفتحة بإخراج المدرّبين السوفيات قد أعطت ثمارها. وكإجراء مقابل، ألغى إعطاء منظمة الأوبيك قرار حظر النفط بالنسبة لهولندا والولايات المتحدة [1].

1 . إنّ منظمة الأوبيك بفرضها للحظر سعت إلى التفريق بين الولايات المتحدة وهولندا من ناحية، وبين البلدان المحايدة أو الصديقة للعرب من ناحية أخرى (ولا سيما فرنسا وإيطاليا)، لكنّ سلاح النفط هوآلة ثقيلة جداً بحيث لا تسمح بتنويع الخطة في تطبيق القرارات، فكانت النتيجة مخيبة للآمال.

وفي 15 ديسمبر (كانون الأول) قابل كيسنجر الرئيس الأسد في دمشق. وحاول خلال ثلاثة أيام من المباحثات الصــعبة أن يقنع رئيس الحكومة الســورية بالمجيء إلى مؤتمر جنيف، في مقابل فكّ ارتباط إسـرائيلي في الجولان (منطقة القنيطرة). ولما كان فيصـل والروس متّفقين على دفعه إلى الحضـور، انتهى الأسد إلى الموافقة. (لقد اتخذ فيصل هذا الموقف لجملة من الأسباب: فهو يريد مساعدة كيسنجر، وأن يمنع (ديناميكية السلام) من التوقّف، وأن يمدّ زعامته على العالم العربي بإلحاق سوريا بخطته. أمّا الروس، فإنّهم حريصون جداً على إقامة المؤتمر لأنّه المكان الوحيد الذي يستطيعون فيه المشاركة في تحقيق تسوية نهائية. فالبيت الأبيض رغم (الإنذار النووي) لم يستطع أن يبعدهم كلية عن مفاوضات السلام [1].

ولما كان الإسـرائيليون قد طرحوا كثيراً من العقبات أمام إخلاء القنيطرة ورفضـوا رفضـاً قاطعاً أن يتركوا قمّة حرمون، فقد وجب تأخير تاريخ المؤتمر. وأخيراً تمّ تعيينه في 21 ديســمبر (كانون الأول)1973. وبسرعة، تبيّن أنّ المفاوضات مخيّبة للآمال، وذلك لسبب بسيط جداً: (هو أنّ كلّ هذا الإعداد الجميل لم يكن غير سراب خادع). لقد عقدت جلسة افتتاح رائعة، ثمّ جرى بعض المصافحات، ومفاوضات عسكرية هامشية، لكنّ كلّ ذلك دون مناقشة حقيقية لجملة الموقف. الفرقاء يتلاقون، وفي بعض الأوقات يتبادلون التحية. لكن لا أحد يتكلّم أبداً، ولا تُوضع الأوراق على الطاولة.

وبينما كانت محادثات جنيف تراوح في مكانها. تابعت جبهة النفط ضغوطها. ففي 23 ديسمبر (كانون الأول)، تقرّرت زيادة جديدة جانبية بنسبة 111.49 في المائة على الأسعار المقرّرة. العراق يؤمّم ما بقي من المصالح الأميركية والهولندية، وإمارات الخليج رفعت مشاركة الحكومات في ملكية الشركات من 25 في المائة إلى 60 في المائة، ثمّ طالبت مجموعة البلدان الممثّلة بفتح مفاوضات للإشراف مائة في المائة على الشركات الأجنبية.

وهنا أخذ العراق مركز الطليعة في ضوء المبدأ الذي وضعه السيّد صدام حسين، نائب رئيس مجلس قيادة الثورة، قال: (يجب أن نمسك سلاح النفط بأيدينا لاستخدامه بصورة فعّالة). أمّا فيصل فقد

1 . وزيت اليا: نوفيل اوبسرفاتور، 1 مارس (آذار) 1975، ص 32

عارض هذا الأســـلوب في العمل، ذلك أنّه إذا كان مؤيّداً لزيادة في الأســـعار فهو معارض جداً لمبدأ التأميم(1).

انتهى مؤتمر جنيف دون مواجهة واحدة للمعضلات الجوهرية، واتّفق أعضاؤه على الاجتماع من جديد عندما تحقّق إسرائيل فك ارتباط آخر. هل هذا فشل؟ كلا... ليس تماماً، ذلك لأنّ (ديناميكية السلام) ستستمر في مسيرتها. وهذا هو المهم في نظر فيصل والسادات. وكما قال ملك الجزيرة العربية: (حين تتفاهم الرياض والقاهرة، كل شيئ يسير سيراً حسناً).

وإذاً فالرياض والقاهرة تتفاهمان أكثر فأكثر. إنّ العلاقات المصرية – السعودية تزداد توطّداً في الوقت الذي تتدعّم فيه الروابط العربية – الأميركية.

ليس فيصل رجل المؤتمرات والتصريحات العلنية. إنّه لا يملك شيئاً من خصائص رجل المنبر. فهو يفضّل الاتصالات الثنائية والأساليب الخفية للضغوط الدبلوماسية. إنّ فشل جنيف لم يدهشه ولم يسبّب له أي شعور بالخيبة. لقد كان غذاءً حقيقياً هوائياً لا يستطيع أن يلعب فيه أيّ دور حقيقي، وحضور الروس كاف لإبعاده. إنّ (ديناميكية السلام) لا تزهر في الجو العاصف للسلطات الدولية الكبيرة. إنّها لا تتوافق أبداً مع الأصوات المرتفعة ولا مؤتمرات الكواليس. إنّ ما يجعلها تزدهر وتتقدّم هو الاتصالات المعقودة بين رجل ورجل.

وأيضاً فإنّه لم يغضب من أنّ مؤتمر جنيف قد وضع جانباً، إذ في أثناء ذلك سيكون في وسع كيسنجر متابعة وساطته. إنّه يضع ثقته التامّة في مهارته كمفاوض. هكذا انعقد حلف ضمني – بل يمكن القول نوع من التواطؤ والمشاركة – بين ملك الجزيرة العربية وبين وزير الخارجية الأمريكي. وبهذه المناسبة أرجو ألّا يفهم من كلمة (تواطؤ) معناها السيّء. إنّه، أي التواطؤ، حالة فكرية تنشأ بصورة طبيعية بين رجلين

---

1 . يبدو لنا تأثير فيصل في منظمة الأوبيك يبدو في الواقعة التالية: الحظر على الولايات المتحدة (البلد الذي يصر على عقد صلات طيبة معه) رفع في مارس (آذار) 1974، بينما مدّد الحظر على هولندا (وهو بلد لا يبالي به) حتى يونيو(حزيران) من العام نفسه.

سياسيين يعملان على الوصول إلى النتيجة نفسها. وفي هذه الحالة، يدعى الغرض المقصود (السلام الأمريكي).

ثمّ انعقد تواطؤ آخر بين فيصل والسادات، فهما كلاهما في حاجة ماسة إلى نجاح الرجل (الساحر). أمّا بالنسبة إلى فيصل فهو يعني نجاح سياسته الأميركية وتوكيد زعامته على تلك المنطقة من العالم، لأنّ كلّ البلدان العربية ستتوجّه إليه. إنّ نفوذه – الكبير – سيصبح قضية لا تقبل اعتراضاً ولا مناقشة. أي ستكون قضية مسلّمة.

والسادات، هو أيضاً، في حاجة إلى نجاح كيسنجر. والحاجة ملحّة ضاغطة. لكنّها هنا لأسباب أخرى، ذلك لأنّ الرجلين لا يعملان في ظروف متشابهة.

أمّا فيصل، فهو في مكتبه من الرياض، ينسج قماشه بوعي ومعرفة، بفضل شبكة من الأمراء والسفراء والنافذين من المستشارين، يعمل، على نحو ما، في الفراغ. إنّه حاكم مطلق لا يحسب، عمليّاً، لأحد حساباً. إنّه لن يواجه جمهوراً من الناس يتألّب عليه أمام قصره. ولن يتردّد أيّ صراخ يزعج الصمت الذي يحيط به.

وأمّا السادات، فهو موجود في وسط شعب شديد الحساسية، وهو هدفٌ لأزمات غضب عنيف. إنّ موقفه صعب جداً أمام معارضة لا تضع سلاحها أبداً. ومما لاشك فيه أنّ النتائج الطيبة للحرب التي أعلنها قد أرضت كبرياء الوطنية ودعمت هيبته. وموقفه من الأميركيين يسرّ رجال الأعمال والبرجوازيين في الزمالك الذين بدأوا يعترفون له بصفات رجل الدولة. أمّا في الجيش فهم ينكرون عليه أنّه لم يعرف كيف يستغلّ انتصاره، وأنّه ترك فرصة رائعة للانقضاض على الممرات، والاستيلاء على سيناء. وفي مكان آخر لا يغفر له أنّه اتخذ موقفاً مناقضاً لموقف عبد الناصر، وأنّه ألغى بضربة قلم واحدة أكثر إصلاحاته، وأنه أرفق (تحوّله) إلى الغرب بـ (تحوّل إلى اليمين). وإذاً فإنّ عليه أن يتصرّف بيقظة شديدة، بحيث لا يعلم تماماً إلى أين يريد أن يصل بالبلاد. إنّه في حاجة إلى الشجاعة ليتابع السياسة التي اختارها، في وسط شكوك وانتقادات موجّهة ضدّه. إنّه فوق حبل مشدود. فإذا لم ينجح كيسنجر أطيح به. إنّ فيصلاً يعمل لينتصر، والسادات يعمل للبقاء.

مؤتمر السفراء

هذا هو الموقف في نهاية عام 1973. وهو الوقت الذي اختاره فيصل لاستدعاء كلّ سفرائه إلى الرياض، وعقد مؤتمرٍ غير عادي معهم. إنّ على كلّ منهم أن يقدّم إليه تقريراً عن الوضع كما يبدو له في العاصمة التي يعمل فيها.

وبعد جلسة عمل طويلة، أعطاهم الملك تعليماته. وهذا في الحقيقة عرض عظيم لجملة سياسته. وها أنا أورده كما تناهى إليّ:

- قال: (أراد أبي، الملك عبد العزيز، أن يكون كفيل الأميركيين أمام العرب. وقد اختار هذا الطريق على معرفة تامّة بسببه. في ذلك العصر، كانت بلادنا هدفاً لأطماع الأتراك والانكليز. وقد كان من الطيش أن نطمئنّ ونسلّم قيادنا إليهم. ولو قد فعلنا لما وجدنا العربية السعودية.

(وحينما جاءوا يعرضون عليه عقوداً لاستغلال النفط، اختار الأميركيين على سواهم، لأنّ أميركا كانت بعيدة جداً، وليست لها أغراض سياسية في بلادنا.

(لقد سعد أبي دائماً بهذا الاختيار. وقد فاز الأميركيون من ذلك بفوائد كثيرة. ونحن أيضاً. إنّه من العار أن ندّعي عكس ذلك. كانت العقود الأولى غير ملائمة لنا، لأنّه كانت تنقصنا التجربة. لم تكن عندنا أيّة فكرة عمّا يوجد في باطن أرضنا. ثم علمنا ذلك شيئاً فشيئاً.

وعندما طلبنا إليهم تعديل العقود لمصلحتنا، فعلوا ذلك. وليس هذا ما فعله الانكليز في العراق وفي إيران. وهكذا ولدت بيننا وبين الولايات المتحدة، صداقة لم تكذّبها الأحداث أبداً، وقد طلب إليّ والدي، وهو يحتضر، أن أتمسّك بها. فأقسمت أن أنفّذ إرادته بأمانة).

(منذ وفاة والدي – رحمه الله- نجم واقعٌ جديد في تلك المنطقة من العالم. وهو واقع لم نكن ننتظره. لقد جاء اليهود يقيمون في فلسطين دون موافقتنا. فطردوا الفلسطينيين من وطنهم وأقاموا إسرائيل دولة مستقلة ذات سيادة. وقد كان من الممكن أن ننتهي إلى تسوية للموقف، لو لم يحدث واقع آخر، هو أكثر خطورة من الواقع الأول. لقد انحازت حكومة الولايات المتحدة إلى إسرائيل انحيازاً تاماً، تحت ضغط الأوساط الصهيونية وأنصارها في نيويورك – مع العلم أنّ هؤلاء لا يمثلون غير فئة صغيرة من الشعب الأميركي – وعاماً بعد عام أخذت الحكومة الأميركية تقدّم إلى إسرائيل عونها العسكري والمالي

غير المشروط. لقد منحتها كمية كبيرة من الدبابات والطائرات ولم تكفّ عن قصف مدننا بالقنابل وقتل إخوتنا. فكيف أنّ أميركا لم تدرك أنّها بتصرّفها هذا تدوس صداقتنا بالأقدام وتضحّي عن سابق إصرار وترصّد بمصالحها الكبيرة التي تملكها في بلادنا، بينما هي لا تملك شيئاً منها عند الإسرائيليين؟)

(كان من الطبيعي أنّ بعض قادتنا الذين حافظوا حتى ذلك الوقت على محازبتهم للأميركيين، أن يلتفتوا بأنظارهم نحو روسيا، على أمل أنّ هذه البلاد ستساعدنا على الخروج من مصاعبنا).

(كان هذا خطأً فادحاً: سياسياً لأنّ روسيا ليست من القوّة كما نظنّ. فأميركا أقوى كثيراً منها. وأدبياً لأنّ الاتحاد السوفياتي ينادي بشيوعية ملحدة، غير مقبولة عندنا نحن المؤمنين).

(هكذا بقيت الولايات المتحدة صديقنا الوحيد، وحامينا المحتمل الوحيد. إنّ السعي إلى مساندة الشيوعيين، هو كالقفز من بيت يحترق إلى شواظٍ من اللهب. لكن يجب أن تدرك أميركا بأنّها في الطريق الخاطئ حين لا تكترث بصداقتنا وتحالف إسرائيل. إنّ علينا أن نفهمها هذه الحقيقة).

(من أجل ذلك قرّرت أن أطبّق السياسة التالية: عندما منح أبي ثقته للأميركيين وطلب منّي أن أتابع الطريق نفسه، فعلت ذلك طواعية وبكامل إرادتي لأنّني كنت أشاركه في قناعاته وأقدّر أن هذا الأسلوب في العمل هو الأسلوب الأمثل والأحكم).

(لقد قلت لكم في البداية: أراد أبي أن يكون كفيل الأمريكيين أمام العرب. أما أنا فأريد أن أكون ناطقاً بلسان العرب أمام الأميركيين. أقصد بذلك، الرجل الذي يقنعهم بشرعية قضيتنا، والذي يريهم أنّهم يخطئون حين ينفصلون عنا ويحالفون أعداءنا، الرجل الذي يستدرجهم لتبنّي رؤية أكثر واقعية لمصالحهم الحيوية. هذه خير طريقة عندي لمتابعة العمل الذي بدأه والدي. إنّني أعتمد عليكم لمساعدتي في تحقيق هذه المهمة.

(وللتوصّل إلى ذلك، يجب أن نحتفظ بخطة الملاطفة نحوهم، ألّا نفعل شيئاً يجرح كبرياءهم أو يسيء إلى مصالحهم. وسأسهر شخصياً على ذلك. يجب أن يفهموا أنّنا محافظون على صداقتهم وأن لا شيء يمنعهم من أن يكونوا لنا أصدقاء).

(وفي الوقت نفسه يجب أن نكون متصلّبين في كلّ ما يتعلّق بإسرائيل، باستنادنا إلى قراري الأمم المتحدة 242، 338. يجب أن ندافع عن الفلسطينيين بكلّ ما نحن جديرون به من الحيوية والنشاط، لأنّ الدفاع عن الفلسطينيين هو صخرة العروبة، لا عروبة الماركسية والإلحاد، بل العروبة الإسلامية كما

استوعبها نبيّنا وكما أفهمها شخصياً. أنا لا أسعى إلى السيطرة على مجموع العالم العربي. بل أريد أن أوحّده، وأن ألهمه الخير، وأقوده في الطريق الصالح اقتداء بوالدي. من أجل ذلك خلقني الله. وهي الرسالة التي حمَّلَنِيها. والدليل على ذلك أنّه وضع بين يدي العناصر الضرورية لإنجاز هذه المهمة. لقد أصبحت الجزيرة العربية قوة كبيرة. كانت من قبل ضعيفة، مفكّكة، عاجزة. أما اليوم فهي ذات وزن ثقيل في شؤون العالم. سأضع النفط في خدمة العروبة، والعروبة في خدمة الله.

(ربما كان في وسع العالم العربي أن يتّخذ طريقاً آخر من بعد. لقد صلّيت، وتفكّرت، وضرعت إلى الله أن ينير طريقي. إنّني لا أرى شيئاً آخر في النقطة التي نحن فيها.

(والآن إلى العمل: إنّنا سنحدّد السياسة العربية لخمس وعشرين سنة قادمة).

إلى البيت الأبيض في أثناء هذا الوقت

من المفيد أن نلقي نظرة سريعة على الأحداث الجارية في الجانب الآخر من الأطلنتيكي في مقابل وصفنا لما يجري في الشرق. في بداية عام 1969 خلف ريتشارد نيكسون لندون ب. جونسون على رئاسة الولايات المتحدة. فلم يلبث المسؤولون الأميركيون أن لفتوا انتباهه إلى حقيقة رئيسية: نضوب الاحتياطيات النفطية الوطنية، ولهاث الإنتاج والتخلّف في القدرة الأميركية على التصفية، هذه كلّها ستجعل من الولايات المتحدة مرتبطة بموارد التموين الأجنبية. وفي تقدير الخبراء أنّ استيراد النفط الذي بلغ 97 مليون طن عام 1960 (20.5 في المائة من حاجاتها) سترفع إلى 198.7 مليون طن عام 1971 (26 في المائة من حاجاتها أيضاً). وفي عام 1980 ستبلغ نسبة الاستيراد أكثر من نصف الحاجات الوطنية للاستهلاك. وأيضاً فقد رفع الخبراء صوت الإنذار. إنّ هذا التزايد في العجز النفطي عند الولايات المتحدة سيكون من آثاره امتصاص (الكفاءة الإضافية في الإنتاج) وهي الكفاءة التي كانت تحتفظ بها الولايات المتحدة كاحتياطي لمواجهة المواقف المتأزّمة [1]. (هذا الاحتياط هو الذي سمح للولايات المتحدة أن تنقذ أوروبا غداة الحرب الإسرائيلية العربية عام 1967) وهنا، في أكتوبر (تشرين الأول) 1970، أعلن و.ل. ليرد المسؤول عن النفط والغاز في وزارة الداخلية الأميركية أنّ الكفاءة الإنتاجية في الاحتياط ستختفي في نهاية عام 1971 وربما قبل ذلك.

1 . انظر: نقولا سركيس، النفط في الزمن العربي، ص 58.

والتقديرات بالنسبة للغاز هي أكثر تشاؤماً. ففي رأيها أنّ الطلب الأميركي عليه سينتقل من 645 مليار متر مكعّب عام 1971 إلى 1100 مليار من الأمتار المكعّبة عام 1985. في ذلك التاريخ لن يتجاوز الإنتاج الوطني للغاز 610 مليار من الأمتار المكعبة، وهذا سيمثّل عجزاً هائلاً يبلغ 490 مليار متر مكعّب. وهناك دراسة وضعتها لجنة الطاقة الاقتصادية ونشرت عام 1971 تؤكّد أنّ الأمل ضعيف في تحسين الموقف قبل عام 1990.

أمام هذا الموقف المتّصف بعجز متزايد سريع في ميزان الطاقة، وجدت الحكومة الأميركية نفسها أمام البديل التالي:

أ- اتباع نفس السياسة التي تتّبعها البلدان الصناعية المستوردة للنفط (أوروبا واليابان) بالعمل على التموّن منه بأقلّ سعر ممكن، أي اتخاذ سياسة السعر المنخفض للنفط والغاز المستوردين.

مثل هذا الحلّ يمثّل، في المدى القصير، امتيازات اقتصادية أكيدة. لكنّه في الوقت نفسه يمثّل ثغرة خطيرة: إنّها تجعل أميركا القوية في أثناء ذلك، ضعيفة في قطاع حيوي واستراتيجي الذي هو قطاع الطاقة.

ب- اتخاذ الوسائل الضرورية لإنماء عمليات التنقيب النفطي فوق التراب الأميركي، والبحث عن موارد أخرى للطاقة بحيث تخفّف من تبعيّة الولايات المتحدة نحو الأجنبي.

مثل هذا الحلّ يفترض، عكس الحلّ الأول، الزيادة في أسعار النفط والغاز، بحيث تسمح للشركات الأميركية بتضخيم أرباحها، لدفعها إلى تكثيف أنشطتها في التنقيب والإنتاج في الولايات المتحدة، وجعل استغلال الموارد الوطنية الأخرى للطاقة مجزياً من الناحية التجارية. وهذا بتعبير آخر، يعني إعطاء الأولوية لعامل الأمن على عامل الاستيراد بأقلّ سعر ممكن [1].

تردّدت الإدارة الأميركية بين هذين الحلّين، وأخيراً قرّرت أن تتبنّى الحلّ الأول. فكلّفت لجنة تقنية لدراسة صيغ التطبيق، ثم أوصت بما يلي:

1- إلغاء نظام الحصص وإبداله برسوم انتقائية على الاستيراد.

2- تخفيض أسعار النفط الأميركي فوراً بمبلغ 30 سنتيم للبرميل الواحد و80 سنتيم بعد ثلاث سنوات مع تخفيض أسعار النفط المستورد.

---

1 . نقولا سركيس، المصدر نفسه، ص 60.

وفجأة رفض نيكسون هاتين التوصيتين. فقد أمر زعيم البيت الأبيض بتوجيهٍ من السيد أكنيز، مدير مكتب الوقود والطاقة في وزارة الخارجية ومستشار الرئيس، بتأليف لجنة جديدة، تحت رئاسة الجنرال ج.أ. لنكولن، مدير مكتب الوقاية من الأزمات، وتكليفها (بإعادة درس السياسة الأميركية للطاقة).

وقد اتخذت اللجنة الثانية، فيما انتهت إليه، موقفاً متعارضاً تماماً مع توصيتي اللجنة الأولى. (لقد شدّد على الضرورة في رفع أسعار النفط المستورد لموازنة الأسعار الداخلية في مستوى مرتفع وتشجيع الاستثمارات الضرورية لتنمية الموارد الوطنية للطاقة). فارتفاع الأسعار يتّجه أكثر فأكثر باتجاه المصالح الأميركية كما أشرنا إلى ذلك من قبل – بحيث يكون على المستهلكين الأوروبيين واليابانيين أن يدفعوا القسم الأكبر من المال لثمن الطاقة المتزايد، ممّا يجعل صناعاتهم أقلّ قدرة على المنافسة بالنسبة للصناعة الأميركية.

وفي 18 أبريل (نيسان) 1973 وجّه الرئيس نيكسون إلى الأمّة الأميركية رسالة حول الطاقة عرض فيها الطريق الجديدة التي يعزم على اتّباعها. وفي 28 يونيو(حزيران) من العام نفسه شرح السيد وليام سيمون، وكيل وزارة الخزانة الأميركية، رسالة الرئيس بطريقة مطوّلة. صرّح قائلاً: (لقد وضعت الولايات المتحدة لنفسها، كهدف أول، خطة عمل يجب أن تطبّق في المستقبل لتحرّر أميركا من تبعيّتها نحو الموارد الأجنبية للطاقة). (هذا يعني أنّ الولايات المتحدة قد اختارت ورقة الأمن في المدى الطويل وآثرتها على الامتيازات الاقتصادية المباشرة). لكن هذا الاستقلال الذاتي لا يمكن اكتسابه والفوز به إلا بعد عشرة أعوام. ويضيف السيد سيمون قائلاً: من هنا وحتى ذلك الوقت ستتابع الولايات المتحدة سياستها في تنويع موارد التموين، معتمدة بادئ الأمر على العربية السعودية التي تملك أهمّ الاحتياطات المؤكّدة من النفط في العالم كلّه [1]. ومن هنا يجب أن نراعي جانبها إلى أبعد الحدود...

من هو الجنرال لنكولن الذي كتب تقرير مكتب الاستعداد للطوارئ؟ إنّه واحد من الرجال الذين يقومون بدور الاتصال بين البيت الأبيض وفيصل. ومن هو جيمس أكينز الذي أحدث التحوّل في موقف نيكسون؟ إنّه خبير ذكي وديناميكي، مدرك لمصالح بلاده وضرورة أن تكيّف أميركا سياستها

1 . راجع جدول نسب نمو الشهري في نهاية الكتاب.

لوقائع العالم العربي الذي هو في صميم تطوّره. وعلى ذلك لم يكن مصادفة أنّ نيكسون قد عيّنه سفيراً للولايات المتحدة لدى الملك فيصل.

هذا هو السياق الذي استعدّ كيسنجر ليمارس مفاوضاته في ضوئه. وفيصل في حاجة إلى نجاح هذه المفاوضات ليؤمّن انتصاره، بينما السادات في حاجة إليه حتى لا يسقط، وكيسنجر في حاجة إلى هذا النجاح ليضمن للولايات المتّحدة المهلة التي تحتاج إليها لإعادة بناء استقلالها الذاتي في ميدان الطاقة وتأسيس شهرته كمفاوض محنّك بصورة نهائية. إنّ التلاقي للحتميّات الثلاث هو الذي يجعله على مثل هذا التفاؤل، ويدفعه إلى التفكير في أنّ الجميع سينضمّون إلى مبدأ السلام الأمريكي.

وهنا لا نحتاج إلى القول بأنّ مصالح إسرائيل تنتقل قليلاً إلى الدرجة الثانية، في هذه الشبكة المعقّدة والمربكة من التدابير الكوكبية.

نيكسون يتوجّه إلى القاهرة بدعوة من السادات

ترك التعليق المؤقت لمؤتمر جنيف وراءه بعض الاضطراب في العقول. وسدّاً للفجوة الناشئة، وخوفاً من أن يتيح للأشياء وقتاً تتحجّر فيه – وهو الأمين دائماً على المبدأ الذي يقرّر بأنّ أخطر الأزمات لا يمكن أن تحلّ إلا وهي ساخنة – فقد حمل كيسنجر عصاه. لقد توجّه إلى القاهرة ليتدارس مع السادات الصيغ الخاصة بفكّ ارتباط إسرائيلي جديد.

هناك فرق أميركية، وفرنسية، وإيطالية وروسية منهمكة في إصلاح القناة وإعادتها إلى وضعها الطبيعي. الأعمال الخاصة برفع الألغام وجرف القيعان، وترميم الضفاف، تتقدّم بخطوات واسعة. لكنّ الممرّ المائي ما يزال داخل مدى المدافع الإسرائيلية.

أوَليس أنّ قناة مطهّرة أخطر من قناة مسدودة! على أنّ القوات الإسرائيلية قادرة في كلّ وقت على استئناف غاراتها وتوجيه قذائف المدفعية عندها. والشريط الممتد على عمق عشرة كيلومترات الذي استردّه المصريون عند الضفة الشرقية من القناة ليس من السعة بحيث يبعد مصادر هذا التهديد. وأيضاً فإنّ

السادات يرفض أن يعيد القناة إلى الخدمة ما دام أنّ الإسرائيليين لم يقوموا بانسحاب جديد: بأن يتراجعوا حتى ممرّي جدي ومتلا، وأن يعيدوا إلى مصر القطاع الصغير من سيناء حيث توجد حقول أبورديس النفطية. وأخيراً طالب السادات بأن يرافق التراجع في سيناء فكّ اشتباك آخر في الجولان، لأنّه لا يريد أن يلغي تضامنه مع دمشق، فهو يعلم أنّ الرأي العام لن يغفر ذلك له وأنّه سيفسر هذه الحركة على أنّها خيانة للتضامن العربي.

كشّر كيسنجر عن أسنانه، أوَليس أنّ شخصيات إسرائيلية هامة، ولا سيما الجنرال دايان، قد أعلنوا منذ قليل بأنّ "شرم الشيخ، والقدس، والجولان، ليست موضعاً للمفاوضة، وأنّهم يفضلون العودة إلى الحرب على التسليم في هذه النقاط". كما تنبّأ بأنّهم سيطالبون بضمانات للحفاظ على حدودهم قبل أن يقوموا بخطوة إلى الوراء. إنّهم يقولون: "قطعة من السلام" مقابل "قطعة من الأرض".

- ويجيب السادات قائلاً: أنّه لن يكون سلام أبداً ما دام أنّ الأراضي التي احتلت عام 1967 لم تستردّ بكاملها".
- يقول كيسنجر "ألا نستطيع التغلّب على هذه الصعوبة بإبدال كلمة "سلام" بإعلان عن حالة اللاحرب؟".

واستقام السادات في جلسته. لكنّه سيطر على نفسه. ثمّ أجاب وزير الخارجية الأميركي بابتسامة واضحة:

- كيف تريدني أن أتعهّد بعدم اللجوء إلى السلاح لاستعادة أراضٍ هي ملكٌ لبلادي؟ إنّ هذا، بكلّ بساطة، يعني التنازل عن هذه الأرض... ".

هل ستتعثّر المفاوضات؟ تدخّل فيصل بعد أن أحيط علماً بالموقف، ففي رأيه أنّ المفاوضات يجب ألّا تتوقّف بأيّ ثمن، وأفهَم السادات أنّ أيّ انقطاع في وساطة كيسنجر سيعني عودة إلى جنيف. هذا الاحتمال لا يسرّ السادات أبداً، لأنّ المناقشات في جنيف ستجري بحضور الروس، الذين قد يجدون مصلحة في خلط الأوراق وتضييعها. ثمّ لا يكون بعد ذلك غير المجهول. أو ستكون الحرب، الحرب المعروفة جداً... ليبذل السادات المستحيل للحفاظ على سلامة المفاوضات. ولئن لم تكن هناك إشارة إلى حالة اللاحرب، فليقم على الأقل بحركة تسرّ الأميركيين...

والجدير بالذكر أنّ السادات في أمسّ الحاجة لنجاح كيسنجر حتى لا يفهم المعنى ناقصاً مبتوراً. إنّ فشل "سياسة الخطوات القصيرة" ستعني "انهيار الرهان الأميركي" وانهيار الرهان الأميركي يعرّضه لخطر السقوط. وهنا اقترح على " أخيه كيسنجر" إعادة العلاقات الدبلوماسية بين القاهرة وواشنطن والتي قطعت منذ عام 1967. والواقع أنّ كيسنجر هو من الذكاء بحيث لا تخطئه العصا الممدودة إليه. إنّ عودة العلاقات الدبلوماسية وحضور سفير الولايات المتحدة في القاهرة سيدعم النفوذ الأميركي في الشرق. وسيكون بالإضافة إلى ذلك، نجاحاً جديداً يسجّل في لائحة الشرف عنده. وهنا لم يقبل اقتراح السادات وحسب، بل ألمح إلى أنّ زيارة يقوم بها الرئيس نيكسون للقاهرة هي موضع ترحيب شديد. إنّها ستسمح بتوفير مزيد من البهاء والفخامة لكلّ المكاسب اللاحقة، فصفّق السادات لهذا الاقتراح ووافق عليه.

هكذا طار إسماعيل فهمي، الوزير المصري للشؤون الخارجية، إلى واشنطن لتذليل بعض الصعوبات ووضع اللمسات الأخيرة على مسائل البروتوكول. وتمّت الخطوة بنجاح. وتقرّر أن يزور نيكسون مدينة القاهرة في النصف الثاني من شهر يونيو(حزيران).

في 18 يونيو(حزيران) 1974، هبطت الطائرة التي تحمل ريتشارد نيكسون وأعضاء الوفد المرافق له، في مطار هليوبوليس. لكنّ الواقع أنّه لم تكن هناك طائرة واحدة معزولة: بل سرب جوّي حقيقي، ذلك أنّ نيكسون قد اصطحب معه حاشية مؤلّفة من ثمانمئة شخص – سكرتيرين – صحفيين – تقنيين في ميدان الراديو، وعملاء مكتب المخابرات الأميركي وجنوداً من البحارة قصد بهم إعطاء مزيد من البهاء والفخامة لمشاهد الاحتفالات، ولا سيما لتأمين سلامته الشخصية.

السادات وأعضاء الحكومة المصرية ينتظرون الزائر الكبير. هذا والسماء قد غطّيت بضباب رقيق. (إنه ضباب الحرارة) وقد زيّن كلّ المطار بالألوان المصرية والأميركية. وظهر نيكسون في أعلى سلّم الطائرة ومدّ ذراعيه. وافترّت شفتاه عن ابتسامة عريضة. فقدّمت له التحية مفرزة من الجند. ثم عزف رجال الموسيقى لحن النشيد الوطني الأميركي ولحن (الله أكبر). وقدّمت إليه فتاة صغيرة باقة من الورد. وكان عناق وخطب ترحيب، وبساط أحمر، كلّ شيء في مكانه.

لكنّ هليوبوليس على بعد عشرة كيلومترات من القاهرة. فما عسى يكون استقبال العاصمة؟

لقد فعلت الحكومة كلّ شيء لتجعل الزيارة ناجحة. لقد بدأت بتعبئة الجماهير، وضاعفت عدد الأعلام، ثم صبغت آلافاً من اليافطات كتبت عليها عبارة: أهلاً بالسيد نيكسون. ومع ذلك فإنّ أحداً لا يدري ما سيكون عليه الوضع أبداً! إنّ الجمهور القاهري حُوّلٌ متقلّب الأطوار! كان عشية أول أمس يبدي استياءه.

وبالرغم من عشرات الاعتقالات التي جرت بين العمال في حلوان وفي الأوساط الطلابية، فقد كان ما يزال تهزّه السخرية اللاذعة وموجات التذمّر الشديد... ومهما تصنع الشرطة فإنّ عملية الاغتيال يمكن أن تقترف بسرعة بالغة...

نعم، إنّ الجمهور القاهري حُوّلٌ متقلّب الأطوار. لكنّه في الوقت نفسه شديد الحساسية. إنّه يحسّ ببشرته، إنّه يقول لنفسه: هذا اليوم ليس كغيره من الأيام، لقد حزر أهمية الجولة التي يجري فيها اللعب. ولذلك لم يلبث حتى خرج إلى الشوارع ليرى الضيف القادم ويهتف له حينما أعلنت مكبّرات الصوت اقتراب الموكب الرسمي من المدينة. والواقع أنّه لم يكن في حماسته شيء من العفوية. إنّها ليست الجماهير الصارخة التي تضرع إلى عبد الناصر أن يبقى في الحكم. ولا تلك التي أنهكها الألم وهي ترافق إلى المقبرة جثة الريّس الميتة. إنّ في ردود فعله شيئاً من المسرح، أو لنقل، ولنكون أكثر دقة في التعبير، أنّ هذا الجمهور قد فهم الدور الذي طلب إليه قادته أن يلعبه، فقبل أن يلعبه.

وعندما وصل الموكب إلى وسط المدينة، تجمّع جمهور كبير جداً على جانبي شارع الملكة. لقد أصبحت ساحة الميدان مسودّة من الناس. محيط من الأعلام يتموّج تحت شمس ساطعة. الجمهور يصرخ، يدوي، يضرب الأرض بالأقدام. وفجأة يلتهب، وقد أسكره هذيانه.

وهنا لم يعد ما يجري مشهداً مسرحياً. إنّ حماسته حماسة حقيقية. فأين الزمن الذي كان فيه عبد الناصر يصرخ قائلاً: "أبداً لن أثق بكلام رئيس للولايات المتحدة؟" بل أين الزمن الذي كانت فيه حاملة الطائرات الأميركية "انتربيد" تمر عبر قناة السويس بكامل أجهزتها المشرّعة والمستعدّة لضرب القاهرة؟ لقد نسيت كلّ

هذه الذكريات وكنست، تماماً كما نسي الجسر الجوي – وهو غير بعيد – الذي كان يحمل أطنان الأسلحة إلى إسرائيل؟

وبعد هذا كلّه، فقد يكون صحيحاً أنّ مجيء الرئيس نيكسون سيفتح عصراً جديداً من الازدهار، وأنّ أثمان السكر والفول ستنخفض، وأنّ العرب سيخرجون أخيراً من الطريق المسدود الرهيب الذي يدعى "لا حرب ولا سلام"! وبعد هذا كلّه، لماذا لا نهتف له؟ لماذا لا نمحو الماضي كلّه؟ فالشعب المصري الشجاع لا يعرف الحقد أبداً...

كان نيكسون مضيء الوجه وهو واقف في مقدّمة سيارته الكاديلاك الضخمة. وكذلك السادات. لقد ربح الجولة. لقد استفتى الشعب في سياسته المحازبة للأميركيين فأفتاه وبدأ صبره وتصلّبه يعطيان ثمارهما.

لم يحاول فيصل، في قصره من الرياض، أن يخفي رضاه. لقد تحوّلت مصر إلى جانب الغرب. وبدأ "رهانه الأميركي" يتجسّم.

الرئيس نيكسون ضيف على الملك فيصل

وصل الرئيس نيكسون إلى جدة في 14 يونيو(حزيران) 1974. وجرت المقابلة بين ملك الجزيرة العربية ورئيس الولايات المتحدة في جو مختلف عن ذاك الذي وضع ابن سعود تجاه الرئيس روزفلت في 14 فبراير (شباط) 1945. فمنذ ثلاثين عاماً، كان الرئيس روزفلت قد استقبل ملك الجزيرة العربية على ظهر كوينسي بتلك الكلمات الملفوظة بلهجة الحامي الكبير:

- "ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟".

وفي هذه المرة صرخ نيكسون قائلاً:

- "لم أجيء إلى العربية السعودية لأتكلّم فيها عن النفط كما هو شأن أكثر الناس، لقد جئت لأستفيد من حكمة الملك...".

وأيضاً فإنّ استقباله في جدّة مختلف جداً، عندما يقارن بالاستقبال الذي أعدّ له في القاهرة. فليس هنا في جدّة جمهور، ولا هتافات، ولا تظاهرات شعبية. إنّ رجال الصحراء أقلّ رغبة في التظاهرات من سكان النيل. إنّهم متكتّمون شرسون.

ورغم أنّهم يسكنون في بنايات مكيّفة، فهم لا يستطيعون أن ينسوا أنّهم قبل بضع سنوات كانوا يقيمون في الخيام.

كلّ شيء يمضي في صمت. لكنّ الاستقبال لم يكن أقل نبالة وفخامة. إنّ له سمته العسكرية تقريباً. لقد شوهد في العرض الكبير، دبابات وفرسان وأعلام خضراء وبيضاء. هناك الحرس الملكي الذي يقدّم التحية. وقد نقلت بزة التشريفات عنده عن بزة الطلاب الضباط في وست بوينت. سترات حمراء مع زخارف بيضاء على طريقة براندبورغ وجدائل ذهبية فوق الأكتاف. وقد يظنّ نيكسون أنّه عاد إلى الولايات المتحدة لو لم يكن أمامه هؤلاء الرجال بثيابهم البيضاء، وذلك الضياء والأمداء الفسيحة الواسعة..

ثم هناك فيصل، الرجل القوي الحزين، ذو النظرة المتأملة والوجه النحيل الضامر والرأس المهيمنة المسيطرة.

- ولم يسع أحد أعضاء حاشية الرئيس إلا أن يردّد: "إنّه ليقال أنّه مسيح ملياردير"
- وهمهم آخر "إنّهم يزعمون أنّه يربح في كلّ يوم مائة مليون دولار. فكم أتمنى أن أكون مكانه".

ومع ذلك فإنّ مكانه ليس موضعاً للحسد كما يبدو فيه. إنّه يتقدّم في الحياة، ممسكاً في كلّ واحدة من يديه شيئين مختلفين جداً.

في الأولى منهما، النفط والحلف الأميركي، وفي الثانية، بيوت الله الحرام والدفاع عن الوحدة العربية. شيئان هما من الاختلاف بحيث لا سبيل إلى التوفيق بينهما. ومع ذلك فقد أقسم على التوفيق بينهما. إنّه رهان حياته. الصلاة في بيت المقدس.

شيء غريب حقاً: أمّا الحلف الأميركي فهو يتحدّث عنه خاصة إلى العرب، وأمّا الدفاع عن العروبة فهو يتحدّث به خاصة إلى الأميركيين.

ومنذ اليوم التالي، ردّد فيصل أمام نيكسون، في خطاب ألقاه خلال مائدة رسمية، الأسباب التي تفرض عليه ألّا يفعل شيئاً غير الوقوف إلى جانب الفلسطينيين.

- صرّح قائلاً: "كان عرب فلسطين ضحايا عدوان لا سابقة له. إنّه لم يحدث أبداً، حتى في أشدّ عصور التاريخ ظلمة، أنّ شعباً بأكمله قد أخرج من دياره، ليحلّ محلّه غرباء. ولن يكون سلام دائم ما دام أنّ بيت المقدس لم يتحرّر، وما دام أنّ الأراضي العربية كلّها لم يتمّ الجلاء عنها، وما دام أنّ

الذين طُرِدوا من ديارهم لا يستطيعون العودة إلى ترابهم الوطني وممارسة حقّهم كاملاً في السيادة والاستقلال".

وعندما أجابه نيكسون بأنّه لا يملك صيغة سحرية لحلّ هذه المعضلة، وأنّ من الأوفق العمل فيها على مراحل "على خطوات" (كما قال كيسنجر) أردف فيصل بهذه الكلمات، التي هي في الوقت نفسه مدح وتحذير.

- "إنّه من المهم جداً أن يفهم أصدقاؤنا في الولايات المتحدة الموقف الرهيب الذي نجدنا فيه، أن يفهموا القرارات المأساوية التي يمكن أن نُدفَع إلى اتخاذها. إنّهم يجب أن يكونوا على قدر كافٍ من الحكمة ليجتمعوا حول شخصك، أيها السيد الرئيس، ليساندوك في جهودك. إنّ أيّ واحد يكون ضدّك، في الولايات المتحدة أو خارجها، ليس له غير غرض واحد في ذهنه: هو زرع الفوضى".

وبقي نيكسون صامتاً: إنّ فيصلاً يعلم أنّ نيسكون يواجه رهطاً ضارياً من الصحفيين الهائجين الثائرين، كما يواجه أكثرية الأعضاء في مجلس الشيوخ، وبعض من يحيطون به من الأعضاء، الذين يتّهمونه باتخاذ القرارات دون استشارة أحد، والعمل بغير رويّة، ومنح السلطة التنفيذية كثيراً من القوة.

- أجابه قائلاً: "لا تخف شيئاً، سأكافح حتى النهاية. فأنا غير مستعد للتراجع وإخلاء المكان".

إنّه سيكافح لأنّه تبيّن له أمر لم يدركه مواطنوه إدراكاً تاماً. فمن الآن حتى بضع سنوات قادمة ستصبح الولايات المتحدة، بعد أن تتغلّب على أزمتها الإقتصادية، من الغنى والقوة، بحيث تكون جديرة بقيادة العالم. كلّ عمل من أعماله يتّجه نحو هذا الغرض. لقد أخرج أميركا من مأزق فيتنام. وطوّر حالة الانفراج مع موسكو، ووفّق بين بلاده وصين ماو. فلماذا لا يوفّق بين هذه البلاد مع العالم العربي؟ وفي هذه الحالة يشيع السلام الأميركي في كلّ مكان.

لكنّه في حاجة إلى قوّة تسمو على قوة البشر ليقاوم يوماً بعد يوم الهجوم المنظّم بذكاء ضدّه. إنّ خصومه عازمون على هزيمته بطريقة الاستنزاف.

وبعد ثلاثة أشهر، وقع المحذور. لقد انهارت أعصاب ريتشارد نيكسون وتمّ إخراجه من المسرح السياسي، فريسة لما يسمى "فضيحة ووترغيت" وجاءت طائرة تحمله إلى كاليفورنيا، فوجّه إلى أصدقائه الذين جاؤوا لتعزيته تحية بيديه الاثنتين تقول لهم: "إلى اللقاء" وقد بدا محطّماً يائساً، قد فتكت بوجهه الهموم.

لكنّ هذه الحركة التي تذكّر بحركة منتج في السينما أوقف تصوير فيلم بصورة مفاجئة تعني في الحقيقة: " كل شيء قد انتهى بالنسبة إليّ". (10 أغسطس "آب" 1974).

جيرالد فورد يخلف نيكسون

لم يكد نيكسون يذهب حتى دخل جيرالد فورد – الرجل الذي رفعه إلى نيابة الرئاسة – إلى وظائفه. فمنذ 11 أغسطس (آب)، بعد أن أدّى القسم على التوراة باحترام الدستور، أقام في القاعة البيضاوية التي غادرها الرئيس السابق قبل قليل. كان همّه الأول أن يعرف الناس "بأنّ سياسة الولايات المتحدة لن تخضع لأيّ تغيير". وبقي أكثر الوزراء في مراكزهم. واستمرّ كيسنجر على رأس وزارة الخارجية. وبعد بضعة أسابيع رفع جيرالد فورد نيلسون روكفلر إلى نيابة الرئاسة التي خلت بترفيعه إلى مقام الرئاسة.

أكّد الرئيس الجديد قائلاً: "لا شيء سيتغيّر". لكنّ نيكسون وفورد رجلان مختلفان جداً بحيث لا يمكن أن يبقى نشاطهما السياسي هو نفسه.

فإذا كان فورد أكثر رقابة خلقية على نفسه من الرئيس السابق - كان نيكسون يعمل غالباً كما لو أنّ كلّ شيء مسموح به – فإنّه، أي فورد، لا يملك التجربة نفسها، ولا الرؤية الواسعة ذاتها.

إنّه أميركي متوسّط بكلّ معنى الكلمة، أي هو رجل طيب، له سمت رياضي لكنّه ذو أفق محدود. إنّه لا تنقصه التجربة فقط، بل تنقصه السلطة أيضاً. لكنّ هذا ليس خطأه كلّه: إنّه يعود إلى المركز الضعيف الذي وضعته فيه آثار ووترغيت رغم أنفه.

مثّل إخراج نيكسون من الحكم انتصاراً كبيراً لمجلس الشيوخ. فعزم هذا المجلس على إبقاء فورد تحت وصايته، ومراقبة كلّ أعماله، ومنعه من أن يعطي السلطة التنفيذية نفوذاً كبيراً بالنسبة للسلطة التشريعية. وعلى ذلك فإنّه سيكون أقلّ حرية في العمل من سابقه، وعليه أن يحسب للشيوخ والممثلين حسابهم. هذه التبعية ستجعل منه رجلاً أكثر تردّداً وأشدّ تحفّظاً.

كما أنّ عليه أن يعير انتباهه الكبير لتموّجات الرأي العام. إنّ نيكسون الذي كان في رئاسته الثانية – ولم يكن في وسعه الفوز بالثالثة ما دام أنّ الدستور الأميركي يحرّم ذلك [1]–لقد حقّق لنفسه أقصى حرية

1 . اتخذت هذه القاعدة منذ وفاة فرنكلين روزفلت.

يمكن أن يطمح إليها رئيس للولايات المتحدة. كان يخضع أقلّ من سواه لضغط الهيئة الانتخابية، وكذلك لجماعات الضغط التي تحيط برجل السلطة، فعل ذلك لأنّه لن يكون في حاجة إلى أصواتهم الانتخابية. هذه الحالة لم تكن تمضي دون أن تقلق جماعة الضغط اليهودي، التي ترى نيكسون يسير في طريق خطر، ستنتهي به إلى منح أصحاب البلاد العربية – حفاظاً على رضاهم – امتيازات تتمّ على حساب إسرائيل. (أوَليس أنّ القادة الإسرائيليين يعتبرون الملك فيصل "عدوّهم الأشدّ خطراً"؟) لذلك لم يلبثوا حتى اتخذوا، بعد رحلته إلى القاهرة وجدّة، قراراً بوضعه خارج السلطة.

لم يعد الوضع هو نفسه مع الرئيس فورد. لقد قدّم إليهم هذا الأخير عدداً من الضمانات لم يكن الرئيس السابق قد قدّمها لهم.

فهو أولاً، بطبيعة مركزه: لم يسبق له أن انتخب، فسلطته المؤقّتة العابرة – تنتهي بعد سنتين. ولا شكّ أنّه لا يطمح إلى أن يصبح رئيساً بفوز كامل. من أجل ذلك يجب أن يلجأ إلى انتخاب عام. وفي هذه الأثناء سيكون حريصاً على ألّا يفقد عطفهم.

وهو ثانياً، بطبيعة عقيدته الشخصية: صهيوني ملتزم. وتصريحاته التي يعرب بها عن عطفه على إسرائيل كثيرة جداً. وأكثر من هذا: هو رئيس الحكومة الوحيد الذي يقول بأنّ القدس عاصمة الدول الجديدة الموحّدة. (كلّ البلدان الأخرى مستمرّة في اعتبار تل أبيب عاصمة لإسرائيل، حتى لا تنتهك حرمة القرارات المتخذة من قبل الأمم المتحدة). وطبيعي أنّه الآن لن ينقض كلامه!.

القدس! هذه الكلمات وحدها كافية لاستنفار فيصل. لقد تبيّن له بقوة حدسه العادي (دون الكلام عن شبكات المخبرين الكثيرة التي يملكها) وبسرعة بالغة أنّ تغيّراً حدث في جوّ البيت الأبيض. صحيح أنّ هذا التغيّر ما يزال خفياً. لكن من الذي يضمن ألّا يتّسع هذا الشرخ في المستقبل!

ولكي يتجنّب كلّ سوء تفاهم، اعتقد فيصل أنّ المبادرة مفيدة. فحرص في 16 أغسطس (آب) على تنبيه جيرالد فورد إلى أنّه "إذا لم تغيّر الولايات المتحدة سياستها تجاه إسرائيل فستكون الجزيرة العربية مرغمة على تعديل سياستها". ولما لم يتلقّ جواباً، بعد عشرة أيام، أعلن وزير النفط السعودي موافقته على مشروع بتخفيض حجم النفط المستخرج بنسبة تتراوح بين 10 و20 في المائة. (فإذا طبّق هذا الإجراء، كان مصدر إزعاج للولايات المتحدة أكثر من أيّ رفع جديد للأسعار) وفي 29 أغسطس (آب)، عُلِمَ أنّ فيصلاً قد

عمد إلى سحب متدرّج لاحتياطي الذهب الذي أودعه في الولايات المتحدة، وأنّ الشيخ يماني يستعدّ لتأميم شركة الأرامكو، بحيث يشرف على نسبة 100 في المائة من نشاط هذه الشركة.
(حتى ذلك الوقت لا تملك السعودية غير 57 في المائة). فهل يجب أن نرى في ذلك علامات تمهيدية على "المراجعة الممزّقة" التي تحدّثنا عنها من قبل؟

كلّ شيء يدفعنا إلى تصديق ذلك. ففي 25 نوفمبر (تشرين الثاني) حدّد فيصل موقفه، في مقابلة منحت لمجلة نيوزويك قال:

- إنّ الانسحاب التامّ من كلّ الأراضي المحتلّة يجب أن يكون في المرحلة التالية في طريق تسوية للشرق الأدنى. إنّ الحلول الجزئية لم تعد ذات موضوع. إنّه يجب أن تحلّ المعضلة الآن بطريقة جذرية. نحن نريد أن نرى الإسرائيليين يغادرون الأراضي العربية منذ صباح الغد، لكنّنا لا نريد أن نحدّد توقيتاً محدّداً لذلك. وفي هذه الأثناء يجب ألا ننسى أنّ عاماً كاملاً قد مضى منذ نهاية حرب تشرين الأول، ومن منطق الأشياء أن نترقّب بداية هذا الانسحاب قبل نهاية هذا العام.

"يجب أن يدرك أصدقاؤنا أين توجد مصالحهم الاستراتيجية. كلّ شيء يتعلّق بهم. ونحن لا نريد أن نفعل ما يمكن أن يسيء إلى الولايات المتحدة. لكن لكي تبقى "علاقاتنا الجديدة الخاصة" صالحة فإنّ على الولايات المتحدة، من جانبها، أن تمتنع عن كلّ عمل يسيء إلى مصالحنا ومصالح العالم العربي. ولا شكّ أنّ الاحتلال المستمر للأراضي العربية – بما فيها القدس العربية – لا يسيء إلى العرب فقط، بل يسمّم الجو الدولي أيضاً".

ولما كان البيت الأبيض قد تظاهر بعدم إدراك المعنى في هذه التحذيرات، فقد اعتقد ملك الجزيرة العربية ضرورة استخدام لغة أكثر حزماً وإفهام أصحاب العلاقة بأنّ صبره يمكن أن ينفد:

- صرّح قائلاً: "لا أريد أن أخفي على الحكومة الأميركية أنّنا سنكون مرغمين على اللجوء من جديد إلى سلاح النفط، إذا لم تتبنّ سياسة أقلّ غموضاً تجاه المصالح العربية. يجب أن تعلم جيداً أنّنا سنعتبر سياستها بمثابة امتحان لها".

هذه الكلمات قاسية تحت اعتدالها الظاهري. فهل هي الصداقة العربية – الأميركية التي تبتعد في الأفق؟ إنّ في هذا التقدير شيئاً من التسرّع. إنّ ما يريده الملك في الحقيقة هو "إعادة النشاط والحيوية" في مهمّة هنري كيسنجر. وقد يدعو إلى الدهشة أن نسمع وزير الخارجية الأميركي يقول، في مقابلة مع المجلة الأميركية الأسبوعية "بيزنس ويك".

- "أريد القول بأنّ البلدان العربية تهدّد باللجوء إلى "سلاح النفط"، كما أنّ هناك من يؤكّد لي وجود حلّ لهذه المعضلة هو الحلّ العسكري. وهذا اختيار خطر. ومع ذلك فأنا لن أؤكد امتناعنا عن استخدام القوة في كلّ حال. نحن لن نستخدمها لخلاف بسيط حول سعر النفط، لكنّ الوضع يختلف إذا وجدنا أنفسنا أمام تصميم على خنق العالم الصناعي". 31 ديسمبر (كانون الأول) 1974.

هذا التهديد يزداد خطورة في ضوء أنّ مفهوم "الخنق" ذاتي محض. فأين يبدأ الاختناق؟ وما هي درجاته؟ وانطلاقاً من أيّ وقت يستطيع بلد من البلدان أن يعلن أنّه يشعر بالاختناق؟ ومن عساه يكون الحكم في هذا الموضوع؟ الجواب عن هذا كلّه مستحيل. فإذا كان موضوع الاختناق هو موضوع العالم الصناعي في كليته، فالحكم هو جيرالد فورد.

ولما كان نلسون روكفلر وهنري كيسنجر قد أفزعهما دوي هذا التصريح، فقد عملا على التخفيف من آثاره، 2 يناير (كانون الثاني) 1975 لكنّ الوقت كان قد فات: لقد انطلقت القنبلة.

الأفق يسودّ

كان الانفعال الذي أحدثه هذا التصريح من القوة بحيث أنّه انفجر في جوّ متوتّر أكثر فأكثر. لقد بدأ طيف الحرب يدور في كلّ مكان. هذا وكانت مجلة "انتر بريز" قد نشرت في عددها الصادر في 27 سبتمبر (أيلول) 1974 السطور التالية: "إنّ النفط هو التضخّم، إنّه انتقام المنتجين للخامات الأولية وخطر أزمة خطيرة في الغرب، وبالتالي احتمال مجابهة عالمية".

وكتب معلّق آخر في صحيفة لوموند: "لن يكون بعيداً ذلك الوقت الذي يتبيّن لنا فيه أنّ ترك النفط بين أيدي حفنة من الأمراء غير المسؤولين مما لا يتّفق مع الخلق الدولي. لقد آن الوقت الذي يجب أن يخرج فيه الغرب من حذره". وصرّح السيد لانس السكرتير العام لحلف الأطلسي في 12 يناير (كانون الثاني)

1975 لوكالة الأنباء يوبي: "أقول: إنّ أيّة أمّة تتعرّض لاختناق محتمل ستواجه فكرة الاستعانة بالقوة... قليلة هي البلدان التي قبلت في التاريخ أن تختنق دون أن تتّخذ إجراءات مضادّة. إنّ الناس الذين يرون رأياً محدّداً حول بعض المعضلات، لأنّهم لم يسبق لهم أبداً أن واجهوها من قبل، سيغيّرون رأيهم عندما يختنقون".

ومما يثير الفضول أنّ هذه الحملات موجّهة دائماً ضد البلدان العربية. فلماذا لم تتناول إيران أو فنزويلا، اللتين تشغلان مكانة مرموقة بارزة فيما يتعلّق بزيادة الأسعار؟

أجاب الشيخ يماني، وزير النفط في العربية السعودية: "لا تتكلّموا عن الاختناق فنحن لا نسعى، بل ولا نتمنى خنق إنسان من الناس. نحن نريد أن نحرّر أنفسنا من الاختناق الذي يثقل كاهلنا منذ نصف قرن من السنين من قِبَل الشركات النفطية!" لكنّ تصريحه لم يلبث حتى ضاع في غمرة الصخب العام. لقد أخذت الحملات تتّسع. حتى أنّ جيرالد فورد جاء يساندها.

- قال لمندوب من مجلة تايم جاء يعقد مقابلة معه: "إنّ احتمالات الحرب في الشرق الأدنى هي جدّية جداً. إنّ كلمة اختناق هي الكلمة "المفتاح". فلو قرأت جواب السيد كيسنجر (الذي ظهر في بيزنس ويك) لوجدت أنّه لم يقل يجب استعمال القوة لتغيير سعر (النفط المصدّر من الشرق الأدنى)، بل قال: "إنّ اللجوء إلى القوة غير مستبعد فيما إذا اختنق العالم الحر أو العالم الصناعي. إنّني أعود إلى تأكيد مساندتي لهذا الموقف".

13 يناير (كانون الثاني) 1975.

وفجأة، انطلقت الصحف تضع أجرأ الخطط الاستراتيجية في هذا الميدان. وأكّد بعضها أنّ البنتاجون قد انتهى من وضع خطط الهجوم. فأعلن "عسكري أميركي مجهول" أنّ هذه الخطط تتناول إعداد عناصر قتالية من الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جواً، في مساندتها للتحرّك الأساسي لأربعة عشر ألفاً من جنود المارينز. وستتمّ المفاجأة بفضل الحاملات الجوية الضخمة س – 5 وس – 141 القادمة من الولايات المتحدة، ترافقها طائرات التموين المنطلقة من قواعدها فوق حاملات الطائرات أو المطارات الإسرائيلية. ويفترض الكاتب أنّ الإسرائيليين سيضعون قواعدهم الجوية في خدمة القوات الغازية.

ثم ينجز جنود المارينز وكتائب فرسان الجو، المحمولون على طائرات عامودية، احتلال الحقول النفطية في العربية السعودية ويقومون بدورياتهم على امتداد حدود الكويت. هكذا يتمّ احتلال الآبار الرئيسية خلال أسبوع واحد.

أمّا فيما يتعلق بخطر التخريب! فيقول الكاتب: "سيكون في وسع الخبراء الأميركيين أن يصلحوا ما فسد من التجهيزات المدمّرة خلال شهر واحد أو شهرين.

ثم يضيف قائلاً: "وبعد عملية الغزو، يجب عند الضرورة، إبدال اليد العاملة المحلية، بعمال قادمين من تكساس أو من أوروبا، ومن الطبيعي أنّ المنطقة ستخضع لرقابة مكثفة في الليل والنهار، تؤمّنها طائرات عامودية، وقوات سريعة الحركة".

ويقرّر الكاتب أنّ الدول المنتجة الأخرى، ستبادر إلى قطع نفطها، بدافع التكامل والتضامن، لكنّ هذا لا يمنع من أنّها ستفضّل المفاوضة. فإذا لم يحدث ذلك، وجب إرسال كتائب أخرى للاستيلاء على حقول النفط في الكويت، وأبوظبي، ودبي، وقطر.

ويعترف الكاتب في الوقت نفسه بأنّ "معضلة استراتيجية" خطيرة ستفرض نفسها، لكنّه يرى أنّ حماية جوية واسعة (ست سرايا من طائرات الفانتوم المزوّدة جواً بالوقود) ستكون كافية لفرض إرادتها على الطيران السعودي. [1].

ومهما تكن هذه المعطيات، أكانت حقيقية أو ناشئة عن خطة دعاوية، فهي جزء من حملة تسميم نفسي. يتساءل فيليب لابرو في صحيفة يوم الأحد: مم تتألّف الأيام؟ إنّ الأيام مؤلّفة من كلمات، من كلمة، ملفوظة في كلّ لغة، تقرع الرؤوس بالقسوة نفسها.

"وانطلقت كلمة الحرب، على كلّ لسان، قصيرة، قاطعة، وباردة... وعادت هذه الكلمة الصغيرة في إصرار مدهش منذ بداية عام 1975. ولم يمض عشرون يوماً من هذا العام حتى أعطيت هذه الكلمة أبعادها. فإذا كنت متفائلاً قلت: "إنّ هذه طريقة لطرد روح الشيطان. وإذا كنت متشائماً فستوافق على

1 . راجع هاريرز أول مارس (آذار)، لوموند، 26 فبراير (شباط) 1975.

أنّ هذه هي طريقة للتعوّد على ذلك. وكلّما كثر الحديث عنها، ستكون على استعداد لمواجهتها حين تجيء إليكم [1]".

ولعلّنا في غير حاجة إلى القول بأنّ البلدان العربية قد تحرّكت بعنف ظاهر. وفي الكويت صرّح الشيخ صباح الأحمد لشيخ أميركي: "إنّ الكويت ترفض لغة التهديد وستعرف كيف تدافع عن نفسها ضدّ كلّ عدوان. إنّنا وان كنّا بلداً صغيراً، إلّا أنّ هذا لا يمنع من رفضنا لكلّ تهديد، حتى ولو كان صادراً عن الولايات المتحدة [2] ".

أمّا السيد أحمد خليفة السويدي، وزير الشؤون الخارجية لدولة الإمارات العربية المتحدة في الخليج فقد أكّد "أنّ بلاده ستفجّر آبارها النفطية فيما إذا وضعت التهديدات الأميركية موضع التنفيذ".

وصرّح ياسر عرفات قائلاً: "أنّ العرب لن يميّزوا بين أميركيين وأوروبيين، في حالة الحرب، إنّ الكارثة الاقتصادية التي سنحدثها ستمتدّ بقوة الأشياء إلى كلّ البلدان الغربية". أما الرئيس بومَدين فقد حذّر واشنطن من أخطار أيّ تدخّل عسكري وأكّد "إنّ وسائل قليلة جداً ستكون ضرورية لتدمير كلّ التجهيزات النفطية". وأضاف السيد عبد العزيز بوتفليقة، الوزير الجزائري للشؤون الخارجية "سنفرض حظراً شاملاً على النفط في حال الهجوم على واحد منّا".

هكذا كبر الانفعال وانتشر عبر العالم كلّه. فعبّر البابا بولس السادس: "عن مخاوفه التي يوحي بها نزاع جديد لا يلبث أن يصبح بسرعة حرباً ذرّية [3]". أمّا الحكومة الصينية فقد أذاعت بياناً يؤكّد "أنّ حرباً عالمية ليست مستبعدة" وأنّ على كلّ "البلدان أن تستعد، بانتظار مثل هذا النزاع [4]".

أمّا فيما يتعلّق بالأمير فهد، نائب رئيس مجلس الوزارة للعربية السعودية، فقد اقتصر على إجابة دبلوماسي جاء يسأله رأيه في كلّ هذه الأنباء بما يلي: "أنا لا أستطيع أن أصدّق بأنّ الولايات المتحدة أو الزعماء المسؤولين في أيّ بلد من البلدان، هم من الجنون بحيث يقدمون على تفجير حرب. إنّهم يعلمون جيداً أنّها ستكون بداية نهاية العالم".

---

1 . لوجورنال دوديمانش. 19 يناير (كانون الثاني) 1975
2 . لوموند، 14 يناير (كانون الثاني) 1975.
3 . أوبسفاتور رومانو، 12 يناير (كانون الثاني) 1975.
4 . أ.ف.ت بكين، 20 يناير (كانون الثاني) 1975.

الملك فيصل يزور دمشق وأسوان

الرئيس السادات يأتي إلى باريس

الثابت أنّ العلاقات بين الجزيرة العربية ومصر مرضية للملك تماماً. إنّ "محور الرياض – القاهرة" يتدعّم بصورة مطّردة، اطّراد التلاقي بين القناعات الشخصية عند الرئيس السادات وبين نظرات الملك فيصل. والجدير بالذكر أنّه ليس عند الريّس المصري الجديد ما يشكو منه: النتائج واقعية محسوسة. عمليات تطهير القناة تتقدّم، والمعارضة صامتة، بعض القادة المتمرّدين أعيدوا إلى الصواب، أمّا صلابة النظام فقد ازدادت قوة خلال الأشهر الأخيرة.

وفي مقابل ذلك، كانت العلاقات بين العربية السعودية وسوريا غير مرضية، وهي مسألة تشغل بال الملك، لأنّها تلقي ظلّاً على دوره كزعيم للعالم العربي.

بقيت سوريا، التي يسيطر عليها حزب البعث المعتدل، بعيداً عن متناول اليد، لقد كشف حافظ الأسد، الذي يحكمها، عن تشكّكه الشديد الدائم تجاه "سياسة الخطوات القصيرة".

ومما لا شك فيه أنّه قد أيّدها بعد الزيارة التي قام بها وزير الخارجية الأميركي لدمشق، في 15 ديسمبر (كانون الأول) 1973. بل أنّه خرج منها ببعض الامتيازات، حين حصل بفضلها على انسحاب القوات الإسرائيلية من القنيطرة. (وكان الإسرائيليون قد دمّروا المدينة تدميراً تاماً قبل أن يعيدوها إليه) لكنّ هذا الانسحاب يبدو له غير كاف أبداً. إنّه يحذر الأميركيين حذره من السادات، الذي يخاف أن يعقد (بموافقة فيصل) اتفاقاً منفرداً مع تل أبيب، ممّا يعتبره خيانة مزدوجة: نحو الأخوّة العربية ونحو الفلسطينيين.

وأخيراً، بقي حافظ الأسد على علاقات طيبة مع الروس الذين هم مموّنوه الوحيدون بالسلاح. (هذا وكانوا قد عوّضوه قبل قليل عن كلّ الأسلحة الحديثة التي فقدها الجيش السوري خلال معركة الجولان). إنّه غير مستعد أبداً لتعريض علاقاته الطيبة مع موسكو للخطر، مع العلم أنّه حاول، بين وقت وآخر، الاحتفاظ ببعض المسافة تجاه الكرملين، كما حاول تنويع علاقاته من الناحية الإقتصادية.

لكنّ سوريا هي شيء آخر أيضاً: إنّها مبدعة العروبة، بل هي البلد الأول الذي ورد في المادة الأولى من دستورها: "سوريا هي جزء من الأمّة العربية". هذا الطموح هو من العمق والقدم بحيث أنّه جزء من دمائها.

وفي رأي سوريا أنّ عبد الناصر لم يفعل شيئاً أكثر من أنّه أخذ فكرة كانت أول من وضع صياغتها. هذا مع العلم أنّ العربية السعودية قد اتخذت منها موقف الخصومة. ويبدو أنّ الملك سعوداً قد بلغ في فترة خلوّ عرشه – وهو أمر لم تتّضح حقيقته أبداً – درجة تقديم شك بمليون جنيه استرليني إلى الكولونيل عبد الحميد السراج، رئيس المكتب الثاني السوري، مقابل اغتياله لعبد الناصر خلال الاحتفالات التي أريد بها إعلان الوحدة "العابرة" بين سوريا ومصر فبراير (شباط) 1958. منذ ذلك الوقت احتفظت الرياض بموقف الحرد والاستياء بينما لم تفعل سوريا شيئاً لتحسين العلاقات.

واستمر الموقف على حاله دون تغيير طوال عهد سعود، لأنّ سوريا مرهفة الإحساس شديدة الاعتزاز والتشكّك. لقد تألّمت كثيراً في حرب 1967، فقد تغيّرت الأشياء قليلاً، دون أن يتحدّث أحد عن عملية تحوّل. لكنّ فيصلاً رجل عنيد. فإذا عيّن لنفسه هدفاً في جدول أعماله، فإنّه يندر ألّا يبلغه، حتى ولو كان في حاجة إلى فسحة من الوقت.

في 14 فبراير (شباط) 1974، اجتمع فيصل والسادات وحافظ الأسد في الجزائر بمبادرة من بومَدين. وكان دور رئيس الجمهورية الجزائرية حاسماً. فهناك خلافات سوّيت، وشكوك زالت. هذا اللقاء سجّل بداية لإزالة الصقيع في العلاقات السعودية السورية.

ثم جاء الوقت الذي قدّر فيه فيصل وجوب القيام بخطوة أخرى. فإذا كان كيسنجر قد وضع نظرية حلّ الأزمات وهي ساخنة، فإنّ فيصلاً يمارس فنّ قطف الثمار حين تكون ناضجة.

في 14 يناير (كانون الثاني) 1975 – وفي الفترة التي بلغ فيها هوس الحرب أقصى شدّته في الغرب – توجّه فيصل في زيارة إلى دمشق بدعوة من حافظ الأسد – وكان يرافقه أخوه الأمير فهد نائب رئيس مجلس الوزراء – والدكتور رشاد فرعون، أقدم مستشاريه – وهو من أصل سوري– وشقيق زوجته كمال أدهم. ولا حاجة للقول بأنّ الزيارة قد أعدّت بدقة وعناية. ومع ذلك، فإنّ من الصعوبة التنبّؤ بما سيكون عليه رد الفعل عند الجماهير.

لكنّ الواقع أن نفوذ فيصل ومهابته قد سبقاه. فعندما هبط من طائرته في دمشق، وسط غمامة من الحمام، استقبله جمهور من الناس بحماسة هاذية. كتب مارك لوغا يقول: "يجب أن نعود إلى عبد الناصر عام 1958 لنجد في دمشق استقبالاً يجاوز ذاك الذي أعدّ صباح يوم الثلاثاء لفيصل ملك الجزيرة العربية. إنّها ليست زيارة كغيرها من الزيارات: "إنّها بدع من الانتصارات المجيدة". عشرات الآلاف من الناس ازدحموا على جانبي الطريق الذي اجتازه الموكب ابتداء من المطار حتى قصر الضيافة، حيث سيقيم الملك الضيف. إنّ في وسعنا أن نقرأ على مئات من اليافطات عبارات تهتف للعربية السعودية والأخوّة العربية. أمّا الملك، فقد كان يجيب عن هذه الهتافات بذراعيه المرفوعتين، واقفاً في سيارة مرسيدس مكشوفة. وفي طريق الموكب راح الناس يغنّون، ويرقصون، ويذبحون الخراف. الفرحة الشعبية تنمو، تتفجّر، وتسيل طاغية في كلّ مكان. ويزداد عدد الناس بتعاقب الكيلومترات ويملأون الأرصفة. وقد بلغ من كثافة الجموع أنّها بطّأت تقدّم السيارات الرسمية. وقد كانت هذه الأخيرة مرغمة على فتح طريق لنفسها عبر هذه الجموع أو تحتاج أكثر من ساعة للوصول إلى وسط دمشق.

فإلام نعزو هذه الحماسة العامة؟ إلى شيء واحد، هو أنّ الشعب السوري يرى في فيصل المدافع عن الوحدة العربية، وبالتالي، بطل العروبة. ربما لم تكن هذه العروبة عروبة عبد الناصر: فهي أقلّ اشتراكية، وأكثر محافظة، وأكثر إشباعاً بالإسلام أيضاً.

وما شأن الناس بهذه الفروق؟ إنّ الفروق السياسية والإيديولوجية تُمحى أمام إرادة الوحدة. فإذا كان السوريون يهتفون لفيصل بمثل هذه الحماسة الشديدة، فلأنّهم يجدون فيه الرجل الذي يعيد فتح طريق الوحدة أمامهم، الرجل الذي يتيح لهم أن يعلنوا مرة أخرى، بأنّ سوريا جزء من الأمّة العربية.

لم تلبث المحادثات السياسية حتى بدأت بين السعوديين والسوريين. وقد مهّد الطريق إليها حكم الشعب، وكان ملك الجزيرة العربية قد حوّل إلى حافظ الأسد حصّته من الـ : 250 مليون دولار التي قرّرت البلدان العربية المنتجة للنفط أن تقدّمها لبلدان المجابهة العسكرية.

وقد حاول فيصل جهده أن يقنع الرئيس السوري بأنّ من مصلحته ألا يكون مرتبطاً بالاتحاد السوفياتي فيما يتعلّق بمؤونته من السلاح.

- قال له: "أوَلست هنا لمساعدتكم؟ وما دام أنّني أضع كلّ إمكاناتي تحت تصرّفكم، فتصرّفوا بها كما تشاؤون. إنّه ليس من مصلحة أحد أن يكون تحت رحمة مموّن واحد".

فاعترف الأسد بذلك وشكر الملك.

- لكنه أضاف قائلاً: "إنّ هذا التحوّل يشتمل على صعوبات جدّية. إنّه يعني إعادة كاملة لخطط التدريب في إطارات الجيش السوري، إذ يجب أن يتعوّدوا على استخدام العتاد الجديد. وهذا صعب جداً في وقت يطلب منهم فيه مواجهة هجوم إسرائيلي في كلّ وقت، وربما مواجهة حرب جديدة. على أنّنا نحاول أن نحرّر اقتصادنا. فاتخذنا بعض المبادرات لبداية سياسة انفتاح على العالم الغربي. وسنفعل مثل ذلك فيما يتعلّق بجيشنا، حين يكون هذا ممكناً.

وسأل الملك: "هل هناك شيء آخر أستطيع أن أفعله من أجلكم؟

- "نعم. أن تستخدم نفوذك لمنع الرئيس السادات من عقد أيّ اتفاق ثنائي حول فكّ الارتباط بين القوى في سيناء. إنّ مثل هذا الاتفاق يحطّم وحدة الجبهة العربية، ويشيع الفوضى في صفوفنا، ويقطع مصر عن حلفائها. فالسلام كلّ لا يجب أن يتجزّأ. اسهر على أن يكون كلّ انسحاب إسرائيلي جديد في سيناء مرتبطاً بانسحاب مماثل في الجولان والضفة الغربية.

وافق فيصل على هذا الطلب. لقد وعد الأسد باستخدام نفوذه لدى السادات لكي يمتنع عن عقد أيّ اتفاق فردي محض.

ولم تكد تنتهي محادثات دمشق حتى توجّه فيصل إلى أسوان، حيث يوجد الرئيس السادات، ليحيطه علماً بالرغبة السورية. لقد حاول إفهامه بأنّ من مصلحة البلدان العربية أن تتقدّم معاً نحو الهدف المرغوب فيه: إخلاء الأراضي المحتلة عام 1967.

أمّا السادات فقد احتجّ على اتهامه بالعمل على السير وحده، قائلاً: إنّ فكرة تحطيم وحدة دول المجابهة أبعد ما تكون عن ذهنه!

وهنا عرض فيصل على الرئيس السادات زيادة المساعدات التي يقدّمها إلى مصر [1] بحيث يسمح له بشراء ما ينقصه من السلاح من البلاد الغربية. (امتنع الروس عن تعويض العتاد السوفياتي المدمّر خلال حرب أكتوبر (تشرين الأول) ردّاً على طرد مستشاريهم من مصر).

وبعد ذلك بثلاثة أيام، طار أنور السادات إلى باريس في رحلة تستمر لثمان وأربعين ساعة، وقد تقرّر فيها أن يزور مؤسّسات تومسون، في بانيو، حيث يصنع العتاد الالكتروني وأجهزة الرادار، بين غداء في الإليزه واستقبال في ماريني. ثمّ لم يغادر فرنسا إلّا بعد أن وقّع مع الحكومة الفرنسية عدّة عقود تبلغ ملياري فرنك فرنسي. (تضمن تسديدها المساعدات المقدّمة من قبل فيصل).

وعندما عاد ولد ابن سعود إلى الرياض، لم يكن قد عقد صلحاً بين العربية السعودية وسوريا وخلق محور الرياض – دمشق، الشبيه بالمحور القائم بين الرياض والقاهرة فقط، بل شعر أنّه أصبح حقاً الحكَم والمنسّق بين البلدان العربية.

فيصل يدافع عن الفلسطينيين

لاحظ ديفيد هولدن في السانداي تايمز قائلاً: "ليس في هذا ما يدهش، لقد أصبح فيصل بملايينه النفطية، الخازن المموّل العمومي للشرق الأدنى كلّه [2]".

الثابت أنّ موارده الهائلة قد سهّلت الأشياء. أمّا الاعتقاد بأنّه قد توصّل إلى هذه النتيجة بفضل المال وحسب، فهو تجاهل لتعقيدات العواطف البشرية والمواقف السياسية. إنّ شخصاً آخر غير فيصل لا يتوصّل إلى مثل ذلك أبداً.

وإذا كان الجمهور الدمشقي قد أعدّ له الاستقبال العظيم الذي وصفناه قبل قليل، فإنّ الفضل في ذلك عائد إلى أنّ ملك الجزيرة العربية قد وصل إلى دمشق مسبوقاً بشهرته المدعمة في أنّه بطل العروبة. فكيف حصل على هذه الشهرة؟ الجواب هو في تبنّيه على المكشوف، قضية الفلسطينيين.

---

1 . لنذكر أنّ العربية السعودية تغطي منذ مؤتمر الخرطوم (29 أغسطس "آب" – 2 سبتمبر " أيلول") 37 في المائة من الخسارة الناجمة عن عدم استغلال قناة السويس.

2 . الصنداي تايمز، 16 فبراير (شباط) 1975

أمّا الفلسطينيون فإنّ الغرب لم يعرفهم أبداً إلا من خلال العمليات الإرهابية التي ضاعفوها قليلاً في كلّ مكان، في الزرقا وروما، وأثينا، وميونخ، وفيينا، ولاهاي، وباريس، ومعاوت وكريات – شيمونة... إنّه يجهل آلامهم، وذلّهم ويأسهم. لقد ولدوا في مخيّمات اللاجئين التابعة للأونوروا، ونشأوا في جوّ من الإهمال المطبق تقريباً، وأرغموا على الاختيار بين البطالة والجوع، إذ لا يلبثون أن يقبلوا أقلّ عمل حتى يفقدوا حقّهم في الحصول على الحصص الغذائية التافهة التي تخصّصها لهم الأمم المتحدة. لقد انتظروا عشرين عاماً لكي يعي العالم بوجودهم.

آمنوا بالعدالة الدولية والضمير العالمي وهم محبوسون كقطيع من الماشية داخل الأشرطة الشائكة خلال طفولتهم ومراهقتهم. فهل كان في وسعهم أن يعرفوا بأنّ هذه الكلمات الكبيرة لا تعني شيئاً، وأنّهم ولدوا في عالم أناني لا رحمة في قلبه؟ وفي يوم من الأيام لم يعودوا يؤمنون بشيء أبداً وأعلنوا تمرّدهم. لقد قالوا في أنفسهم: "ما دام أنّ العالم قاس لا يرحم، فلم يعد أمامنا غير مخرج واحد: هو أن نكون أشدّ منه قسوة وأقلّ رحمة".

وأسفاه، فالإرهابيّون يولدون من الظالمين المضطهدين. إنّه ليس من الخير، أيّتها الأجناس القديمة الحزينة أن تكون الأسمال لنا أباً والليالي لنا أمّاً. [1]

هكذا قرّروا أن يصنعوا مصيرهم بعد أن تعبوا من انتظار سلام من الآخرين لا يأتيهم أبداً. إنّهم لم يعودوا راغبين في إثارة الشفقة، بل الرعب. فتسلّحوا بالرشاشات والقنابل. وغيّروا وجهة الطائرات، واعتقلوا الرهائن. صرخ في وجوههم رجال فضلاء بكلّ لغات العالم قائلين: "يجب أن تخجلوا من أنفسكم". فأردفوا مجيبين: "أبداً أيها الناس! نحن أطفال العار الذي يجب أن تشعروا به نحونا – ولكنّكم لا تفعلون!"

ولما لم يبق عندهم ما يضحّون به غير حياة لا تستحق أبداً أن تعاش، شكّل هؤلاء الفتيان جماعات مسلّحة وسعوا إلى تنظيم انفسهم. وهنا اكتشفوا خيبة جديدة، قد تكون أشدّ مرارة من الخيبات السابقة: لقد وقعوا على مغامرين ورجال يحسنون الحديث، حاولوا أن يبنوا حياتهم السياسية على يأسهم.

1 . فيكتور هوجو، أشياء مرئية، الفصل الرابع، ص 274.

لكنّ هؤلاء الفتيان لم يكونوا غير طليعة وحسب. كان يتقدّم من ورائهم آباؤهم وأطفالهم، ثلاثة ملايين من الرجال والنساء، يطالبون بالعدل. كانوا من الكثرة والبؤس بحيث فرض على العالم أن يقلع عن صمته. هكذا ولدت منظمة التحرير الفلسطينية (28 مايو" أيار" 1964).

وقد استطاعت هذه المنظمة عبر محن ومصائب وخيانات ومذابح أن تفرض نفسها على الرأي العام الدولي.

وفي 4 فبراير (شباط) 1969، قرّرت التيارات المختلفة الموجودة داخل المنظمة أن تكوّن لجنة تنفيذية موحّدة عيّن على رأسها السيد ياسر عرفات.

ليس هذا هو المكان الذي نورد فيه تفصيلاً لتطوّر المنظمة، بل هو فقط الذي نصف فيه مساندة فيصل لها. ومن هنا لم ينحرف أبداً عن الخط الذي رسمه له والده من قبل.

كان ابن سعود في أثناء المقابلة التي انعقدت له مع روزفلت عام 1945 على ظهر الطرّاد كوينسي، قد أجاب رئيس الولايات المتحدة الذي طلب إليه الموافقة على إجراء زيادة محسوسة في عدد المهاجرين اليهود المقيمين في فلسطين (تحت الانتداب في ذلك الوقت):

- "لا سبيل إلى ذلك بالنسبة لنا. القضية على عكس ذلك تحتّم تخفيض هذا السيل من الهجرة إذا لم نرِد أن تتولّد عنه سلسلة من المنازعات".
- بعد ذلك بعامين (1947) كان فيصل الذي يمثل أباه في الجمعية العامة للأمم المتحدة، والتي أدخل في جدول أعمالها مناقشة حول تقسيم فلسطين (نصف البلاد يخصّص للعرب ونصفها الآخر يخصّص لليهود)، قد تمّ اختياره من قبل الوفود العربية ليكون الناطق باسمها والمعارض لخطة التقسيم بصورة قاطعة جازمة. ولما كان فيصل مقتنعاً بأنّ الولايات المتحدة معادية لهذا المشروع، فقد أكّد لكافة الوفود العربية أنّ الأميركيين سيعارضون خطة التقسيم ولن يوافقوا أبداً على خلق دولة إسرائيل.
- لكنّ تعاقب الأحداث حمل إليه تكذيباً جارحاً ووضعه في موضع مربك مزعج أمام الوفود العربية الأخرى التي اختارته محامياً عنها بسبب العلاقات الطيبة التي يمارسها مع البيت الأبيض. أوَلم يكن من حقّ هذه الوفود أن تتساءل عمّا إذا كان قد استسلم للخداع أو خانها مع الأميركيين؟ كان وِلد ابن سعود قد خرج من تلك المغامرة غاضباً محطّم النفس. وهو وإن لم يعبّر عن رأيه فوراً، إلّا أنّ خلق دولة إسرائيل بدا له

خطأ سياسياً وإهانة شخصية له. وإذاً فلم تكن المسألة أبداً بالنسبة إليه أن يطوي لها في نفسه أيّ عطف كريم.

ومع ذلك، كانت المواقف التي اتخذها من الفلسطينيين قد اقتصرت لمدّة طويلة على تصريحات متحفّظة، يقولها من طرف شفتيه. وكانت لذلك أسباب كثيرة.

أولاً، لأنّ حركة التحرير الفلسطينية تقلقه بالميول المتطرّفة عند بعض أعضائها، ولصفتها الثورية العنيفة. فهو يفضّل كثيراً جدار الملك حسين، على خلق دولة فلسطينية عند حدود بلاده قد تفسد أيديولوجيتها "الهدّامة" رعاياه عليه في مستقبل الأيام.

ثمّ إنّه لم يكن يشعر بقدر كاف من القوة يسمح له بفرض إرادته على المنظمة. وأخيراً كانت لديه هموم أخرى، وفي مقدّمتها تصحيح الأوضاع المالية في المملكة.

والجدير بالذكر أنّ موقفه من الفلسطينيين قد اتخذ صبغة مختلفة ابتداءً من حرب 1973. فهل اكتشف في ذلك الوقت بأنّ المعضلة الفلسطينية هي "صخرة العروبة" وأنّه يستحيل عليه الاقتراب من مركز القيادة في العالم العربي، ما دام أنّه لا يقف بكامل ثقله إلى جانبها (كان هذا الشيء من الوضوح بحيث أنّ رجلاً واعياً كفيصل لا بدّ أن يدركه).

ومع ذلك فإنّ المناداة بفلسطين متحرّرة وتقديم المساندة إلى منظمة التحرير الفلسطينية شيئان مختلفان جداً. لا شكّ أنّه كان يفضّل دولة فلسطينية محكومة من قِبَل أمير. لكنّ هذا الأمير غير موجود. وهذا عرفات، يمتاز بأنّه موجود على الأقل. كما أنّه ليس في ارتباطه بروسيا على ما يدّعيه بعض الناس [1].

إنّه يمثّل الاتجاه الأكثر محافظة — أي الأقلّ ثورية — في حركته. إنّ فيصلاً بتفكيره الواقعي الجديد، قد وجب أن يقول في نفسه: إنّ ممارسته لتأثير معيّن على حركة المقاومة الفلسطينية عبر عرفات، هي في الجملة، خير من الامتناع عنها، وهنا قرّر اجتياز الحدّ الفاصل والابتداء بهذه المرحلة.

1. أوَلم يكن قد صرّح في واحدة من خطبه الأولى: "إنّنا كنّا نعترف بالمساعدة الكبيرة التي يمنحها الاتحاد السوفياتي للدول العربية، فإنّ من واجبنا القول بأنّ الاتحاد السوفياتي على خطأ فيما يتعلّق بالقضية الفلسطينية. إنّه يجهل حقوق الشعب الفلسطيني في أراضيه وواجبه المقدّس في تحريرها (10 أبريل " نيسان" 1969).

هذه الخطوة تمّ إنجازها حين توجّه فيصل إلى مؤتمر القمّة الإسلامي الثاني الذي انعقد في لاهور 22-25 فبراير (شباط) 1974 حيث لعب ملك الجزيرة العربية دوراً بارزاً. (إنّ مهابته هنا غير ناجمة عن قوّته النفطية، بل هي مستندة إلى كونه حارس المدينتين المقدّستين. هذا المؤتمر اعترف بمنظمة التحرير لفلسطينية بالإجماع. فهل كان من الممكن اتخاذ هذا القرار بمثل هذه السرعة، لو لم يكن فيصل قد سانده بكلّ نفوذه وسلطانه؟

ومنذ ذلك الوقت، أخذت الأشياء تتواثب في تعاقب مستمر.

في 21 سبتمبر (أيلول) 1974، صدر عن حكومتي القاهرة ودمشق بيان يعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها "الممثّل الوحيد للشعب الفلسطيني". وفي 3 أكتوبر (تشرين أول) قرّر مجلس الأونيسكو التنفيذي، بأكثرية 25 صوت ضد 2 وامتناع 7 أصوات "دعوة المنظمة لإرسال مراقبين عنها إلى مؤتمرها العمومي".

وفي 14 من الشهر نفسه قرّرت الجمعية العامة للأمم المتحدة بأكثرية 105 أصوات ضدّ إسرائيل، الولايات المتحدة، بوليفيا، وجمهورية الدومنكيان) "دعوة المنظمة باعتبارها ممثّل الشعب الفلسطيني [1]" وانطلقت تعنى بالمسألة الفلسطينية مخصّصة مناقشتها القادمة لهذه المعضلة. وفي الحادي والعشرين اجتمع السيد سوفانيارغ، الوزير الفرنسي للشؤون الخارجية، بياسر عرفات في بيروت. ثم صرّح الوزير الفرنسي قائلاً خلال مؤتمر صحفي عقده بعد نهاية المقابلة: "لقد شعرت في نفسي بما يدعم القرار الذي اتخذناه لجهة الاستماع إلى ممثّلي الشعب الفلسطيني في الأمم المتحدة. لقد أحدث السيد ياسر عرفات في نفسي أحسن الأثر. فبدا لي واقعياً ومعتدلاً، لكنّ الثابت أيضاً أنّه واعٍ بالحقوق التي يفرضها الموقف عليه. إنّ للسيد ياسر عرفات مقوّمات رجل الدولة". وفي 25 منه قرّرت منظمة اليونيسكو بأكثرية 86 صوت ضد 2 (إسرائيل والولايات المتحدة) وامتناع 17 قبول منظمة التحرير الفلسطينية "عضواً مراقباً، مع إمكان أن يتعاقب على الكلام ممثلو المنظمة في أثناء الاجتماعات".

لكنّ عرفات والمنظمة اجتازا مرحلة جديدة خلال القمة العربية الثامنة التي انعقدت في الرباط بين 26 و29 أكتوبر (تشرين أول 1974).

1 . هذه هي المرة الأولى التي يتحدّث بها نصّ بالأمم المتحدة عن "شعب فلسطين"، حتى ذلك الوقت لم يكن يطلق على الفلسطينيين غير كلمة "لاجئون".

وكما هو الشأن في لاهور، فإنّ الملك فيصلاً حاضر أيضاً. لقد سيطر على المناقشة بكلّ قامته. وكانت المساندة التي قدّمها إلى المنظمة جازمة حاسمة، ذلك لأنّ تدخّلاته وضعت رؤساء الدول الأخرى في صف واحد. وقد شارك في المؤتمر، بالإضافة إلى ملك الجزيرة العربية كلّ من: صاحب الجلالة الملك الحسن عن مراكش، رئيس الجمهورية جعفر النميري عن السودان، نائب رئيس مجلس الثورة صدام حسين عن العراق، الرئيس الحبيب بورقيبة عن تونس، القائم بالأعمال في السفارة الليبية عن ليبيا، الأمير الشيخ سالم الصباح عن الكويت، الرئيس مختار ولد داده عن موريتانيا، الجنرال سيادبري عن الصومال، الأمير عيسى بن خليفة عن البحرين، الأمير الحاكم عن اتحاد الإمارات العربية في الخليج الشيخ زايد بن سلطان، أمير أبوظبي، ثمّ الأمير الحاكم في قطر، والرئيس فرنجية عن لبنان، والملك حسين عن الأردن، والرئيس حافظ الأسد عن سوريا، والسلطان قابوس عن عمان ومسقط، والسيد محمود رياض عن الجامعة العربية، وأخيراً السيد ياسر عرفات عن فلسطين.

وبسرعة بالغة اتفق أعضاء المؤتمر على تبنّي القرار التالي: إنّ مؤتمر رؤساء الدول العربية المنعقدة في الرباط يقرّر ما يلي:

1) يؤكّد حقّ الشعب الفلسطيني في العودة إلى وطنه وإلى سيادته التامّة الناجزة.
2) يؤكّد حقّ الشعب الفلسطيني في إقامة سلطان وطني مستقلّ بإدارة منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثّل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني فوق كلّ أرض عربية محرّرة. وأنّ على الدول العربية أن تسند هذه السلطة حين إقامتها في كلّ الميادين وعلى كلّ المستويات.
3) تسند منظمة التحرير الفلسطينية في ممارستها لسلطاتها الوطنية والدولية، عملاً بمبدأ التضامن العربي.
4) يدعو مملكة الأردن، سوريا، مصر، ومنظمة التحرير الفلسطينية، إلى الاتفاق على وضع صيغة تنتظم بها علاقاتها في ضوء هذه القرارات ومن أجل تطبيقها.
5) يؤكد التزام كلّ البلدان العربية للحفاظ على الوحدة الفلسطينية وللامتناع عن كلّ تدخل في شؤون فلسطين.

أمّا النقاط التي يثير تبنّيها أكبر قدر من الصعوبات فهي، كما هو واضح، النقطتان،2،4. ذلك لأنّ اعتمادهما يعني أنّ الملك حسيناً الأردني هو الذي سيدفع الثمن. إنّ المؤتمر إذ يؤكّد "حقّ الشعب في إقامة

سلطان وطني مستقلّ بإدارة منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني فوق كلّ أرض عربية محرّرة" (النقطة 2) إنّما يقرّر بهذا أنّ الضفة الغربية، بعد تحريرها في يوم من الأيام، لن تعود إلى المملكة الأردنية، بل ستعود بحكم الواقع والشريعة إلى منظمة التحرير الفلسطينية، أي إلى ياسر عرفات.

وعندما تكلّف سوريا ومصر منظمة التحرير الفلسطينية "بوضع صيغة تطبيقية لهذا القرار" (النقطة4)، فإنّها تنتزع من الملك حسين حقّ إمكانية دفاعه عن نفسه، ما دام أنّ مصر وسوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية متّفقة على هذا الأمر.

ومع ذلك فإنّ الحسين قد نشط وعمل ضدّ هذه الخطة التي يقصد بها تمزيق مملكته. فهل هذا هو الإنتقام لمواقف سابقة ابتداء من أيام جدّه عبد الله [1]؟ لكن هل يستحقّ الأمر في نظر الممثل الأخير لأسرة الهاشميين، والحفيد الأخير للشريف حسين الذي أخرجه ابن سعود من الحجاز عام 1924، التعلّق بهذا الموضوع كما فعل مثل ذلك مع مملكته لمدة عشرين عاماً حتى بلغ بها ما بلغه؟ إنّه إذ يتنازل عن الضفة الغربية – التي هي جزء لا يتجزأ من فلسطين – لا يعود يحكم غير مساحات من الرمال – هي أيضاً على التحقيق – امتداد للصحراء السعودية. يقول لنا جان دولف "ولكي ينحني الحسين أمام هذا المطلب مسّت الحاجة إلى الضغوط البارعة للملك الحسن الثاني، وإلى تلك، الأكثر مهابة أيضاً، للملك فيصل [2]. وأخيراً، ولما كان الحسين هدفاً للحملات من كلّ جانب ولم يجد أية مساندة بين الآخرين من أعضاء المؤتمر، انتهى به الأمر إلى التنازل عن الضفة الغربية. فوافق على الطلب وصافح ياسر عرفات.

وفي مقابل ذلك، أعرب فيصل عن استعداده لتوفير الضمانات المطلوبة لمملكته، التي عادت إلى ما كانت عليه قبل عام 1948، في وقت كانت تدعى فيه شرق الأردن.

كما أنّ ملك الجزيرة العربية طالب ياسر عرفات بالتحرّر من الجناح المتطرّف في حركته وبشجب الأعمال الإرهابية لتعطى الأولوية للعمل السياسي.

أمّا ما سوى ذلك فلم يكن غير خاتمة للمؤتمر.

---

1 . في تموز 1951 قتل الملك عبد الله في بيت المقدس عند عتبة المسجد الأقصى.

2 . جان دولف: ملاحظات أفريقية، بروكسل، 15 أكتوبر (تشرين الأول) – 15 نوفمبر (تشرين الثاني) 1974، ص 40.

في 7 نوفمبر(تشرين الثاني) تبنّت اللجنة الثقافية لليونيسكو بأكثرية 54 صوت ضد 21 وامتناع 25 قراراً مقدّماً من ثمان وأربعين بلداً تدين به إسرائيل "على عنادها في تعديل الوجه التاريخي لمدينة القدس (1)".

وفي 13 نوفمبر (تشرين الثاني) 1974، استقبلت الجمعية العامة للأمم المتحدة زعيم منظمة التحرير الفلسطينية. وكان عبد العزيز بوتفليقة، الوزير الجزائري للشؤون الخارجية، يرأس تلك الجلسة، وعندما أعطى الكلام لياسر عرفات، رجل الكوفية الحمراء والبيضاء المرفوعة عند أحد الجانبين، استقبل زعيم المنظمة بعاصفة من التصفيق. أمّا الخطاب الذي ألقاه فهو أكثر اعتدالاً مما كان يُنتَظر منه.

لقد نادى بدولة فلسطينية، يتّحد فيها اليهود والمسيحيون والمسلمون على قدم واحدة من المساواة ثمّ أضاف كخاتمة لخطابه: - إنّني أدعوكم لأن تتيحوا لشعبنا فرصة العودة من منفاه الإجباري من أجل أن يعيش في وطنه، في بيوته، وفي ظلّ أشجاره، حراً سيداً، متمتّعاً بكلّ حقوقه الوطنية لكي يشارك في مسيرة الحضارة البشرية، إنّني أدعوكم إلى أن تتيحوا لشعبنا حريته في إقامة سلطانه الوطني المستقلّ فوق أرضه... لقد أتيت إليكم حاملاً غصن الزيتون وبندقية الثائر. فلا تسقطوا الغصن الأخضر من يدي... ففي فلسطين يمكن أن توقد نار الحرب. وفي فلسطين يمكن أن يولد السلام...

وعندما هبط من المنبر كانت الجموع تهتف له.

وفي 22 نوفمبر (تشرين الثاني)، تبنّت الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً يؤكّد "حقّ الفلسطينيين الذي لا يُمارى في العودة إلى بيوتهم، ويعترف للشعب الفلسطيني بحقّه في استعادة حقوقه بكلّ الوسائل". هذا القرار اتخذته الجمعية بأكثرية 89 صوت ضد 8 وامتناع 37.

لم يعد فيصل يرى سلطته واقعاً معترفاً به من قِبَل كلّ دول المجابهة وحسب، بعد اتفاقه مع أنور السادات (مصر) واتفاقه مع حافظ الأسد (سوريا)، واتفاقه مع ياسر عرفات (فلسطين)، والصلات الطيبة التي عقدها مع الملك حسين، بل أصبحت له كلمته التي يقولها في مراحل فكّ الارتباط في الأراضي المحتلة الثلاث (سيناء، الضفة الغربية، والجولان).

---

1 . كانت الإدارة الإسرائيلية قد بنت غير بعيد عن بيوت الله أبراجاً من السيمنت المسلح تشوّه وجه البرية تشويهاً تاماً. كما أنها نسفت عدداً من البيوت التي تزعج المتوجّهين نحو حائط المبكى: إنها بهذا العمل، تثبت بأنّ المدينة قد ألحقت بها نهائياً، مما يتعارض مع قرارات الأمم المتحدة.

كتبت المجلة البلجيكية (ملاحظات افريقية) عنواناً جاء فيه: "فيصل سيّد الساعة"، بينما اعتبرته مجلة تايم في نيويورك "رجل العام".

الظلال تتكثّف

إنّ فيصلاً إذ تبنّى قضية الفلسطينيين، استطاع أن يفوز بتأييد السوريين ومحبّتهم، كما أنّه عجّل في صعود ياسر عرفات. وكان الغرض من كلّ هذه الإجراءات تدعيم نفوذه في العالم العربي. على ألّا تثير هذه الإجراءات غضب واشنطن وتعرّض للخطر تلك "العلاقات" التي يطمح إلى الاحتفاظ بها مع الولايات المتحدة.

لقد حاولنا قبل قليل أن نعرّف شخصيته فقلنا إنّه يحمل الصداقة الأميريكية بإحدى يديه، والدفاع عن العروبة باليد الأخرى، فهو على عكس ما ورد في الإنجيل حيث يقول المسيح لحواريّيه: "لتجهل يدك اليمنى ما تفعله اليد اليسرى"، كان عليه باستمرار أن ينسّق عمل اليدين والحفاظ على توازن صعب بينهما، وما يدرينا فربما وضع عنصراً أكثر قليلاً مما يجب في كفّة العروبة؟ ولذلك فهو الآن يفكّر بوضع عنصر أكثر قليلاً من الصداقة الأميريكية، في الكفّة الأخرى ليستعيد التوازن بين الكفّتين.

والجدير بالذكر أنّ هوس الحرب ما يزال في أقصى حالاته في أوروبا الغربية والولايات المتحدة. إنّ خطوطاً للمعركة بدأت ترتسم شيئاً فشيئاً [1]. هذا والصحافة الدولية تشيع أنباء مقلقة: "رئيس مكتب الاستعلامات الأميركي يقوم بزيارة للخليج العربي أواسط يناير (كانون الثاني)". – "سفن حربية أميركية تمخر عباب المحيط الهندي، قريباً من الخليج".

– "كتائب أميركية تتدرّب فوق قاعدة عسكرية فرنسية في منطقة الفار".

_ هذا وقد جاء في صحيفة السياسة الكويتية اليومية في 13 يناير(كانون الثاني)، أنّ الرئيس فورد وجّه رسالة هامة إلى الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، يطلب إليه فيها السماح للطرّادين الأميركيين اللذين يمخران مياه الخليج القيام بمناورات لإنزال القوات لفترة محدودة، في محاذاة جزيرتي دولة الإمارات؟"

1 . راجع: خطط هجومية ضد أراضي النفط، فرنسا- بلدان عربية، فبراير (شباط) 1975، ص 9.

– جنودٌ كثيرون من المارينز الأميريكيين يشاركون في عمليات في سلطنة عمان [1].

ويلاحظ صاحب الأنباء أنّ كلّ: "هذه الوقائع لا تساعد على إبعاد فكرة تدخّل أمريكي محتمل في آبار النفط. بينما تستعد الأوساط الصهيونية للمشاركة فيه."

وبالإضافة إلى هذه الانباء المنذرة، جاء السيد روبرت تكر، أستاذ العلاقات الدولية في جامعة جونز هوبكنز في واشنطن، يوجه نداء حقيقياً إلى حمل السلاح [2]. معتمداً على إيحاءات العسكري الأميريكي المجهول الذي تحدّثنا عنه في صفحات سابقة.

وهو بتضخيمه أثر هذه الإيحاءات على العقول، يحاول أولاً أن يبدو على صورة المطمئن. يقول: إنّ تخريب أبار النفط وإحراق الحقول النفطية هما بمثابة مهزلة! كلّ شيء يمكن أن يتمّ إصلاحه خلال بضعة أسابيع، بفضل الكفاءة عند التقنيين الأميريكيين. ولو فرضنا أنّ العرب انصرفوا إلى أعمال من هذا النوع مما هو ليس أقل احتمالاً أو ثباتاً "بسبب من جبنهم المعتاد" (فهذا يعني الهبوط بمستوى المعارك الضارية لحرب 1973 وجرأة الفدائيين الإرهابيين).

ويتابع تكر قائلاً: إنّ المنطقة التي يجب أن تحتلّ، تطرح امتيازاً خاصاً في أنّها قليلة السكان. إنّها تمتد من الكويت حتى شبه جزيرة قطر. فلو لم تكن الولايات المتحدة محكومة من قبل "خصيان سياسيين"، ولو لم تكن مشلولة بأفكار خلقية واضحة، لوجب أن تتحقّق هذه العملية التأديبية منذ وقت طويل. ولا ريب أنّ الجميع في أوروبا وبلدان العالم الثالث سيدينون للولايات المتحدة، لكنّ كلّاً منهم سيكون سعيداً في خفية عن الآخرين. إنّ كلّ الأمم الصناعية ستكون سعيدة بالاستفادة من نفط حدّدت له أسعار أكثر ملائمة".

يبقى التهديد بتدخّل سوفياتي. لكن هل صحيح أنّ هذا التدخّل مخيف إلى هذه الدرجة؟ فتبعاً للسيد تكر، يفترض في واشنطن أن تنبّه موسكو إلى التعريف الصحيح "بمصالحها الحيوية"، بحيث أنّ السوفيات سيقتصرون، في أسوأ الأحوال –لحماية العراق– على بعض الوحدات المحمولة جواً والتي تقف عند تخوم

---

1 . المصدر السابق نفسه

2 . أذيعت اقتراحاته في فرنسا، وفي وقت معاً من قبل " لوبوان" و"فالور أكتوويل" في 13 يناير (كانون الثاني) 1975

الكويت. إنّهم في كلّ حال لن يقدّموا عونهم إلى عدوّ الشيوعية الملك فيصل، ولا إلى أمراء الخليج الرأسماليين الصغار". "وإذا كان الخوف من ردّ فعل روسي، في أية مناسبة من المناسبات، يجب أن يمنعنا من العمل، أفلا يعني هذا أنّ العالم قد أصبح منذ اليوم تحت رحمة الروس والعرب بصورة كلية؟"

كلا! لنصدّق السيد تكر، إنّ مثل هذه المخاوف هي مجرد أوهام. بل إنّها لا تليق ببلدان قوية، واثقة من حقوقها. وأخيراً يختتم المؤلّف ما كتبه بهذا النداء: "لنتعلّم كيف نقيّم بطريقة دقيقة حالات القلق والأخطار المرتبطة بالتدخّل العسكري في مقابلة للأخطار المتمثّلة في واقع أنّنا مستمرّون وماضون في الطريق الحاضرة".

هذه التوكيدات تتّفق مع قواعد النوع. إنّ كلّ دعاوى حربية يجب أن تكون متساوية الحدّين لتكون فعالة ناجعة. أولاً يجب أن تقنع الجميع بأنّ هذا البلد أو ذاك يمثّل كارثة رهيبة، وخطراً مميتاً تفرض الضرورة الحيوية تدميره قبل أن يفوت الوقت. لكنّها في الوقت نفسه، يجب أن تقنع الجميع بأنّ العمليات العسكرية التي يقتضيها تدميره لا تحتوي غير أخطار قليلة.

إلى هذا الهدف يتوجّه ذلك السيل الذي لا ينقطع من الأنباء المستعصية على الرقابة، والتوكيدات القاطعة، والإحصاءات المزوّرة. إنّها كلّها تصنع مرّة واحدة لتوليد الغمّ والجزع، وتشكيل الرأي العام وإعداده لقبول حرب تعتبر صحّية وأمراً لا سبيل إلى تجنّبه.

حركة مدهشة

لجأ فيصل إلى وسيلة غير منتظرة لمقابلة هذا الهجوم في حدود الممكن. لقد أرسل أخاه الأمير سلطان، وزير الدفاع، إلى الولايات المتحدة. فعقد هذا الأخير سلسلة من المباحثات مع قادة البنتاجون وطلب منهم زيارة المعسكرات الواقعة في منطقة سان دييغو، في كاليفورنيا، حيث يفترض أن تتدرّب وحدات المظليين والفدائيون من جنود المارينز الذين يعدّون للقيام "بعمليات في الصحراء". (فلا طبيعة هذه العمليات، ولا المنطقة في العالم التي يجب أن تجري فيها، ليستا محدودتين).

وبعد ذلك، أقدم، بموجب عقد يبلغ 77 مليون دولار، على تجنيد ألف من المستشارين العسكريين والأمريكيين بين قدماء "البيريه الخضراء" أو غيرهم من المقاتلين في فيتنام، "لتدريب قوات الأمن الداخلي للعربية السعودية حماية لآبار النفط – وفي الوقت نفسه – لحماية الأسرة الملكية".

إنّ هؤلاء الاختصاصيين، الذين جرى التعاقد معهم لمدة ثلاثة أعوام، سيشرفون على تنظيم 26 ألف رجل من الحرس الوطني السعودي، المقيمين في خشم العين، وهو معسكر واقع على بعد 25 كيلومتر شرقي الرياض وفوق نقاط مختلفة موزعة على امتداد الخليج.

أحدث هذا النبأ دويّه الشديد. فكتب أحد المراقبين يقول: أوَليس من أشدّ المفارقات أنّ العربية السعودية قد وجّهت النداء لتدعيم حمايتها لآبارها النفطية إلى مواطنين من أبناء الدولة الوحيدة التي تهزّ قبضة التهديد بعملٍ ضدّ هذه الآبار، وأنّ هذه الدولة نفسها (أميركا) تقدم على تأمين عمليات التجنيد والتجهيز لهؤلاء المستشارين العسكريين[1]. وراح أكثر الناس يسخرون من فيصل ويقولون لأنفسهم: "لو كان يريد تسهيل التدخّل الأميريكي لما فعل غير ذلك! فعندما يتدفّق المظلّيون من قوات الولايات المتحدة على الآبار، فإنّ "المستشارين الأميركيين" المكلّفين بحمايتها سيضعونها تحت تصرّفهم دون أية مقاومة!"

لكنّ فيصلاً ليس بالرجل الأحمق، إنّه بعيد عن هذا. لقد كان في مبادرته جواب عن عاطفة وحساب في الوقت نفسه.

أمّا فيما يتعلق بالجانب العاطفي فقد قال فيصل لنفسه: "ماذا أستطيع أن أفعل لتجريد البيت الأبيض من سلاحه خيراً من أن أقول له: انظروا أيها السادة! فإنّي ألجأ اليكم وأضع نفسي تحت تصرّفكم. إنّني أكِلُ إلى حرّاسكم أثمن ما أملكه: الأسرة الملكية وحقولي النفطية. أيّة آية من آيات الثقة أعلى شأناً من هذه يمكن أن أعطيكم إيّاها؟ فهل هذا موقف رجل يسعى إلى خنقكم؟" هل ستفهمون أخيراً أنّ مصالحكم ومصالحنا هي نفسها، وأنّني لا أعدّ أي عمل يمكن أن يسوءكم.

وأمّا فيما يتعلّق بالحساب. فقد فكر أنّ "أميركا" ليست البلد الوحيد الذي يمكن أن يأتي عدوان من قِبَله. فهناك أيضاً إسرائيل وإيران. إنّ الشاه محمد رضا هو "كبير" النفط الثاني. وهو مسلّح تسليحاً جيداً،

1 . لوموند 11 فبراير (شباط) 1975

وقد يريد ممارسة سلطانه على مجموع الخليج. إنّه الحليف الموضوعي "لإسرائيل". ففي عام 1973 عندما طلب إليه المشاركة في فرض الحظر على الذين يساندون إسرائيل في حربها ضد العرب، أجاب قائلاً: "ما دام أنّني أبيع نفطي بالسعر الذي يلائمني، فلا يهمني من يشتريه!" ورغم كلّ العوامل، فأنا لا أرى أنّ أخطار عدوان من جهته تكون كبيرة".

" لكن هناك إسرائيل. والمسألة هنا مختلفة تماماً. إنّ قادة القدس يجب أن يتحسّسوا جيداً عزلتهم الدبلوماسية المتزايدة. وهم يعلمون أنّهم سيكونون مرغمين، عاجلاً أو آجلاً، على إخلاء الأراضي التي يحتلونها منذ عام 1967. وعلى ذلك فإنّهم قد يلجؤون إلى ضربة كبيرة لتأخير هذا الأجل وتحطيم المفاوضات: وذلك بإرسال فدائيين من المظليّين إلى الخليج، فيكونون بمثابة قوة تفجيرية لنزاع جديد يستدرجون الولايات المتحدة إليه. وسيتبعهم الأميريكيون مراعاة لهم إذا بدأ النزاع بمذبحة للأميركيين. وفي كلّ حال فإنّ تجنيد المدرّبين اليانكي صفقة مربحة. فهو تجاه البيت لأبيض خطوة ودية، وتجاه إسرائيل عملية ردع، وأخيراً هو برهان آخر يستطيع كيسنجر أن يحمله معه في جعبته...".

لكنّ الملك قد ارتكب خطأ: إنّ حسابه دقيق جداً، من أجل ذلك لم يكن له الأثر المرغوب فيه. لقد ترك العقول متشكّكة مرتابة ولم يتوصّل إلى إقناعها...

الموت يضرب حول فيصل

دخل الملك عامه السبعين. هذه خمسون سنة مضت وهو في نشاط مستمر. وأيضاً فقد بدأ يظهر علامات على الرهق والتعب. نظراته تبدو في كلّ يوم أكثر حزناً، وفمه أكثر مرارة، وسماته أكثر نحولاً. أمّا صحته التي هي هشّة دائماً، فقد عادت تسبّب له بعض الهموم. إنّه رغم اعتداله في الأيام العادية، بدأ يأكل أقلّ فأقلّ، ذلك لأنّ فم معدته يسبّب له الألم الشديد. فهل أنّ القرحة التي عالجها الجرّاحون الأميركيون في مستشفى ولتر ريد بعملية جراحية عام 1957 قد انفتحت مرة أخرى؟

الثابت أنّ الملك يقاوم المرض بشجاعة. وهو كعامل لا يتعب، مستمر في قراءة كلّ الملفات، والحصول على كلّ المعلومات، وتسوية كلّ أمر بنفسه. ليست الشكوى من طبيعته. إنّه ذو إدراك رفيع لمهمّته بحيث

لا يضعها بين أيدي الآخرين. وهو رغم اقترابه من الهدف ما تزال مهمّته أبعد من أن تكتمل. الصلاة في بيت المقدس، الصلاة في بيت المقدس... لماذا يتباطأ الله في تحقيق أمنيته؟ إنّ ما يحمله فوق كتفيه هو عبء ثقيل جداً. فكلّما امتدّ نفوذه زادت مسؤولياته. يا إلهي، قليلاً من السلام، قليلاً من السكينة، وقليلاً أيضاً من الوقت أخصّصه للتأمّل والصلاة.

كم كان العالم بسيطاً في فترة شبابه حينما كان يدور جلّ أمره حول إعادة النظام بين قبائل متخاصمة، أو إخراج بعض الحاميات التركية النائمة على أسلحتها من مواقعها القوية. إنّه يتذكّر بحنين جولاته الطويلة على الخيل عبر اليمن وعسير وهبوطه نحو البحر عبر ضياء السماء وشفوف الرمال...

أما الآن، فإنّ الملك العجوز، هو تقريباً على الدوام في مكتبه حين لا يقوم بانتقال رسمي، وقد يحدث أنّ من يعملون معه يسمعونه يرسل تنهيدة من أعماقه. لكنّه لا يلبث حتى يتماسك، فإنّ مهمّته لم تنته بعد. إنّها الصلاة في بيت المقدس...

وبدلاً من ذلك، يجب أن يخرج إلى الضوء جملة من المعضلات التي تحير وتربك أكفأ الخبراء.

وها هو الموت، يضرب فجأة من حوله. إنّ أوّل من اختفى أمامه، عمر السقاف وزير الشؤون الخارجية، الذي كان قد اعتاد العمل معه في كلّ الأمسيات، وبعد ذلك ببضعة أسابيع، جاء الدور على مدير البنك المركزي للجزيرة العربية، الذي كانت تجربته في شؤون المال عزيزة جداً عليه. أمّا الثالث فهو الدكتور رشاد فرعون، أقدم مستشاريه، الذي كان إلى جانبه يوم دخوله المجيد إلى دمشق، والذي أصيب بجلطة دموية في الشريان التاجي ولم ينج منها إلا بأعجوبة.

وقد قال للمؤلّف فيما بعد: كان حظي من النجاة لا يجاوز نسبة خمسة عشر في المائة.

كم من الفراغات، ومن الأحزان! لقد تأثر بها الملك تأثّراً شديداً. صحيح إنّه ما يزال يملك كثيراً من الولاء حوله، لكنّ الجيل الذي نشأ معه قد بدأ يختفي. سُمِع يهمس يوماً في نفسه:

- لقد ضرب الموت ثلاث مرات من حولي. وقريباً يأتي الدور عليّ...

لكنه فجأة يتماسك:

- "إنّني أخطئ باستسلامي لهذه الأفكار الحزينة. إنّ المستقبل لله وحده. فليتصرّف بحياتي كما يشاء".

هنري كيسنجر يعود إلى طريق الشرق

المفاوضات تراوح في مكانها منذ بداية العام. أمّا أنور السادات وحافظ الأسد فقد بدأ صبرهما ينفذ. في دمشق يتساءلون: "ماذا يعني هذا الموقف؟ فمن ناحية يوجّه إلينا تهديد بالثأر العسكري، وبإنزال مظليّين في منطقة الخليج، والله يعلم ما وراء ذلك أيضاً! وإسرائيل تشهر السلاح النووي وتستعد لإشعال حرب وقائية بدعوى أنّها ضرورية للحفاظ على وجودها، ومن ناحية أخرى، يريدون أن ينيّمونا بدبلوماسية "الخطوات القصيرة" التي تتجاهل جوهر المعضلة، وهو الانسحاب غير المشروط للقوات الإسرائيلية من كلّ الأراضي العربية المحتلة منذ عام 1967 وإعادة الحقوق إلى الشعب الفلسطيني. حذار أيها السادة! فنحن أيضاً نملك سلاحاً حديثاً جداً، ولا سيما صواريخ جديدة قادرة على إبادة كلّ المدن الإسرائيلية انطلاقاً من أراضينا [1]. فإذا كان الجيش الإسرائيلي يريد أن يحتلّ بلادنا وأن يسير نحو دمشق كما صرّح بذلك أكثر من مرّة، فما الذي سيربحه؟ إنّ حكومتنا ستنسحب إلى حلب، وعلى الجيش الإسرائيلي أن يحتل سوريا كاملة! لكنّ هذا لن يحدث أبداً. لقد ذهب الوقت الذي كان يخسر فيه العرب حربهم دائماً. إنّ في وسعنا اليوم أن نربحها".

أمّا الرئيس السادات فقد صرّح من جانبه قائلاً:

- إنّ مصر لن تقبل تجديد انتداب الخوذ الزرقاء[2] إذا لم يتمّ انسحاب اسرائيلي جديد قبل ذلك. إنّني أرفض فتح قناة السويس ما دام أنّ الممر المائي معرّض لنيران المدافع المعادية. إنّ على الإسرائيليين أن يسحبوا قواتهم إلى ما وراء ممرّي الجدي ومتلا. وهذا الانسحاب يجب أن يرافقه فكّ ارتباط مماثل في الجولان والضفة الغربية [3].

---

1 . إنّها صواريخ سكود الروسية التي لا يمكن اعتراضها عملياً والتي لا تملكها حتى الآن بلدان معاهدة فرصوفيا

2 . وضع ستار من الأمن مؤلّف من وحدات "الخوذ الزرقاء" للأمم المتحدة منذ 14 أكتوبر(تشرين الأول) 1973 بين الجيش المصري والجيش الإسرائيلي. وانتدابها لمهلة قابلة للتجديد مرة كلّ ستة أشهر. وفي هذه المرة سينتهي في 23 أبريل (نيسان)1975.

3 . هذه هي المرة الاولى التي ضمِنَ فيها السادات طلباً سورياً. ومن هنا يتبين لنا أنّ زيارة فيصل لدمشق وأسوان قد أعطت ثمارها.

ثم أضاف قائلاً: "يبدو أنّه توجد نظريتان لتصفية النزاع منذ القمّة السوفياتية الأميريكية في فلاديفوستوك. هناك النظرية الأميريكية التي تقول بدبلوماسية الخطوات التي ستنتهي إلى فك الارتباط، ومن ثمّ يستطيع مؤتمر جنيف أن يبدأ عمله. أمّا النظرية السوفياتية فهي على العكس، تطالب بالإبتداء من مؤتمر جنيف. أمّا فيما يتعلّق بنا نحن، فإنّنا نرى وجوب الإفادة من كلّ الظروف التي تعيد إلينا أراضينا العربية. إنّ القضية هي قضية الحصول على فكّ ارتباط جديد، ثم العودة إلى جنيف [1]". وهذا يعني ضمناً أنّ الحكومة المصرية تساند النظرية الأميريكية. وهذا مفهوم جداً فلا فيصل ولا السادات يحرصان على الذهاب إلى جنيف، حيث يكون الروس حاضرين. (وقد استبعدت أوروبا، بازدراء كلّي، من قِبَل واشنطن وموسكو معاً).

أمّا الإسرائيليون، فهم من جانبهم، لا يريدون الإصغاء إلى كلام حول انسحاب جديد، إذا لم ترافقه ضمانات لأمنهم إذا انسحبوا إلى ما وراء الممرّين، فإنّ مدافعهم لا تعود تهدّد القناة، ولا يعودون قادرين على ممارسة ضغط على مصر. "قطعة من الأرض مقابل قطعة من السلام"، هذه هي الصيغة التي طرحت من قِبَل إسحاق رابين [2]. إنّها تختصر موقفه السياسي في بضع كلمات.

الصيغة مغرية، لكنّها صعبة التطبيق. فإذا كانت الأرض قابلة للتجزّؤ فالسلام لا يتجزّأ. فماذا يفهم رابين من "قطعة" من السلام؟ هل تعني تصريحاً بعدم اللجوء إلى الحرب من قِبَل مصر لمدة ثلاث سنوات؟ إنّ هذا يعني انسحاب مصر من المعركة والامتناع أبداً عن اللجوء إلى السلاح لاستعادة سيناء.

- يجيب السادات قائلاً: "أبداً هذا غير ممكن، إنّه يعني كما لو أنّ حرب 1973 لم تحدث أبداً. فأنا لم أقبل بإيقاف إطلاق النار على هذه الأسس.

هكذا يتبيّن لنا أنّ مواقع المتخاطبين مختلفة جداً. لقد جاء الوقت الذي يجب أن يمسك فيه كيسنجر المفاوضات بين يديه. يضاف إلى ذلك أنّ انتداب "الخوذة الزرقاء" ينتهي في 23 أبريل (نيسان)1975، فإذا لم يتجدّد عند هذا التاريخ، فإنّ قوات الامم المتحدة تنسحب ليجد الجيشان المتعاديان نفسيهما وجهاً لوجه. (ونحن نعلم ماذا حدث عام 1967). وإذاً فليس هناك غير بديل واحد: مؤتمر جنيف–أو الحرب. إنّه يجب أن تنجح سياسة الخطوات قبل ذلك.

---

1 . لوموند 16 يناير (كانون الثاني) 1975

2 . إنّه الرئيس السابق للأركان العامة،خلف غولدا مائير على رأس الحكومة الإسرائيلية.

هذه هي المواقف الفكرية التي وجدها كيسنجر حين وصوله إلى أسوان، حيث اتخذ الرئيس السادات موطن إقامته في الشتاء.

وها هو نبأ، غير معقول ولا مرتقب، ينتشر في الأوساط القيادية المصرية: إنّ حكومة القدس ستكون مستعدة لسحب جيوشها حتى الممرّات دون أيّ مقابل. هذا ما تقوله وكالات الأنباء.

لكنّ السادات لم يصدق أذنيه. فهذا أجمل من أن يصدّق! هل انتصرت ديناميكية السلام! إنّ غريزته الفلاحية تدفعه إلى الحذر رغم كلّ ما يقوله له معاونوه. فطلب تأكيد هذا النبأ.

المؤسف أنّ هذه الموجة من التفاؤل لم تكن مؤكدة. لا بدّ أنّ أحدهم لم يدرك تماماً أقوال إسحاق رابين التي جاء فيها أنّ الحكومة الإسرائيلية مستعدّة، في الواقع، لسحب قواتها إلى الممرّات وإخلاء الحقل النفطي أبو رديس بشرطين:

1- أن تتعهّد مصر بعدم اللجوء إلى السلاح لأجَل معيّن وعلى صورة تجري مناقشتها.

2- أن تفصل فكّ ارتباطها عن كلّ مطلب مماثل يتعلّق بالضفة الغربية والجولان.

وهنا اتصل السادات بالرياض، وقد شعر بالخيبة، وسأل فيصلاً رأيه في هذا الأمر. فأجابه الملك: يمكن عند الضرورة مناقشة الشرط الأول، لكنّ الثاني مرفوض قطعاً، إنّ عمليات فكّ الارتباط الثلاث يجب أن تسير معاً في وقت واحد [1].

هذا، على التحقيق، ما لا يريد الإسرائيليون أن يعتمدوه.

إنّ تكتيكهم يقوم على تفتيت "وحدة الجبهة العربية" لمفاوضة كلّ فريق على حدة. الظهور بمظهر المجامل نحو مصر وإعادة مساحات من الرمال إليها؟ ولماذا لا، إذا تحرّر السادت من ارتباطه بفلسطين وسوريا... لكنّ السادات حريص حذر، إنّ حق النقض عند فيصل يمنعه من ذلك. وهو الثمن الذي سيدفعه لو فعل غير ذلك.[2]

وهنا توجّه كيسنجر إلى القدس في جو ملبّد متوتّر بصورة فريدة.

---

1 . فيما يتعلق بفيصل، هل يمكنه أن يقول غير ذلك بعد التعهّدات التي أخذها على نفسه في الرباط ودمشق؟ إنّ هذا يعني التنازل عن زعامته للعالم العربي!

2 . إذا وضع ملك الجزيرة العربية حدّاً لمساعداته، فإنّ الاقتصاد المصري ينهار مرة واحدة. ولئن سقط السادات أمام فكرة العمل وحيداً، فإنّه سيكون موضع اتهام من قبل كلّ "البلدان الشقيقة". إنّه سيشنّع عليه، وسيهان، وما يدرينا؟ فقد يتعرض للاغتيال..

مجابهة مأساوية

- قال رسـول البيت الأبيض حين وصـوله إلى مطار اللد: "إنّني لم آتِ إلى هنا لأتحدّث عن الامتيازات بل عن الأمن ".

حتى الآن لم يترشّح شيء عن المحادثات المتبادلة بين وزير الخارجية الأميريكي ورئيس الحكومة الإسرائيلية. لكنّنا نعلم أنّ محادثاتهما كانت مأساوية، والعبارة التي لفظها عند هبوطه من الطائرة تزوّدنا بمفتاحها مهما تكن معرفتنا بمحتوياتها قليلة.

إنّ إسـرائيل تعيش منذ عام 1973 في أزمة مسـتمرة. فهناك النتيجة المخيّبة يوم الغفران، وتدمير خرافة الجيش الذي لا يقهر، والتضـخّم المالي بنسـبة 59 في المائة الذي رافقه هبوط في سـعر العملة، والعزلة الدبلوماسـية المتنامية، والمواقف الإيجابية المتّخذة من قبل الامم المتحدة لمصـلحة الفلسـطينيين [1]، والفضـائح من مثل فضـيحة الجنرال زيرا [2]، والهبوط المتدرّج في الهجرة اليهودية "ألياه" [3]، وإعادة النظر في قيمة الإدارة، هذه كلّها خلقت عند الإسـرائيليين شيئًا أكثر كثيراً من ضيق وانزعاج: إنّه صـدمة أدبية حقيقية يجدون صـعوبة بالغة في العودة منها إلى نفوسـهم. فهل يعني هذا أنّهم يواجهون المسـتقبل بنظرة متشـائمة؟ أبداً. إنّهم يتصـلّبون أمام العدوان. إنّهم يرون أنّهم دخلوا في مرحلة قاتمة من تاريخهم وأنّهم في حاجة إلى كلّ طاقتهم لاجتيازها.

وإذاً، فهم يتصلّبون، لكن بينهم أيضاً من يتقلّص ويتشنّج. إنّهم يقولون في أنفسهم بأنّ إسرائيل تستطيع أن توجّه ضـربات رهيبة إلى أعدائها، وإذا سـاءت الأمور، رغم ذلك، فإنّهم يملكون سـلطاناً كافياً لإغراق العالم في الفوضى بإشعال حرب عامة.

---

1 . لنذكر أنّ عرفات قد دعي بصفته "مراقب" إلى الامم المتحدة بأكثرية 86 صوت مقابل صوتين فقط (الولايات المتحدة وإسرائيل) وامتناع 17.

2 . أقيل من كلّ وظائفه بعد حرب الغفران لاستخدامه جنوداً وعتاداً من الجيش من أجل إحداث تغييرات في دارته (المنبر اليهودي، 27 سبتمبر (أيلول) 1974

3 . يقصد من كلمة ألياه عودة الطوائف اليهودية الموزّعة عبر العالم إلى إسرائيل.إنّ الآليها كانت وما تزال دائماً أمل اسرائيل الكبير. إنّ الهجرات القادمة من البلدان الغربية قد نضبت تقريباً، وتبقى الهجرات القادمة من الإتحاد السوفياتي عبر فيينا. وقد كانت تتّجه كلّها إلى إسرائيل من قبل. أمّا اليوم فإنّ عدد الذين يتّجهون لبلد آخر يتزايد دون توقف. تابع: 2 في المائة، 5 في المائة وأخيراً أكثر من15 في المائة. إنّها علامة تنذر بالخطر! (المنبر اليهودي17 سبتمر(أيلول)1974،ص 11)

وأخيراً، هناك الذين يفكّرون بأنّه لا مخرج لهم ويغذّون في أنفسهم "عقدة الماسادا"، مأخوذة من اسم القلعة التي بناها هيرود الكبير حيث حجزت نفسها فيه، في القرن الأول من هذا العصر، آخر مجموعة من اليهود قاومت الغزو الروماني واختارت القتل على الاستسلام. (لقد عثر على هياكلهم وجماجمهم المحطّمة كآخر صرخة من اليأس أطلقت عبر العصور). فهناك عند قمّة جرف يشرف على البحر الميت، يأتي الضباط الطلّاب للوحدات المدرّعة في عام ليقسموا قسم الولاء للعلم.

ومهما يكن الفريق الذي ينتمون إليه، فإنّ شعوراً واحداً يحرّكهم: إنّهم لن يستسلموا أبداً. هذا ما يجب أن يحسب له إسحاق رابين حسابه، ما دام أنّه قد فاز بتأييد 93 في المائة من الشعب حين قال: "لا شرم الشيخ ولا الجولان ولا القدس قابلة للمفاوضات".

صحيح أنّ اللجوء إلى الشجاعة، والتصلّب في الإرادة، مبعثان للإعجاب. لكن هل يضعان الإسرائيليين في الشروط المثلى لإدراك الحقيقة، ولفهم الأسباب التي دفعت بهم إلى حيث هم الآن؟ هنا يسمح لنا بالشكّ في ذلك. الصلابة مصدر للإبداع، لكن لا العناد. وعلى ذلك فإنّ عنادهم هو الذي يعرّضهم لدفع الثمن الكبير.

كيف لا يرون، وهم الذين يطالبون "بحدود آمنة" أنّ كلّ القرارات التي يتّخذونها تتّجه عكس هذا المطلب، ما دام أنّهم لا يفعلون غير الاستزادة من الأخطار على أنفسهم، وكيف لا يرون، إنّه ليس باللجوء الدائم إلى السلاح يتمّ الحصول على السلام، بل بموافقة الشعوب التي تحيط بهم؟ إنّها صيغة كاذبة تلك التي تقول "بإعطاء شعب دون أرض أرضاً دون شعب".

لأنّ هذا الشعب كان موجوداً. وإنّ طرده من بيوته ليس هو الحل الدائم. واليوم يوجد من الفلسطينيين خمسة أضعاف ما كان منهم يوم تأسيس دولة إسرائيل رغم كلّ المذابح التي نظّمت ضدّهم والعبث الذي أنزل بهم، ثمّ لن يكفّ عددهم من الزيادة أبداً بينما تتضاءل الهجرة اليهودية. لماذا لا يسمعون صوت ناحوم غولدمان رئيس المؤتمر اليهودي العالمي حينما يقول:

- لقد قدّرت دائماً أنّ دولة يهودية لا تستطيع البقاء في المدى الطويل في محيط من العداوة العربية. لقد أحدثت دوياً كبيراً غداة الإعلان عن وعد بلفور عام 1917، بأن كتبت في صحيفة ألمانية: "إنّ الأهمّ من الإعلان عن هذا الوعد، مع كلّ معناه التاريخي، هو إعلان مماثل من الجانب العربي. فأحدث

مقالي صيحات استنكار وغضب في كلّ مكان، وراح الجميع يتساءلون: كيف أعطي "البدو" من الأهمية، وهم الذين كانوا في ذلك العصر لم ينتظموا بعد في دول مستقلة، فوق ما أعطي للامبراطورية البريطانية القوية [1]؟"

- بعد ذلك بثلاثين عاماً (أي عام 1947)، وبعد أن تبنّت الامم المتحدة خطّة لتقسيم فلسطين، اقترحت على بن غوريون ألّا يعلن الدولة اليهودية من جانب واحد. فالعرب وإن كانوا في ذلك العصر ضعفاء معزولين، فقد كنت مصرّاً على وجوب الامتناع عن وضعهم أمام الامر الواقع. كنت آمل أنّ العرب الذين تركت قضيتهم بين يدي الأمم المتحدة، يكونون مستعدّين بتدخّل من الأمم الديمقراطية والكتلة الشيوعية- لا للموافقة على تقسيم فلسطين- بل على الأقل للامتناع عن اللجوء إلى الحرب. والمؤسف أنّ هذا هو ما حدث من بعد. ثمّ لحقت بهذه الحرب ثلاث حروب إسرائيلية – عربية أخرى. لقد أنبأني دبلوماسيون مصريون في الأمم المتحدة أنّ حكومتهم ربما كانت مستعدّة للتفاوض حول تسوية معيّنة مع موشى شاريت [2] ومعي أنا، نحن اللذين نمثّل الجناح المعتدل داخل الجهاز التنفيذي للمؤتمر الصهيوني العالمي. وكان علينا لهذا الغرض، أن نتوجّه إلى مالطة أورودس. وقد تطوّع الرئيس ترومان بوضع طائرته الشخصية تحت تصرّفنا. وفي هذه الأثناء رفض بن غوريون وأكثرية الأعضاء في الجهاز التنفيذي الصهيوني تأجيل الإعلان عن دولة اسرائيل أمام الحماسة الهاذية للشعب اليهودي في فلسطين...

منذ ذلك اليوم، لم تحاول حكومة القدس أن تمسك كثيراً من الفرص التي، ربما، كان في وسعها أن تعود إلى مصالحة مع العرب، ذلك لأنّها لم تكن مستعدة للموافقة على امتيازات ضرورية... كما أنّها أخطأت فرصاً كثيرة أخرى، ولا سيما عام 1967، بعد حرب الأيام الستة... إنّ موقف إسرائيل كان قائماً على الاعتقاد بأنّ الوقت يعمل لحسابها وأنّ فرض الأمر الواقع هو الخطة الفضلى ما دام أنّ العرب والعالم كلّه ينتهون إلى الموافقة على كلّ أمر واقع. وهذا رأي لم أشارك أبداً في القول به، بل تظاهرت ضدّه طوال

---

1 . اليوم اختفت الامبراطورية البريطانية، لكنّ "البدو" هنا دائماً يطالبون بأراضيهم.

2 . رئيس الدئرة السياسية في الوكالة اليهودية، وزير الشؤون الخارجية في إسرائيل من عام 1948 إلى عام 1953، ومن 1955 إلى 1956، من أنصار الخط المعتدل نحو العرب. مات عام 1965)

سنوات في مناقشات عامة مع بن غوريون. وقد أثبتت حرب يوم الغفران والأزمة النفطية أنّ العكس كان صحيحاً، وأنّ العرب يحقّقون من المكاسب في مراحل متعاقبة أسرع كثيراً مما كنت أتنبأ شخصياً به [1]،وفي هذا الشهر مارس (آذار) 1975، حيث نجد أنفسنا عند واحد من هذه المنعطفات، التي يمكن أن يتحقّق فيها اتفاق إسرائيلي عربي، هل سنحوّل هذه الفرصة إلى مناسبة ضائعة؟ والأسوأ من هذا أيضاً: أنّ هذه المرة ربما كانت الاخيرة، ذلك لأنّ التباين بين العرب والإسرائيليين سيكون بعد بضع سنوات تبايناً ساحقاً...

الثابت أنّ هنري كيسنجر قد أورد هذا كلّه وشرحه لإسحاق رابين. كلا، إنّه لم يأت ليتحدّث عن "امتيازات"، إذ أنّه يعلم أنّ هذه الكلمة تثير الحساسية الإسرائيلية وتجرحها. لقد جاء يتحدّث عن "الأمن"، لأنّه يعلم أنّ الأمن هو في صميم المعضلة، وأن ليس للامتيازات غير أهمية ثانوية، وأنّ مبرر وجودها الوحيد هو أن تسمح لإسرائيل بالتوصّل إلى تسوية مرضية للعرب قبل أن يفوت الوقت، وبالخروج من سياسة الأمر الواقع التي تجري ممارستها حتى ذلك اليوم، والتي لن تحقّق سلاماً أبداً، ما دام أنّها حالة استعداد لحرب قادمة.

وأيضاً فقد أثير هو شخصياً لرؤيته الإسرائيليين بعامة وإسحاق رابين بخاصّة يعرّضون هذا الأمن للخطر بسبب عنادهم وتصلّبهم. إذ أنّ أمن إسرائيل أمر يحرص عليه كأي فريق آخر غيره، ويحرص عليه بعاطفة شديدة لأنّه يرى بوضوح أكثر من قادة تل أبيب كم هو معرّض للتهديد. إنّه يحاول أن ينقذ الأمن ضدّ إرادة الإسرائيليين أنفسهم. فلماذا لا يصغون إليه؟ لماذا لا يثقون به، هو، اليهودي ذو الأصل الألماني، الذي حقّق من المعرفة بالعالم ما هو أوسع كثيراً من معرفتهم؟

ومع ذلك فقد شرح موقفه لزميله الإسرائيلي إيغال آلون على أثر غداء كان هذا الأخير قد أعدّه له في القدس في الشهر السابق: لقد صرّح قائلاً: "إنّ الفكرة التي تقول بأنّ إسرائيل يمكن أن تقسّم إلى شرائح صغيرة، خلال المفاوضات حول سلام شامل أو مرحلي، دون أن تتلقّى تعويضاً عن ذلك، هي فكرة

1 . أقوال جمعها أريك رولو،لوموند، 9 يناير (كانون الثاني)1975

مرفوضة أصلاً، بل إنّ مناقشتها غير ذات فائدة. إنّ الخطوات التي تقود إلى السلام هي محنة طويلة تحتاج إلى القوة، وبخاصة إلى الإيمان، وإلى الثقة التي تغذّيها الصداقة.

إنّ الولايات المتحدة تشارك إسرائيل رغبتها في السلام. ونحن نريد أن نأمل، في أنّ عصراً جديداً سيبدأ، في مستقبل قريب، لا تعود الأمّهات الإسرائيليات يجدن ما يتخوّفن منه على حياة أبنائهنّ".

لكن، لا إيغال آلون، ولا إسحاق رابين، يريدان الاقتناع بما يقوله. وهنا أضاف وزير الخارجية الأميركي قائلاً وهو يشدّد على كلّ كلمة من كلماته:

- " إنّني أكرّر القول بأنّ إسرائيل لن يضحّى بها أبداً في اللعبة السياسية للدول الكبيرة، ولن يتعرّض أمنها للخطر. لكن على الإسرائيليين أن يضعوا في حسابهم-وهذه نقطة أشدّد عليها- أنّ للولايات المتحدة مصالح عالمية. وإسرائيل لا أراها تجهل ذلك، فإذا أصبح أمن الولايات المتحدة في خطر، فإنّ أمن إسرائيل، هو أيضاً يتعرض لمثل ذلك [1].

ماذا تعني هذه الكلمات: "المصالح العالمية للولايات المتحدة؟". من هو القادر على "تعريض أمن الولايات المتحدة للخطر؟". أليس هذا ما يدعو إلى الابتسام؟

كلّا، إنّ لهذه العبارات في فم كيسنجر معنى محدّداً جداً. لقد رأينا أنّ خبراء البيت الأبيض قد حدّدوا لعشر سنوات قادمة، الفترة التي تحتاج إليها أميركا لاستعادة "استقلالها في ميدان الطاقة". وفي أثناء هذه الفسحة من الوقت، يفرض عليها أن تجامل العرب وتلاطفهم حتى تجتاز الفترة الزمنية التي تكون فيها عرضة للعطب، وبالتالي خاضعة للأجنبي وتابعة له. فإذا لم تتوصّل إلى هذا الأمر كانت الكارثة، إذ في أثناء ذلك الوقت يمكن أن تبرز قوى أخرى وتفرض سلطانها على الميدان الدولي. فهل يعتقد الإسرائيليون حقاً أنّهم واجدون امتيازاً لهم في هذا الأمر؟ إنّ عليهم أن يحذروا! وعليهم ألّا يستسلموا لعقدة اليأس! كما أن يحذروا من التفاؤل المتطرّف. فلا يعتقدون، بخاصة، أنّ في وسعهم دائماً الاعتماد على مساعدة الولايات المتحدة غير المشروطة. هل يظنون أنّ كيسنجر يبالغ؟ إذاً فليعودوا إلى الخطاب الذي ألقاه السيناتور ج.وو. فولبرايت في وستمنستر كوليدج في 2 نوفمبر(تشرين الثاني) 1974.

---

1 . 12 فبراير (شباط) 1975

- صرّح رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ الأميركي قائلاً: "يبدو في أنّ إسرائيل منهمكة في حالة تورّط مع فكرة وحيدة هي الحصول على كلّ الأسلحة وكلّ الأموال التي يمكن أن تفوز بها الولايات المتحدة في محاولة لتجنّب ما لا سبيل إلى تجنّبه. إنّني أتمنى أن يكون القادة الإسرائيليون قد أحسنوا الإفادة من الوقت الذي مضى منذ هدنة العام الأخير، وذلك بإعداد شعبهم لمواجهة التعديلات الضرورية، وبأن يقولوا له: أنّ السلام هو النعمة الكبرى التي يحتاج إليها، وبتذكيره – بما كان يقوله بن غوريون نفسه– مهما تكن الحدود التي يمكن الدفاع عنها عسكرياً أمراً مرغوباً فيه، فإنّها لا تستطيع وحدها أن تضمن المستقبل. لكنّني أخاف ألّا يكون قد حصل شيء من ذلك...

"إنّ قِصَر النظر عند الإسرائيليين، مع رؤيتهم الخاصة للأشياء، ربما أمكن فهمه هناك. لكنّه أقلّ كثيراً من ذلك عند أنصار إسرائيل الموجودين عندنا، والذين، بتشجيعهم لعنادها، إنّما يدفعون بها إلى دمارها، والظاهر إلى دمارنا نحن أيضاً.

"أنا مقتنع بأنّ إسرائيل تستطيع، بل يجب، أن تستمرّ كمجتمع مسالم ومزدهر وراء حدوده لعام 1967، كما جاء في القرار رقم 242 الصادر عن مجلس الأمن الدولي في 22 نوفمبر(تشرين الثاني) 1967. كما أنّ هذا القرار يطالب في الوقت نفسه بالامتناع المطلق عن انتهاك حرمة الآخرين في أراضيهم، وبالاستقلال السياسي لكلّ دولة في المنطقة. هذا الهدف يمكن الوصول إليه من طرق عديدة: طريق الضمانات المقدّمة من قِبَل الدول الكبيرة، أو طريق مجلس الأمن في الأمم المتحدة، أو طريق معاهدة تلتزم فيها الولايات المتحدة بالحفاظ على سلامة إسرائيل وأمنها بصورة واضحة بيّنة.

"هذا أمر ندين به نحو إسرائيل، لكن لا أكثر من ذلك! نحن لا ندين لها بمساعدة تسمح لها باحتلال أراض عربية بصورة دائمة، بما في ذلك القدس القديمة والضفة الغربية من الأردن. إنّ لشعب فلسطين حقاً في وطن يكون له تماماً كما هو حق الشعب اليهودي. فنحن الأميركيون، الذين طالما ساندنا مبدأ تقرير المصير، يجب أن ندرك الحقيقة.

"لكن من المؤسف أنّه لا الإسرائيليون، ولا أنصارهم الموجودون داخل مجلس الكونغرس والذين يؤيدونهم بغير فطنة ولا روية، على وعي بما يجري التلاعب به، وبالأذى الكبير الذي يصيب المصالح الأميريكية بسبب الخطّ المتّبع حتى الآن: إنّ إسرائيل إذ تضغط دون توقّف على الولايات المتحدة للحصول على المال والسلاح، وإذ تحصل باستمرار على ما تطلبه، بل وعلى أكثر مما تطلبه، إنّما تجعل من صديق مخلص موضعاً لاستغلال سيّئ".

أوَليست هنا لغة عارية من كلّ إبهام؟ ومع ذلك فقد قوبل السيناتور فولبرايت بتصفيق شديد. لكنّ القادة الإسرائيليين حافظوا على مواقعهم. لا ريب أنّهم يفكرون بأنّ السيناتور فولبرايت لا يمثّل الرأي العام الأميريكي. وربما شجّعهم على التصلّب كلّ من السيناتور جاكسون وأعضاء آخرين من مجلس الشيوخ ممّن استشهدوا بدفوعهم غير المشروطة عنهم...

أمّا بالنسة لكيسنجر، فإنّ مثل هذا القدر من العناد والعمى يبدو له مستعصياً على الفهم. أفلا يرون إلى الخطر الذي يهدّدهم؟ لقد وعد محادثيه الإسرائيليين بتقديم المزيد من السلاح وبمعاهدة تضمن سلامة إسرائيل. لكنّ هذين العرضين لم يخرجاهم من برودهم. ذلك أنّهم يملكون هذه الامتيازات، ويعتقدون أنّ جيرالد فورد لن يكفّ عن مساندتهم، وأنّ الامتناع عن ذلك في نظرهم هو تدمير لحياته السياسة. هذه ضمانة أقوى كثيراً من كلّ ما يعرض عليهم...

وفي محاولة أخرى لحلّ هذه العقدة طلب إليهم كيسنجر أن يبذلوا أقصى جهد ممكن لإنقاذ ديناميكية السلام على الأقل. وأن يوافقوا على تقديم امتياز صغير إلى مصر يسمح لها بفتح قناة السويس!

وكان الجواب سلباً. لماذا يميّز المسؤولون الإسرائيليون تمييزاً تاماً بين مناطق فكّ الارتباط الثلاث في الوقت الذي يرفض فيه الرئيس السادات مثل هذا التمييز؟

ومهما تكن الحجج المطروحة من قِبَل الوزير الأميريكي، فقد احتفظ الوزراء الإسرائيليون بعنادهم واقتصروا على ترداد ما يلي:

- "شرم الشيخ، الجولان، والقدس، لا تقبل المفاوضة أبداً. فهذه سنوات مضت ونحن نطالب فيها بحدود آمنة يمكن الدفاع عنها من الناحية العسكرية. إنّ إسرائيل منذ تأسيسها لم تفز أبداً بما هو خير من ذلك. فلماذا تتنازل عنها؟

ولما نضبت جعبته، شعر كيسنجر أنّه لن يتوصّل إلى الفوز بالقرار المطلوب. لكنّه، لما لم يكن ممّن يستسلمون، وجد من الحكمة أن يعيّن لرابين مهلة تأمّل لمدة 48 ساعة. فلعلّه يبدو بعد عودته إليه أقلّ عناداً وصلابة.

ثمّ توجّه إلى أرض المطار، وصعد إلى طائرته متوجّهاً إلى قبرص، حيث كان على موعد مع السلطات التركية. لكنّ الأمل في أعماق نفسه لم يعد غير بصيص من النور...

ليل القدس
(22– 23 مارس " آذار" 1975)

وعندما عاد كيسنجر إلى القدس، قبيل عصر السبت في 22 مارس(آذار)، توجّه فوراً إلى مكتب إسحاق رابين. في هذه المرة قرّر أن يبذل أقصى ما يملك من الجهد لإقناع محدّثه.

من أجل ذلك، سيلعب بكلّ أوراقه، فيطرح كلّ الحجج في الميزان، ويلجأ إلى كلّ كفاءاته الفكرية – وهي كفاءات كبيرة – في محاولة لإنقاذ ما بقي من مفاوضاته. إنّ في الجولة التي يخوضها شيئاً مخيفاً حقاً، ذلك لأنّ السلام في الشرق وبقاء إسرائيل (وهو بهذا مقتنع تماماً) بل ربما مستقبل العالم كلّه، مرتبطة كلّها بنجاحه في هذه المحاولات أو بفشله. فإذا فشلت سياسته في التقدّم بخطوات قصيرة، لم يعد أمام الجميع غير مؤتمر جنيف، حيث سيدخل الروس بقوة. فما هي مصلحة إسرائيل في إعادتهم إلى الشرق بعد أن لجأت أميركا إلى كلّ الوسائل لإبعادهم عنه أو لإشراكهم في تسوية النزاع الإسرائيلي العربي؟ والسيد رابين يعلم أين تتّجه عواطفهم. الثابت أنّها ليست باتجاه إسرائيل! فلماذا لا يستغلّ الميول المعتدلة عند ملك الجزيرة العربية في تلك الأثناء؟ نحن نعلم ما هي عواطفه الحقيقية تجاه منظمة التحرير الفلسطينية، التي ما

تزال صفتها الثورية تسبّب له القلق الشديد، وبالتالي لا يريد أن يعطيها من نفسه غير مكان محدود، ذلك لأنّه لا يحرص أبداً على أن يجعل منها جارة له.

هذه الاعتبارات كلّها يقابلها عدد مثلها من أوراق اللعب التي يمكن أن تلعبها إسرائيل، بدلاً من أن تتحجّر في العناد والتصلّب!

في جنيف لن يكون فكّ ارتباط متدرّج. كلّ المعضلات الأساسية ستطرح مرة واحدة. ولن يخرج منها شيء صالح، اللهم غير مجابهات عميقة، وزيادة في الخصومات، مع احتمال أن تتحوّل هذه الخصومات في النتيجة إلى الحرب...

وبوقوع الحرب، تلجأ كلّ الدول المصدّرة للنفط إلى فرض حظر شامل، إذ أنّها لا تستطيع المقاومة أمام موجة الغضب العاصف التي ستغرقها كلّها في حالة الرفض. وهنا سيعتبر الحظر تعبيراً عن "إرادة خنق" في نظر الدول الصناعية. ولن يكون في وسع الحرب أن تبقى محلّية: إنّها ستصبح حرباً عامة. وكلّ فريق سيلجأ إلى الأسلحة التي يملكها. فمن يضمن لنا أنّ روسيا لن تتدخّل في هذه الأحداث المحتملة؟

وراح كيسنجر يوجّه رجاءه إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي أن يعي بخطورة الاختيار أمامه. هل إسرائيل مستعدّة لتحمّل مسؤولية انفجار عالمي عام، على أن تتراجع وراء ممرّات الجدي ومتلا وأن تعيد إلى مصر قطعتين صغيرتين من الصحراء؟ إذ هكذا تطرح المسألة نفسها في نهاية المطاف.

فإذا فرضنا أنّ رئيس الحكومة الإسرائيلية قد وقف إلى جانب الفكرة التي تعتبر العودة إلى القتال شيئاً لمصلحة بلاده،، فلا يجب أن يتوهّم أبداً أنّ عون الولايات المتحدة سيكون حقاً مكتسباً له بصورة آلية. إنّ هذا سيكون وهماً بالغ الخطورة. لقد كشف استفتاء أخير أنّ 27 في المائة من الأميريكيين فقط يوافقون على إنجاد الإسرائيليين إذا تعرّضوا لخطر تدمير شامل.

- "لقد أتيت أتحدّث عن الأمن"...

كانت تعنيفات وزير الخارجية الأميريكي من الشدّة، وقسمات وجهه من التوتّر، واعتقاده بأنّه يدافع عن مصالح إسرائيل الحقيقية من الوضوح، بحيث أنّ رابين انتهى إلى التأثر به والتزحزح عن مكانه. على أنّ القرار الذي طلب إليه أن يتّخذه بدا له فجأة، ثقيلاً جداً على كتفيه.

- "قال بصوت أصمّ: "أريد أن أستشير زملائي".

وبعد ذلك بساعة واحدة عقدت الحكومة الإسرائيلية جلسة خاصة. وهبط المساء. بينما بقي كيسنجر وحده في مكتب الرئيس. والواقع أنّ هذا الانتظار كان بالنسبة إليه أشدّ بلاء من المناقشة. إنّ وراءه شهراً كاملاً من الإنهاك والإرهاق. والمهم أنّ تصمد أعصابه.

بدأت جلسة مجلس الوزراء عند الساعة السابعة عشرة. لكنّ المناقشات طالت وامتدّت. ثمّ لم يكن أيّ جديد عندما دقّت الساعة الثانية والعشرون. نحن في الليل، المدينة صامتة. المؤمنون المجتمعون في المعابد ينتظرون نهاية السبت. آه... نعم! هم أيضاً يريدون الصلاة في بيت المقدس... أيّة مأساة هي هذه!

كيسنجر يروح ويجيء في مكتب رئيس الوزراء. لقد بدأ يشعر بتعب رهيب. إنّ مهمّته شديدة قاسية، وهو وحيد، وحيد، لإنجازها! تقولون: جيرالد فورد؟ مجلس الشيوخ! وأنّهم يساعدونه بأقلّ ممّا يشلّونه. ماذا عساهم يعرفون عن القوى التي تندفع وتثور في العالم! لقد تلقّى منذ يومين أنباءً منذرة بشرٍ مستطير، في جنوب – شرق آسيا.

ففي سايغون، وبنوم بنه، كلّ شيء يبدو في حالة انهيار. الحمر ينتصرون. والولايات المتحدة ستواجه بدورها الصدمة المترتّبة على ذلك. من هنا "يحسن بنا أن نكون حلفاء الشيوعيّين الأميركيين [1] "وماذا عنه هو، الرجل الساحر"، "الدكتور معجزة البيت الأبيض"، هل سيدخل في التاريخ كمحترف لعمليات فك الارتباط الفاشل؟ "إنّني أتحدّث عن الأمن..."

أيّة مهزلة هذه! بل ما هوالثابت في هذا العالم!

الساعة الحادية عشرة والنصف. وأخيراً فتح الباب. ودخل رابين.

- قال بلهجة حازمة: "لقد درس مجلس الوزراء اقتراحاتك، وإنّه ليؤسفني أن أخبرك بأنّه قد رفضها بالإجماع.
- "هل هذا هو قراركم النهائي؟"
- "نعم"

وترك كيسنجر ذراعيه تتدلّيان، إذ لم يعد عنده شيء يقوله.

---

1 . هذه هي صرخة الألم التي كان سيطلقها بعد بضعة ايام، سفير فييتنام الجنوبية إلى واشنطن، السيد ترانكمفون، عبر شاشة التلفزيون النيويوركي – مضيفاً إلى ذلك قوله وهو يتكلّم عن الشيوعيين : "إنّهم أكثر أماناً من غيرهم!"

وهنا يستأذن وزير الخارجية الأميركي مضيفه للخروج. وعندما غادر المكتب الرئيسي كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل. عيناه مغرورقتان بالدموع. وقد أحنى رأسه وسُمِع يهمس بصوت منخفض.

- " إنّها غلطة فيصل... إنّها غلطة فيصل.."

والآن، ماذا سيحدث بعد ذلك

غلطة فيصل؟ هذه العبارة بدت غامضة لأولئك الذين سمعوها. لكنّنا في وضع يسمح لنا بإدراك ما أراد كيسنجر أن يقوله: ماذا لو أنّ فيصلاً لم يقل للسادات أن يربط أيّ فك للاشتباك في سيناء بعمليات مماثلة في الجولان والضفة الغربية، أما كانت الأشياء تنتظم؟ إنّ السادات هو أكثر الأعداء الرئيسيين الثلاثة لإسرائيل مرونة ولين جانب. وهذا يعود بالطبع إلى أنّ سيناء هي أبعد كثيراً من القاهرة — من الجولان — من دمشق. إنّها، أي سيناء، عالم منفصل، لا يكاد يبدو منتسباً إلى مصر. وما يجري فيها هو إلى حد بعيد أقلّ تأثيراً على الرأي العام...

الموقف يبدو الآن مأساوياً: لقد انتهت مهمّة كيسنجر بالفشل. وسدّت الطريق أمام "ديناميكية السلام".

والجدير بالذكر أنّ الوزير الأميركي نفسه قد أصيب بالانهيار. وبدا أنّ آماله كلّها قد انهارت مرة واحدة. كما هبطت حالته المعنوية إلى أدنى الدرجات. ولذلك فقد أعلن أمام الجميع، بعد عودته إلى واشنطن، عزمه على الاستقالة من كلّ وظائفه وترك السياسة النشطة لينسحب إلى انكلترا. وهناك يكتب مذكّراته، التي يقدّم له بعض الناشرين، مقابلها، حقوق تأليف خيالية. لكنّ المال لا يغريه. أيّ مبلغ من المال يستطيع أن يعوّضه عن الهزيمة التي لحقت به؟ على أنّ أوساطاً في واشنطن بدأت تتحدّث عن إبداله بغيره. وقد تردّد اسم إليوت ريتشاردسون، سفير الولايات المتحدة إلى لندن. وعندما يبلغ الأمر هذا الحد، فالنكبة غير بعيدة.

من عساه يكون المستفيد الرئيسي من غرقه؟ موسكو، بالطبع. إنّ قادة الكرملين سيستغلّون هذه المناسبة ليدخلوا مسرح الأحداث في صخب وضجة. ومرة أخرى، كان غولدمان على حق حينما تنبّأ أمام أريك رولو بأنّ وزير الخارجية لن ينجح، لأنّه يفتقد ما يكفيه من السرعة والشجاعة.

- "إنّ عليه" أي كيسنجر" أن يتّخذ مبادرات، ومبادرات جريئة". هذا ما صرّح به لمراسل صحيفة لوموند (العرب وحدهم يستطيعون أن ينفقوا على ترف الانتظار، ما دام أنّ الوقت يعمل من أجلهم. ومن أجل ذلك أقدّر أنّ منهج "الخطوات القصيرة" ناقص وغير فعّال. إنّ الموقف في الشرق الأدنى يهدّد بالانفجار. إنّه يقتضي تسوية سريعة وجذرية. وعلى ذلك فإنّ هذه التسوية غير ممكنة إلا إذا عملت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في تعاون شديد. أمّا الذين يراهنون في إسرائيل على نشوء الحرب الباردة فهم يغذّون وهماً خطراً. وكلّ محاولة لإزالة السوفياتيين في تسوية الشرق الأدنى ليست فقط باطلة تافهة، بل إنّها تزيد أيضاً من خطر حرب جديدة)

وإذا كان الجميع قلقين في لندن وواشنطن، والكلّ يتساءلون: "والآن ماذا سيحدث بعد ذلك؟" فإنّ الوجوم يشيع في الرياض والقاهرة.

قال فيصل لسفرائه في ساعة من ساعات الغبطة: "إنّنا سنحدّد السياسة العربية لخمس وعشرين سنة قادمة". فهل يمكن أن نحدّد هنا ما كان يقصد إلى قوله؟ نعم. لقد كان يعني، بصورة عامة، التعريف، عن طريق الولايات المتحدة، بزعامته للعالم العربي، مقابل أن يعترف العرب بالنفوذ الأميريكي في العالم. هذا المشروع الطامح هل يمكن أن يتحقّق، بينما الرجلان، اللذان يعتمد عليهما للتوصّل إلى ذلك- نيكسون وكيسنجر- يتمرّغان في التراب؟

أمّا في القاهرة، فالبلبلة تبدو أكبر حجماً أيضاً. فإذا كان فشل الوزير الأميريكي يعرّض خطة الجزيرة العربية في المدى الطويل للخطر، فإنّه في مصر يضع الوجود المباشر للحكومة في حالة الخطر. فالسادات دون ريب، من كلّ القادة العرب، يعتبر نجاح كيسنجر أمراً بالغ الأهمية. لقد وضع الريّس رصيده كلّه في "الرهان الأميريكي"، وبالرهان الأميريكي يجب أن نفهم أيضاً نهضة الاقتصاد المصري، فتح قناة السويس للنقل الدولي، وعمليات فكّ الارتباط مع القوات الإسرائيلية على مراحل. إنّه يدين لهذا الرهان في أكثر ما نجح فيه منذ صعوده إلى قمة السلطة. لقد لعب، على نحو ما، دور بالون من الأوكسيجين: فسمح للشعب المصري بأن يتنفّس. فإذا سقط هذا الرهان، فما الذي يصير إليه أمره؟ هل يجب أن يعود إلى

جنيف، والحبل في رقبته، ليسمع توبيخ الروس له على كلّ ما فعله منذ اليوم الذي سمح فيه لنفسه بإخراج مدرّبيهم؟

أيّ إذلال سـيتعرّض له! لقد كان في بعض الاوقات يعرب عن أسـفه تقريباً على وقوفه إلى جانب فيصـل، وعلى ربطه فكّ الارتباط في سـيناء بفك الارتباط في الجولان والضـفة الغربية. فإذا نجح في فتح قناة السويس، فإنّ شعبيته تجد، بصورة نهائية، قاعدة لها مكينة.

ومع ذلك، فعندما اتصـل فيصـل والسـادات – وقد فعلا ذلك فوراً خلال 23 مارس (آذار) – اتفقا بسـرعة. لقد قدّرا، كلاهما، أنّه يجب أن يفعلا أيّ شـيء لوصـل ما انقطع من المفاوضـات. والسـماح لاستمرار دبلوماسية "الخطوات القصيرة"، وتحريك "ديناميكية السلام". هذه هي الوسيلة الوحيدة لتجنّب أخطار الظهور في جنيف. فليعد كيسنجر، وليعد إلى إمساك القضية بيده! إنّ على مصر أن تفعل شيئاً لتشجيعه على ذلك. لكن أيّ شيء؟ إنّ فيصلاً الذي احتفظ برؤيته الواضحة كاملة، والذي كره التسرّع دائماً، طلب مهلة 48 سـاعة للتفكير في الأمر. أوَلم يقل والده: "كلّ شـيء في نظري هو وسـيلة حتى الصعوبات؟"

لكنّ المؤسف أنّ القدر، الذي يضرب كالصاعقة، لم يترك له الوقت الذي يحتاج إليه.

الباب الخامس

موت فيصل

25 مارس (آذار) 1975

يوم المولد (25 مارس "آذار" 1975)

انقضى اليوم الرابع والعشرون ممن مارس (آذار) دون أن يأتي بجديد، وجاء الخامس والعشرون منه، إنّه يوم المولد، ذكرى ولادة النبي.

اعتادت بعض البلدان الإسلامية منذ بضع سنوات الاحتفال بهذه الذكرى على أنّها عيد ديني. لكنّ هذا لا يجري في العربية السعودية، لأنّه لا يتّفق مع المفهومات الوهابية. لقد قرّر فقهاء مكة، في الواقع، أنّ النبي محمداً لم يصبح موضع الاحترام إلا منذ الفترة التي تلقّى فيها الوحي من السماء. أمّا قبل ذلك، فلم يكن غير رجل كغيره من الرجال، راعٍ بسيط لم يكن يميّزه شيء عن أشباهه. فإسباغ صفة العيد على يوم مولده ليس شيئاً لا معنى له وحسب، بل هو متعارض مع قواعد الدين، ذلك لأنّ ما هو موضع "التمجيد" عند محمّد، هو حضور الوحي الإلهي ونفاذه إلى قلبه.

من أجل ذلك لم يكن يوم المولد يوم عيد في الجزيرة العربية. كلّ المخازن مفتوحة في مدينة الرياض. وليس في القصر غير نشاطه العادي.

في هذا اليوم، كما هي العادة، نهض الملك مبكراً، وكان قد أدّى صلاة الفجر متوجّهاً نحو مكة. ثم انتقل إلى مكتبه لمزاولة أعماله. إنّ عليه أن يستقبل وزير النفط الكويتي مصحوباً بعدد من الخبراء خلال ساعات الصباح. فطلب من وزير النفط الشيخ يماني أن يكون قريباً منه، ليستعين به فيما إذا احتاج إلى بعض المعلومات. ومن ثمّ كان عليه أن يكتب مذكّرات للسادات.

وفي تمام الساعة الثامنة، تمّ تغيير الحرس، وأخذ الموظفون أماكنهم في مكاتبهم العادية داخل القصر وخارجه.

وفي الساعة العاشرة والنصف حضر شاب يلبس معطفاً قاتماً عند المدخل الرئيسي، فلم يسأله الجنود المكلّفون بالمراقبة الداخلية للقصر عن هويته. ولماذا يسألونه! فهم يعرفونه جيداً. إنّه الأمير فيصل بن مساعد، أحد أبناء أخوة الملك، سنّه ستة وعشرون عاماً، تابع قسماً من دراسته في أميركا ثمّ عاد ترافقه سمعة سيئة.

إنّه في نظر الجميع شاذ غريب الأطوار. ولا عجب في ذلك فقد ورث هذه الظاهرة عن أبيه، الأمير مساعد الذي كان يتصرّف في الغالب بغرابة وشذوذ أيضاً. لكن هل في الإمكان إعارة الاهتمام لكلّ مجانات الشباب...آه، بلى! هناك نقطة تستحقّ التسجيل والاهتمام: إنّ الأمير فيصل هو الأخ الصغير للشاب الذي قتل قبل بضع سنوات برصاص الشرطة، في أثناء الهرج الذي تعرّضت فيه الشرطة لمجموعة من الطلاب كانت تهاجم مبنى الإذاعة احتجاجاً على إدخال التلفزيون إلى الجزيرة العربية، بدعوى أنّ هذا النوع من المشاهد متعارض مع تعاليم القرآن...

دخل الفتى فيصل بن مساعد القصر، فبدا هادئاً جداً، واجتاز الممرّ المؤدّي إلى مكتب الملك بخطى ثابتة. لم يخطر ببال أحد أن يعترضه، إذ أنّ الجميع يعلم بأنّه فرد من أفراد العائلة المالكة. دخل المكتب واختلط بجماعة الكويتيين الذين كان الملك يستقبلهم. عندما جاء دوره وانحنى الملك نحوه ليسمح له بتقبيل كتفه أخرج ابن الأمير مساعد مسدساً كان يخبّئه في طيّات معطفه وأطلق على عمّه ثلاث رصاصات أصابته جميعها، واخترقت إحداها جمجمته عند مستوى الجبهة فانهار الملك على الأرض وهو يئنّ من الألم.

وبسماع الطلقات وأنين الملك، قفز نحو المكتب كلّ رجال الحرس والسكرتيرين والزوار الكثيرين الذين كانوا ينتظرون في القاعة المجاورة. أمّا القاتل فلم يجد وقتاً للهرب. لقد قبض عليه فوراً، وأحيط به وضرب بصفحات السيوف. تجنّب الجميع قتله: إذ أنّه يجب أن يتكلّم.

وبلغ الهرج قمّته، الناس يتراكضون من كلّ مكان. وانتشر نبأ اغتيال الملك في المدينة انتشار النار في البارود. وبينما حمل الأمير مغشياً عليه إلى حجرة لا نافذة لها، بدأ موظفو القصر يتوافدون، وكذلك وجهاء البلاد وأعضاء الأسرة الملكية، وعلى كلّ الوجوه تقرأ سطوراً من الذهول، والغضب والفجيعة.

وقفت سيارة الإسعاف أمام سلم القصر، جرى استدعاؤها على عجل، ثمّ أقدم ممرّضون على وضع جثة الملك فوق محفّة بعناية شديدة. ثم نقلوه إلى السيارة وحملوه بسرعة إلى مستشفى الملك فيصل.

وفي أثناء الطريق فتح الملك المصاب عينيه ووجد ما يكفي من القوّة ليهمس بضع كلمات.

واقتيد في المستشفى إلى غرفة العمليات. وقد ازدحم من حوله الجراحون والممرّضون: إنّهم يريدون أن يستخرجوا الرصاصات من جسده. وفي الوقت الذي كان ينحني فيه فوقه أحد الأطباء ليتفحّص جراحه، تحرّكت شفتاه بضعف ثم قال كلمات لم يفهم معناها– ثم قضى متأثراً بجراحه.

ما الذي فكّر فيه خلال تلك اللحظات الأخيرة؟ في زوجته التي يحبّها حبّاً شديداً؟ في أولاده؟ في مهمّته التي لم يكملها؟ هل همس، كما فعل من قبل سان لويس على فراش موته: "بيت المقدس...بيت المقدس..."؟

ها هو ممدود فوق سرير صغير من أسرّة المستشفى. يا إلهي كم هو نحيل ضعيف! قسمات وجهه أكثر نحولاً من أيّ يوم مضى، وفي فمه حزن لا سبيل إلى التعبير عنه، وفوق جبهته خيوط من الدماء كما لو أنّه انتُزِع من رأسه تاجٌ من الأشواك.

الأمير خالد يخلف فيصلاً

لم يكد المسؤولون يتثبّتون من وفاته حتى أذاع راديو جدة والرياض ومكة بلاغاً يعلن "أنّ الملك فيصلاً اغتيل من قبل رجل مهووس" داعياً أربعمائة من المسلمين إلى الصلاة وطلب الرحمة له.

وفي الوقت نفسه تقريباً، جرى في القصر الملكي تتويج الملك الجديد. وقد عاد حقّ الخلافة إلى الأمير خالد، واحد من أشقّاء فيصل، وكان قد سمّي قبل ذلك أميراً وليّاً للعهد. وبعد ذلك بساعة واحدة تقبّل خالد مبايعة العلماء، وتأييد الأسرة الملكية وقسم الولاء من الجيش. وهكذا تمّ انتقال السلطات الروحية والزمنية دون أية صعوبة.

أمّا أول حركة صدرت عن الملك الجديد فهي تسمية أمير وليّ للعهد. إنّه الامير فهد، وقد كان من قبل نائباً لرئيس مجلس الوزراء ويمارس بالإضافة إلى ذلك مهمّات وزير الداخلية ورئيس المكتب الوطني للنفط، ورئيس مجلس التربية الوطنية ورئيساً لمؤسّسات مختلفة أخرى، وبإسهامه في الإشراف على شؤون البلاد منذ سنوات كثيرة، قام برحلات عديدة إلى الخارج. فإن كان خالد يملك، فإنّ فهد سيحكم.

ولد الملك خالد عام 1913، يوم لم تكن الرياض غير قصبة صغيرة، فهو الآن في العقد السابع من عمره، طيّب لطيف يميل إلى الانزواء. كان في الغالب يُحتَكمُ إليه في الخلافات الناشئة بين أعضاء الأسرة

الملكية، تميّز دائماً ببشاشته ودماثة أخلاقه وهواياته المسيطرة عليه هي الخيل، القراءة وصيد الصقور. لكنّ السياسة فيما يبدو ليست لها عليه غير القليل من الجاذبية.

لكنّ الأمير فهداً شيء آخر. لقد ولد عام 1922، مطّلع تماماً على شؤون المملكة، وبالإضافة إلى ذلك إداريّ جيّد، ولئن كان مختلفاً عن خالد فهو على العكس من فيصل، لا يملك منه مظهره الجليل المؤلم.

لقد منح سجيّة صلبة، مع حدّة الطبع ومرح شديد، إنّه رجل يحب الحياة، في كلّ أشكالها. إنّه أولاً سهل يسير، يحبّ أن يضحك ويتسلّى. يملك صفة نادرة جداً عند العرب: روح النكتة، لكنّ القريبين منه يؤكّدون أيضاً أنّه يملك حسّاً متنامياً من السلطة.

فإذا وقع حادث غير مرتقب وضع خالداً موضع الاستحالة في الحكم، فإنّ فهداً هو الذي سيخلفه. وقبل أقلّ من ساعتين مضتا على وفاة فيصل، كانت الجزيرة العربية، قد خرجت من جديد بملك وحكومة.

من وضع السلاح في يد القاتل

هناك سؤال راح كلّ الناس يطرحونه: من وضع السلاح في يد القاتل؟ كان في جريمته من التحيير والإرباك بحيث أنّ الجميع حاولوا أن يجدوا لها تفسيرها المنطقي.

هل صحيح أنّه مختلّ العقل؟ إنّه لا يبدو كذلك. إنّ رجال الحرس الذين شاهدوه عند وصوله إلى القصر لم يلاحظوا شيئاً غير عادي في تصرّفه، فلا عنف ولا عصبية، لقد توجّه نحو مكتب عمّه دون أن يعجل خطواته ولم يطلق رصاصاته عليه إلا حين كان واثقاً من أنّه لن يخطئه، لم يرسل أية صرخة، ولم يطلق أية عبارة يمكن أن تزوّدنا بأية معلومة عن بواعث عمله.

وإذاً، فمن الذي دفعه إلى قتل الملك؟ هل هو ثأر عائلي؟ أم مؤامرة؟ أم قوة أجنبية؟

أمّا قضية الثأر العائلي فتجد مادّتها في موت أخيه. فهل هذا الموت هو الذي أراد ولد الأمير مساعد أن ينتقم له؟ إنّ الأمر لا يظهر على هذا النحو. إنّه لم يسبق له أبداً أن ناقش عمه في هذا الموضوع.

ولذلك لم يكن عند هذا الأخير أيّ مبرّر للحذر منه، من أجل ذلك لم يصدر أيّ ردّ فعل عنه حين رآه يدخل عليه في مكتبه.

إذاً، فهي مؤامرة سياسية؟ الثابت أنّ في البلاد فريقاً غير راضٍ عن الأوضاع. بعضهم يجد أنّ الملك يسير بسرعة شديدة، وأنّه يفرض إيقاعاً متسارعاً في تحديث البلاد. إنّها عقول ممرورة ساخطة، حجّرتها رؤية جامدة جداً للكتاب المقدّس. وبعضهم الآخر يتّهمه باتّباع سياسة رجعية، وبالامتناع عن تحقيق ما يكفي من الإصلاحات، وبأنّه لا يحدّث البلاد إلا في الظاهر فحسب، لكنّه لم يحدّث أي تعديل في البنية الجوهرية العميقة للبلاد. وهناك أيضاً بعض العناصر المتمرّدة في غير هذه القطاعات ممّن يريدون حيازة السلطة كما فعل آخرون غيرهم في مصر، سوريا، وليبيا والعراق. لكنّ ولد الأمير مساعد لا يبدو أنّه على صلة بهؤلاء. إنّ حركته كانت حركة "رجل وحده".

يبقى الافتراض الذي يقول: إنّ عمله قد وجد من قبل دولة أجنبية. لكنّنا حين نقوم بجولة حول كلّ الاحتمالات الممكنة، نصل إلى الحقيقة المدهشة التالية، لأنّنا نادراً ما نجدها في حياة رجل سياسي: لا إنسان، لا دولة، كان في مصلحتهما قتل الملك. صحيح أنّ الإسرائيليين لم يغضبوا لرؤيتهم اختفاء رجل يعتبرونه أشدّ خصومهم خطراً. أحدهم وصف قتله بأنّه "عمل صحّي".لكن من هنا حتى الإسهام في القتل، توجد هوة، يحرص القادة الإسرائيليون على عدم اجتيازها لأسباب هي من الوضوح بحيث لا نحتاج إلى عرضها. كلا، لا الفلسطينيون ولا الروس، ولا المصريون، ولا الأمركيون، ولا الليبيّون، ولا السوريون يمكن أن يضعوا السلاح في يد القاتل، لسبب بسيط هو أنّه ليس في مصلحة أحدهم أن يهلك الملك.

فمن أيّة جهة درست، تبقى جريمة فيصل بن مساعد غامضة ودون تفسير.

ولما كان الخبراء الذين فحصوه – ورجال الشرطة الذين حقّقوا معه – قد أعلنوا سلامته العقلية، فإنّ الشريعة تقضي بإعدامه، ثمّ تعيّن قطع رأسه بالسيف. هذا ما نزل به بعد بضعة أسابيع في مساء يوم جمعة قبل غروب الشمس.

- ستقول شخصية دينية هامة في مكة "هناك رجال يأتون إلى الدنيا، لا ينجزون في حياتهم غير عمل واحد. فإذا أنجز هذا العمل، استنفدوا مبرّر وجودهم. لماذا ذلك! إنّه أمر يتجاوز إدراك البشر. فالله وحده هو القاضي العادل".

مأتم الملك (26 مارس " آذار" 1975)

كان النبأ الذي أذيع من راديو جدّة صباح الخامس والعشرين من مارس(آذار)، واستؤنفت إذاعته من كلّ محطات الإذاعة في العالم، قد أحدث ضجة كبيرة، ليس فقط في البلدان الإسلامية بل في كلّ العواصم الأجنبية. إنّها المرة الاولى في التاريخ التي يحدث فيها مثل هذا الاهتمام موت ملك في الجزيرة العربية. فمن كان يعرف العربية السعودية قبل ثلاثين عاماً؟ لا أحد باستثناء بعض الاختصاصيين. أما اليوم في روما، ولندن (1)، وباريس، ونيويورك، حتى رجل الشارع، جميعهم يعلّقون على الحادث. ليس من سائق تاكسي، يرتبط وجوده بسعر البنزين، لا يعرف الملك الذي تنسب إليه الصحف ثروة هي من الضخامة بحيث يتردّد الجميع في تقديرها. أوَلم يزعموا أنّه يستطيع شراء الشانزليزيه من ساحة النجمة حتى الكونكورد، دون أن يكلّفه ذلك غير عشرين يوماً من موارده؟

وعملاً بأعراف البلاد، يجب أن يدفن الملك في اليوم نفسه الذي يتوفّ فيه قبل غروب الشمس(2). لكنّ هذا غير ممكن. إنّه يجب تأجيل دفنه 24 ساعة لتتاح لرؤساء الدول الراغبين في توديعه فرصة كافية لوصولهم. على أنّ كلّ دول العالم حريصة على أن تتمثّل في يوم مأتمه. ومن هنا كانت حركة الطيران في مطار الرياض حافلة بصفوف غير منقطعة من طائرات الفسكونت والبوينغ بعد ظهر الخامس والعشرين وصباح السادس والعشرين من مارس (آذار) فنائب الرئيس روكفلر يمثّل الولايات المتحدة، والسيد إيفون بورج وزير الدفاع يمثّل فرنسا، وسموّ الأمير مولاي عبد الله والأمير الفتى محمّد ولي العهد يمثّلان مراكش، والأمير علي رضا، شقيق الشاه، يمثّل إيران.

1 . واقع لا سابقة له: في انكلترا نكّست كلّ الأعلام المرفرفة فوق المباني الرسمية العامة. لكنّ الوضع مختلف في الجزيرة العربية، حيث كتبت على العلم كلمات الشهادة التي لا تتأثر بأيّ حدث أرضي.

2 . لم يرد شيء من ذلك في القرآن بل هو في السنة فقد روي عن النبي عليه السلام أنّه أمر بالإسراع بالجنازة."المعرّب"

كما حضر أيضاً: الحسين ملك الاردن، ياسر عرفات، والرؤساء: بومَديَن، بورقيبة، أنور السادات، حافظ الأسد، الأمير جوان كارلوس من إسبانيا، أمراء الكويت والبحرين وقطر، ورئيس اتحاد الإمارات في الخليج، الرئيس علي بوتو من باكستان، السلطان قابوس في عمان ومسقط، ومندوبون في موريتانيا، واليمن، والعراق، وليبيا (انتدب القذافي واحداً من وزرائه ليمثّله وقد لوحظ غيابه). أمّا البلدان الاجنبية الأخرى فقد تمثّلت بسفرائها. وبذلك ارتفع العدد الكلي للوفود إلى أكثر من مئة.

اقتيد كلّ وفد من هذه الوفود إلى قصر الناصرية، الذي هو وحده يحتوي على قاعة تستوعب هؤلاء جميعاً. كانت جثة الملك ممدودة أمام الجميع على محفّة لا ترتفع كثيراً عن الأرض. وقد لفّت بكفن أبيض شبيه بالثوبين الأبيضين من القماش اللذين كان يتلفّع بهما حين يحجّ إلى مكّة. فبدا، في تلك الساعة أكثر من أي يوم مضى، حاجّاً ينتقل من هذا العالم إلى العالم الآخر. لا زهور، ولا أبسطة، ولا أية زينة، حتى ولا نعش أيضاً. لا شيء مما يميّزه من أبسط رعاياه. وحدها فقط العباءة البنيّة التي كان يلبسها في كلّ أيامه مدّت على جثته. إنّها لا تخفي جسده بل تزيد في حضوره.

وأدخلت الوفود إلى القاعة، واحداً وراء الآخر. فإذا وصل الوفد إليه توقّف قليلاً لقراءة الفاتحة على روحه. ثم يستأنف العرض حتى انسحب آخر وفد من الوفود.

أما الصلاة على الميّت فتقرّر إجراؤها بعد ظهر ذلك اليوم في مسجد الرياض الكبير، الذي اجتمع حوله جمهور من ستين ألف إنسان.

وفي نحو الخامسة عشرة شاع في الناس صمت كان من الشمول بحيث بدا مرعباً. ثمّ انتشر شيئاً فشيئاً حتى بلغ أقصى شوارع العاصمة، حيث شعب كاملٌ من الرجال يبكي مليكه. أمّا النساء، القاعدات في بيوتهنّ، فقد كنّ يبكين وراء الأستار المسدلة.

وفي الوقت نفسه رؤيت المحفّة التي مدّدت عليها جثة الميت الملكي الراحل، تقترب. كانت محمولة من قبل إخوته وأبنائه الذين يتناوبون على حملها وهم يبكون. ثم وضعوها أرضاً وسط المسجد الجامع. الانفعال والتأثّر بلغا ذروتهما. أبداً لم تستطع "قمّة عربية" أن تولّد عاطفة وحدة شبيهة بتلك التي كانت تنتشر من هذه المجموعة من رؤساء الدول، في الوقت الذي يتلون فيه بصوت واحد السورة الأولى من القرآن:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(1)
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ(7)

وتنتهي التلاوة بشهادة الإيمان، ردّدتها صدور مئتي ألف رجل:

" لا إله إلا الله محمد رسول الله!"

لكنّ المشهد الأكثر تأثيراً في النفوس هو ما سيجيء من بعد. إنّه عملية الدفن نفسها، إذ أنّ مثل هذه البساطة تنضمّ إلى قمّة العظمة.

ولم تكد الوفود تنسحب ويفرغ المسجد من المصلّين حتى اقترب فريق آخر يحمل جسد الميت. فرفعوا العباءة البنية التي كانت تغطيه حتى ذلك الوقت وحملوه ملتفّاً فقط بكفنه الأبيض غير المخيط.

إنّهم سيحملونه إلى الصحراء. هذا ما تقضي به التعاليم السلفية المتشدّدة.

وهناك حين يصل الجسد إلى غايته يلحد بحضور أمراء الأسرة فقط، في لحد متواضع. لا يزيّنه أيّ شاهد، ولا تميّزه أية كلمات توضع على قبره. لا شيء غير مرتفع صغير من التراب يعين مكانه حتى يختفي هذا المرتفع بدوره...

هنا سيرتاح فيصل ابن عبد العزيز، الملك الثالث للجزيرة العربية، في مواجهة الفضاء العريض، إلى جانب أبيه ابن سعود: نابليون الصحراء – مؤسّس المملكة.

كلمة الختام

آخر نصيحة لفيصل

(29 مارس " آذار" 1975)

اختفاء فيصل أحدث نزاعاً كبيراً في الشرق الأدنى

الآن وقد عادت الوفود إلى بلدانها، وفي الوقت الذي جاء فيه نائب الرئيس روكفلر يستأذن الملك خالداً للعودة إلى بلاده، بدا قلقاً بشكل ظاهر من تحوّل الأحداث، وراغباً في الحصول على إيضاحات حول السياسة التي ينوي الملك الجديد للجزيرة العربية أن يتبعها، فطمأنه هذا الأخير إلى أنّ شيئاً لن يتغيّر، وأنّه سيلتزم بأمانة للخطة المتّبعة من قِبَل سابِقه.

- قال له: "لقد عشت نصف قرن إلى جانب جلالة الملك فيصل، ولا أعرف مِن شؤون الدولة إلا ما تعلّمته عبر تعليماته وآرائه. إنّني أعرف المكانة الكبيرة التي كان يشغلها في عقله خطّ الحفاظ على أطيب العلاقات مع أميركا".

فأجاب روكفر: "إنّ الولايات المتحدة هي أيضاً حريصة على توطيد التعاون الأميريكي–السعودي وتعميقه".

وفي هذا الميدان، على الأقل، عاد روكفر مطمئنّاً إلى بلاده. لكن، رغم هذه الكلمات الطيبة، لا أحد يستطيع إخفاء الفراغ الخطير الذي أحدثه اختفاء فيصل في الشرق الأدنى. وقد وضع الرئيس جيسكار ديستان في برقية التعزية التي وجّهها إلى الرياض هذا المعنى إذ تحدّث عن "الرؤية الواسعة، والفكر المعتدل، وكرامة الحياة" عند الملك الراحل. كلّ هذا صحيح. لكنّه غير كاف أبداً. فهناك سلطته الفريدة بالإضافة إلى هذه الصفات المعنوية. من سيكون قادراً في هذا الوقت على أن يأخذ دوره كحكَم ومُصلح؟ ومن سيستطيع الموازنة بين الدفاع عن العروبة والحفاظ على الصداقة الأميريكية، في الوقت نفسه الذي ينسّق فيه التصرّفات المتباينة في الغالب بين سوريا ومصر والأردن والفلسطينيين! ومن عساه يستطيع أن يفرض كلمات النظام لهذا العقل المتّزن والموازن داخل بلدان الأوبيك؟ نعم، إنّ اختفاء فيصل يحدث فراغاً كبيراً، يصعب ملؤه.

أمّا الرئيس السادات، فإنّه قبل عودته إلى القاهرة، مدّد إقامته في الرياض بضع ساعات، وعقد محادثات طويلة مع الملك خالد والأمير فهد. لقد أحاطهما علماً بمقاصد فيصل، تماماً كما كشف عنها له الملك مساء الثالث والعشرين من مارس (آذار)، أي قبل قتله بأقلّ من ثمان وأربعين ساعة. وسألهما هو أيضاً "ما إذا كان قد تغيّر شيء، وما إذا كانت مصر قادرة دائماً على الاستناد إلى العون الأدبي والمالي للجزيرة العربية، وما إذا كانت الجزيرة العربية ستتابع سياستها مع الأمريكيين "فكان في الجواب الذي تلقّاه صفة التأكيد الكامل. كتب صحفي لبناني يقول "حتى بعد وفاته استمرّ فيصل يقرّب بين المصريين والأميريكيين".

وبعودته من الرياض، عمد الرئيس المصري إلى تحديد الوضع القائم. فوجده قاتماً. إنّ كلّ البلدان العربية قد تصلّبت في مواقفها. وبادرت سوريا وإسرائيل إلى تدعيم قواتهما على امتداد الحدود بينهما.

سأله مندوب صحافة هيرست في تحقيق أجراه معه:

- "هل ترى أنّ إسرائيل يجب أن تكون مستعدة لاتخاذ مزيد من المخاطر من أجل سلام هو لمصلحة بقائها في المدى الطويل"، لقد أجاب السيد فورد بلهجة متشائمة بإلقاء مسؤولية الفشل في المفاوضات على رابين:
- " يجب أن أذكّر بالأحداث المؤسفة للساعات الاثنتين والسبعين الأخيرة.
- "فلو أنّ الإسرائيليين كشفوا عن مزيد من المرونة، واتخذوا مزيداً من المخاطرة، فإنّني أرى أنّ هذا سيكون في المدى الطويل خير ضمانة للسلام".

ثم أضاف بعد فترات من التأمل:

- " لست شديد التفاؤل... إنّني أرى أنّ خطر الحرب يتزايد".

هذا تقريباً، رأي الجميع.

ثم نقرأ في نشرة وكالة الصين الجديدة: "إنّ الولايات المتحدة في مناداتها بسياسة الخطوات القصيرة، والاتحاد السوفياتي في جهده المتواصل للعودة إلى مؤتمر جنيف، لا يريدان حقاً حلّ معضلة الشرق الأدنى. إنّهما يسعيان إلى فرض موقف "اللاحرب واللاسلم" على الشعب العربي بصورة عامة، وعلى الشعب الفلسطيني بصورة خاصة، من أجل تأمين سلطانهما. فالخاسر الأكبر في نظر الصينيين هو السادات".

أمّا فيما يتعلّق بالمجلة الأسبوعية في موسكو: "نوفويافريميا" فهي تقدّر من جانبها "بأنّ الحياة قد أكّدت مرة أخرى بأنّ المحاولات الجارية لفرض تسويات جزئية منفصلة على العرب، بدلاً من تسوية شاملة وعامة للنزاع، مقضيّ عليها بالفشل. إنّ العودة إلى مؤتمر جنيف وحدها هي التي تستطيع أن تفتح طريقاً حقيقية إلى سلام صلب قوي في هذه المنطقة من العالم..."

إنّ حكومة رابين، في تظاهرها بالاستعداد لتقديم امتيازات إلى مصر، قد أبرزت في سخرية وقحة إرادتها في الاحتفاظ بأيّ ثمن بمرتفعات الجولان المنتزعة من سوريا، والحيلولة دون عودة الحقوق المشروعة للشعب العربي الفلسطيني.

"كلّ تصريح في تل أبيب تقريباً يكشف عن رغبتها في تجزئة القوى العربية وتشجيع مجابهة تنشأ بين البلدان العربية، لكنّ التوسّعيّين الإسرائيليين وحماتهم الامبرياليين لم يحسنوا تقدير الاتجاه إلى التلاحم بين الشعوب العربية".

هذه أقوال واضحة: إنّها تعبّر بأمانة عن العواطف والمشاعر المنتشرة في موسكو وبكين، وبهذا المعنى، لا تعمل أبداً على تدعيم التفاؤل عند السيد فورد. يضاف إلى ذلك أنّ أمريكا بالذات تجد نفسها في وضع بالغ الدقة. فيبدو منذ بعض الوقت أنّ الأقدار تضرى في الحملة عليها. هناك الهزيمة المتتابعة في فيتنام وكامبودج التي تتّخذ صفة الكارثة، بالإضافة إلى أنّ الماريشال لون- نولو وضع الرئيس ثيو عند حافة الانهيار. إنّها بالنسبة إلى الولايات المتحدة خسارة لهيبتها رهيبة. إنّ "التحدي الأسيوي" يجيب عن "الرهان الأميريكي" وهو تحدّ يواجهه فورد بفرقعة من الضحك. وهذا يثبت كم هو عاجز عن قيادة الأمور في أميركا. إنّ الصحيح أنّ الكونغرس لن يتيح له وسائل القيادة حتى ولو كانت له كفاءات الحاكم: إنّه يجمّد مبادراته، ويرفض الموافقة على كلّ الأرصدة التي يطالب بها. وكما سيقول كيسينجر بمرارة: إنّ ما يجري في العالم دون ريب خطير جداً، لكنّه أقل كثيراً في خطورته مما يجري عندنا".

إنّ أميركا المصدومة بمثل هذا العدد الكبير من الخيبات المتتابعة تلجأ إلى عزلة حزينة، فكيف الوصول، في مثل هذه الشروط، إلى "السلام الأمريكي" الذي طالما حلم وزير الخارجية الأميركي بفرضه في كلّ مكان؟ ففي بضعة أيام، انهارت كلّ جهوده وأمنياته كما ينهار قصر من الورق المقوّى. كتب معلّق صحيفة الغارديان يقول: "إنّ من الصعب جداً إقناع الكونغرس الأميريكي (أو أيّ برلمان آخر) بأنّ السياسة

الخارجية هي مشروع دون نهاية. إنّ كيسنجر بولائه نحو الرئيس نيكسون وطريقته المتحرّرة في ممارسة الدبلوماسية قد فقد شعبيته منذ زمن طويل عند العديد من زعماء الكونغرس، وهو اليوم أكثر فقداناً لها دون ريب.لا أحد يربح كلّ جولاته في البوكر، حتى ولا مترنيخ نفسه حتى ولا هنري كيسنجر نفسه أيضاً".

السادات في محاولة قصوى لتحريك ديناميكية السلام

كتب أندريه سمامة، مراسل صحيفة لوموند في القدس يقول: "كان ذلك عند منتصف الليل، من السبت 22 مارس (آذار) إلى الأحد 23 منه، حين سقطت الستارة فوق مشهد كيسنجر الكبير. تقدّم الممثل الرئيسي للمرّة الاخيرة تحت الأضواء، فرسم ابتسامة بائسة فقيرة، دون أن يقول أيّة كلمة، ثمّ غاص في الظلال متّجهاً نحو سيارته المدرعة الكبيرة السوداء، التي حملها معه، تحيط به جماعة من الحراس المسلحين، في ليل بيت المقدس.

"كان صاحب المعجزات في هذه المرة قد سقط دون الغاية، لأنّه لم يستطع التوفيق بين غير المتوافقين، وكان يتألم بوضوح ظاهر.

لقد كان في الحزن العميق المرتسم على وجهه، أمام الطائرة التي يجب أن تعود به مغلوباً على أمره إلى واشنطن، شيء يدعو إلى الرثاء. وكان انفعاله قد منعه من إنهاء جوابه على الخطبة الحافلة بالحرارة الموجّهة اليه من قبل إسحاق رابين. توقّفت عبارته الأخيرة فجأة بعد أن تحدّث عن اليوم الحزين الذي تحياه الولايات المتحدة وإسرائيل. ثم أدار ظهره للصحفيين، وتوجّه بخطوات واسعة إلى طائرته بعد أن صافح يد "صديقه القديم إسحاق رابين" كما لم يره أحد يلتفت إلى الوراء عند أعلى السلّم ليوجّه يده بالتحية التقليدية".

إنّ الإيقاع الجهنّمي الذي أحدثه الوزير الأميركي في مهمّته لم يترك له فسحة من الوقت. ثمّ "إنّ كلّ شيء كان حزيناً حقاً..."

وتساءل الرئيس السادات قائلاً: ما العمل في هذه الساعة حيث يبدو الشرق، في تيهانه، منزلقاً من جديد نحو منطقة العواصف؟ ولقد تذكّر بطريقة حادّة كلّ الأحاديث التي عقدها معه فيصل حين علم

بفشل الوزير الأميركي. في ذلك الوقت، لم يكن ملك الجزيرة العربية ولا الرئيس المصري قادرين على الظنّ أنّها ستكون آخر المحادثات. منذ ذلك الوقت انتقشت هذه الأحاديث في ذاكرته بمزيد من القوة والوضوح.

"إنّ على مصر أن تفعل شيئاً، أيّ شيء، أيّة حركة لوصل ما انقطع من المفاوضات، ولتشجيع كيسنجر على استئناف نشاطه وأخذ الأمور بيده، ليحول دون انقطاع سياسة الخطوات القصيرة ولتحريك ديناميكية السلام..."

لكن أيّة حركة؟ كان فيصل قد طلب ثمانياً وأربعين ساعة للتفكّر في هذا الأمر، يعدّ فيها خطة لعملية الإنقاذ. وكان الرجلان يقدّران أنّهما سيتلاقيان خلال الأسبوع. لكنّ الموت قد قدّم الموعد. فعندما وجد السادات نفسه في الرياض أمام الملك، لم يكن فيصل غير جسد هامد لا حياة فيه ممدّد فوق محفّة. وكان السادات – وهو أيضاً رجل تقي جداً – قد توجّه إلى الله بالدعاء خلال فترة التشييع للجنازة. لقد طلب إلى ربه وهو تحت قبّة المسجد الكبير في الرياض أن ينير قلبه:

اهدنا الصراط المستقيم

صراط اللذين أنعمت عليهم

غير المغضوب عليهم

وعاد السادات إلى القاهرة في السابع والعشرين منه، بعد أن تبادل الرأي والحديث مع خالد وفهد، ثمّ أغلق على نفسه باب مكتبه وطلب ألّا يزعجه أحد عن عزلته. وراح يفكّر ويتأمّل طوال ساعات العصر. إنّه يعلم جيداً أنّ عليه أن يقوم "بحركة معيّنة"، ويعلم أيضاً أنّه سيكون لهذه الحركة من الصدى والدويّ بالقدر الذي تكون فيه أقرب إلى موت الملك.

وبسرعة شديدة، قرّر السادات، فأصدر أمره بدعوة المجلس الوطني إلى جلسة تنعقد بعد غد في التاسع والعشرين من آذار.

كان ذلك بعد "ليلة بيت المقدس" بثمانية أيام على التحقيق [1].

---

1 . يلاحظ أن هذه الأيام الثمانية تقال عند المسيحيين أسبوع آلام المسيح.

خطاب أنور السادات أمام

البرلمان المصري (29مارس " آذار" 1975)

عندما علم المصريون أنّ رئيسهم قد دعا البرلمان لعقد جلسة استثنائية، وأنّه يستعد لإصدار تصريح خاص أمام النواب، راحوا يقولون في أنفسهم: إذا كان السادات قد قرّر الكلام بمثل هذه السرعة بعد وفاة الفيصل، واختار فعل ذلك في إطار بمثل هذه المهابة وذلك الجلال، فقد وجب أن تكون لهذا التصريح أهمية خاصة. فكان فضولهم وترقّبهم كبيرين جداً. لكنّ مخاوفهم كانت كبيرة أيضاً، ماذا سيقول الرئيس؟ هل سيعلن انسحاب أصحاب "الخوذ الزرقاء"، والعودة إلى الحرب؟

وزادت معالم الخطورة في الموقف ظهوراً بسبب من أنّ الرئيس السادات قد لبس للمناسبة زيّه العسكري باعتباره القائد الأعلى للقوّات المسلّحة، وهو الزيّ الذي لا يلبسه في العادة أبداً. وبلغ التوتّر قمّته حين رقي المنبر، وتوقّف فترة طويلة ثم بدأ يتكلّم:

- "إنّ البعض قد يتوقّع منّي أيضاً، وبالانفعال، أن أنهي اتفاق عمل قوات الطوارئ في سيناء، ولكنّي أؤثر الفعل على الانفعال. ومن هنا فإنّني سوف أسمح بتجديد عمل قوات الطوارئ لمدة ثلاثة شهور فقط بدلاً من ستة شهور، من ناحية لأنّي لا أريد أن أضع المجتمع الدولي أمام أزمة مفاجئة، ومن ناحية أخرى لأنّي أريد أن يعرف العالم كلّه أنّ هناك حدوداً للوقت كما أنّ هناك حدوداً للصبر [1]".

الواقع أنّه لم يسبق للسادات أن تكلّم بمثل هذا الهدوء والسلطان.

- "إنّ البعض قد يتوقّع منّي أيضاً، وبالانفعال، أن أبقي قناة السويس مغلقة. ولكنّي سوف أفعل العكس تماماً، فإنّ قراري هو فتح قناة السويس للملاحة البحرية في الموعد الذي كنت قد حدّدته لفتحها وهو5 يونيو (حزيران) [2] القادم بإذن الله".

---

1 . هذا هو النص الحرفي للمقاطع الواردة في الكتاب منقولة عن صحيفة المحرر اللبنانية الصادرة في 30 مارس (آذار) 1975-رقم العدد 37187 (المعرّب).

2 . هذا التاريخ يتوافق مع الذكرى الثامنة لحرب الأيام الستة (5 يونيو(حزيران) 1967) النزاع المسلح الذي ترتّب عليه إغلاق القناة.

إنّ ملايين المصريين، المجتمعين في المقاهي والذين يستمعون إلى تسجيل معاد لهذا الخطاب في الراديو، لم يصدقوا آذانهم. لقد صفّقوا له كما لم يصفّقوا من قبل. الثابت، أنّ السادات هو أقوى كثيراً مما كان يظنّ! لقد استطاع أن يخلق أمراً واقعاً يقابل حالة "اللاحرب"، وقد منح هذه الامتيازات وطرحها دون أن يطالب بأيّ مقابل. وزيادة على ذلك، أنجز من جانب واحد، إجراء هو آية على حسن النيّة نحو حكومة القدس. وعلى ذلك سيكون في وسع اللاجئين الذين غادروا المدن المتاخمة للقناة أن يعودوا إلى دورهم، رغم أنّ المدافع الإسرائيلية ما تزال في حالة تأهّب على بعد عشرة كيلومترات من المجرى المائي.

- "سوف نفتح قناة السويس لخير شعبنا ولخير العالم، ذلك إنّني لا أريد لشعوب العالم التي تهتمّ بالقناة معبراً لتجارتها أن تتصوّر بأنّ مصر تريد معاقبتها لذنب لم تقترفه. سوف تفتح قناة السويس ونحن قادرون على حمايتها نفس قدرتنا على حماية مدن القناة التي قمنا ونقوم بتعميرها.

لكنّ هذه الأقوال لم تكد تنطلق حتى حرص السادات على توجيه الإنذار التالي قال:

- "إنّ أيّ مساس بموقع واحد من مدن القناة، وأيّ تعرّض لنقطة واحدة على قناة السويس نفسها سوف يواجه بردع كافٍ، حيث يكون الردع أكثر إيلاماً وأشدّ وجعاً. ونحن نعلم أنّنا نملك من قوة الردع ما يجعل عدونا يفكّر مرتين وثلاثاً قبل أن يرتكب أيّة حماقة".

ثمّ حاول أن يستخرج درساً من تلك الأيام الأخيرة فقال:

- "يبدو أنّ القادة الإسرائيليين لم يتعلّموا شيئاً كثيراً من حرب أكتوبر 1973، إنّهم ما يزالون يحيون بين أوهام الأمس ومخاوف الغد. يضاف إلى ذلك أنّهم يأملون في أن يربحوا من الوقت ما يسمح لهم بإعادة بناء قوتهم العسكرية من ناحية وإضعاف سلاح النفط من ناحية أخرى، مع توهين المساندة الدولية التي تحقّقت للقضية العربية، وأخيراً فإنّهم يأملون في أن تحدث الانتخابات الرئاسية القادمة في الولايات المتحدة تعديلاً كلّياً في السياسة الأمريكية لصالحهم". "إنّني لا أعتقد بأنّ أياً من هذه الحسابات يستند إلى أساس مكين".

لكنّ السادات لا يقف عند هذا الحد: إنّه سيسجّل خطوة أخرى، ربما كانت أهمّ الخطوات كلّها، ذلك لأنّها تسجّل تحوّلاً في السياسة العربية قال:

- "لقد أعطيت وسوف أعطي أقصى الجهد لوضع العلاقات بيننا وبين الاتحاد السوفياتي في مكانها الصحيح. وكان رأيي وما زال أنّ هذه العلاقات مبدئية لا مجرّد انتهاز للفرص أو صداقة ظروف. وأرجو أن يكون هذا الجهد متبادلاً، إنّني سأبذل أقصى جهد ممكن في هذا الاتجاه راجياً أن تفعل موسكو مثل ذلك.
- "لقد وجّهنا الدعوة فعلاً لعقد مؤتمر جنيف. ومصر مستعدة للمشاركة فيه. لكن بشرط واحد: هو أنّ فرنسا، انكلترا وبلداً (غير منحاز) تشارك فيه أيضاً".

وعندما انتهى السادات من كلامه، دوت عاصفة من التصفيق في جوانب القاعة. في ذلك المساء نستطيع القول: إنّه فاز بجدارة بشارات رجل الدولة.

ثمّ هبط عن المنبر رصيناً هادئاً باتجاه المخرج. وفي طريقه إليه قابل سفيراً هنّأه طويلاً على خطابه. فأجابه بهذه الكلمات:

- "حقاً، لم يكن في وسعي أن أفعل أكثر من ذلك لإبعاد شبح الحرب... إنّني أرجو حالياً أن يصار إلى استئناف المفاوضات..."هذا ما يمكن أن يصدر عن فيصل –من وراء القبر–كنصيحة أخيرة له...

باريس، 10 أبريل (نيسان) 1975

(28 ربيع أول 1395)

وثائق متنوعة

١ ـ أسلاف الملك فيصل

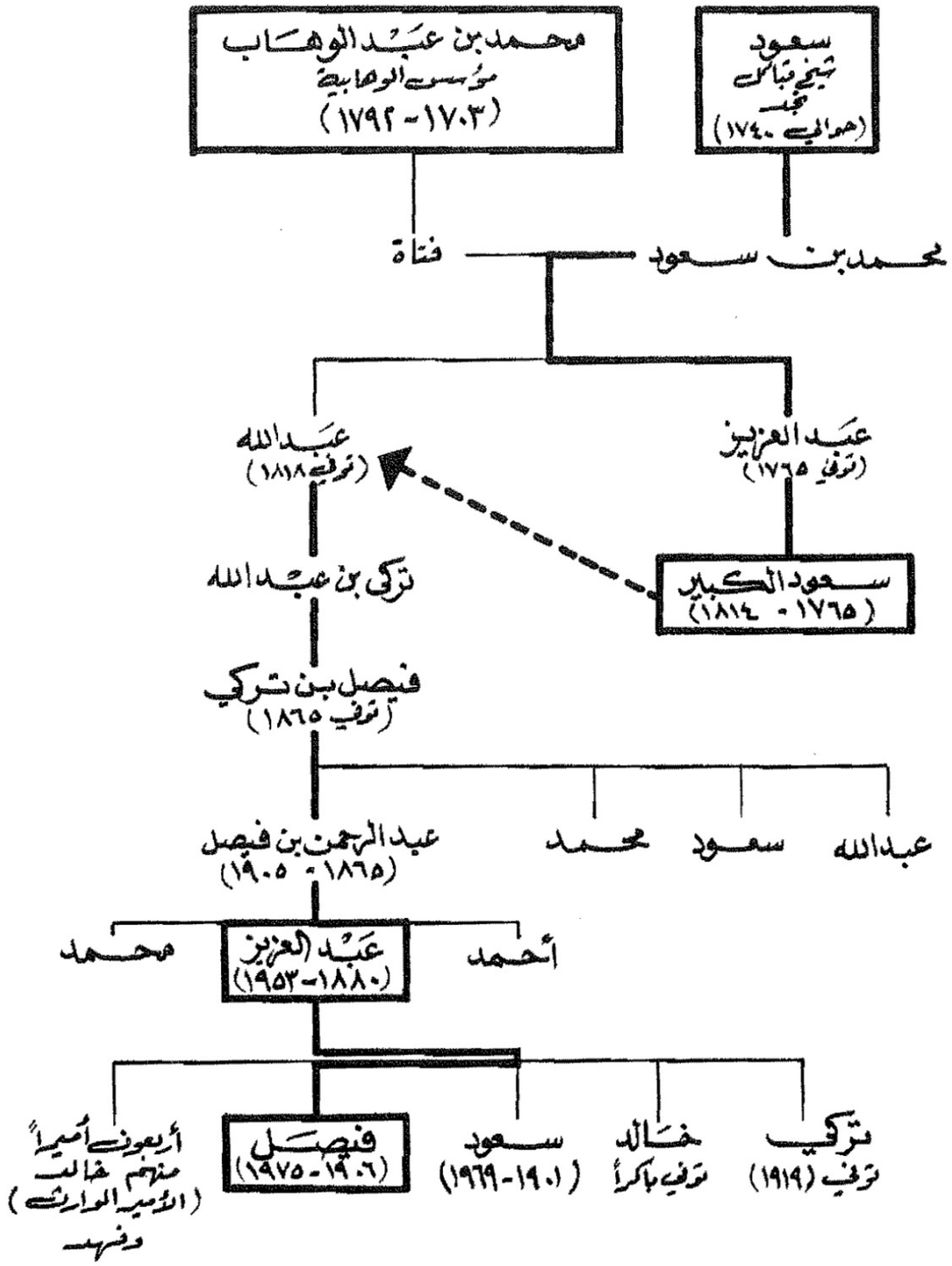

٢ – ذرية الملك فيصل (ثمانية امراء)

جلالة الملك فيصل ابن عبد العزيز آل سعود

زوجته عفت

إبنة أحمد الثنيان أحد أحفاد عبد الله الثنيان شيخ مدينة الرياض بين عام ١٨٤١ و ١٨٤٣ وأحد أحفاد سعود الكبير مؤسس الأسرة المالكة (١٧٦٥ – ١٨١٤)

١ – **عبد الله** ولد عام ١٩٢٠ أجرى دراسات تقليدية في المملكة العربية السعودية .

٢ – **محمد** أجرى دراساته في الولايات المتحدة الأمريكية في مدرسة «الهان سكول» في مدينة برنستون ثم في أكاديمية لورانس فيل . حائز على شهادة كلية مانلوفي «كاليفورنيا» عمل سنوات عدة في مؤسسة النقد السعودي . ثم في وزارة الزراعة بصفته مهندساً كميائياً تزوج إبنة عزام باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية سابقاً .

٣ – **خالد** أجرى دراساته في مدرسة «الهان سكول» ثم في جامعة برنستون في الولايات المتحدة الأمريكية وأخيراً في جامعة أوكسفورد في «انكلترا» .

٤ – **سعود** أجرى دراساته في مدرسة «الهان سكول» ثم في جامعة برنستون في الولايات المتحدة الأميركية حيث حاز على شهادته منها عام ١٩٦٥ .

٥ – **سعد** أجرى دراساته في مدرسة «الهان سكول» ثم في جامعة كمبردج في «انكلترا» حيث حاز على شهادته منها عام ١٩٦٦ .

٦ – **عبد الرحمن** أجرى دراساته في «الهان سكول» في الولايات المتحدة الأميركية ثم في كلية ساندرست الحربية في «انكلترا» حيث حاز على شهادة ضابط عام ١٩٦٣ يمارس حالياً إحدى القيادات في الجيش السعودي .

٧ – **بندر** أجرى دراساته في مدرسة «الهان سكول» في مدينة برنستون ، ثم في كلية «وثير» في ولاية كاليفورنيا وأخيراً في كلية كرمويل في «انكلترا» .

٨ – **تركي** أجرى دراساته في «الهان سكول» في مدينة برنستون ، ثم في أكاديمية لورانس فيل في نيوجرسي ، ثم في جامعات برنستون نيويورك وجورج تاون في مدينة «واشنطن» .

٣ ـ تنمية التعليم الابتدائي والثانوي

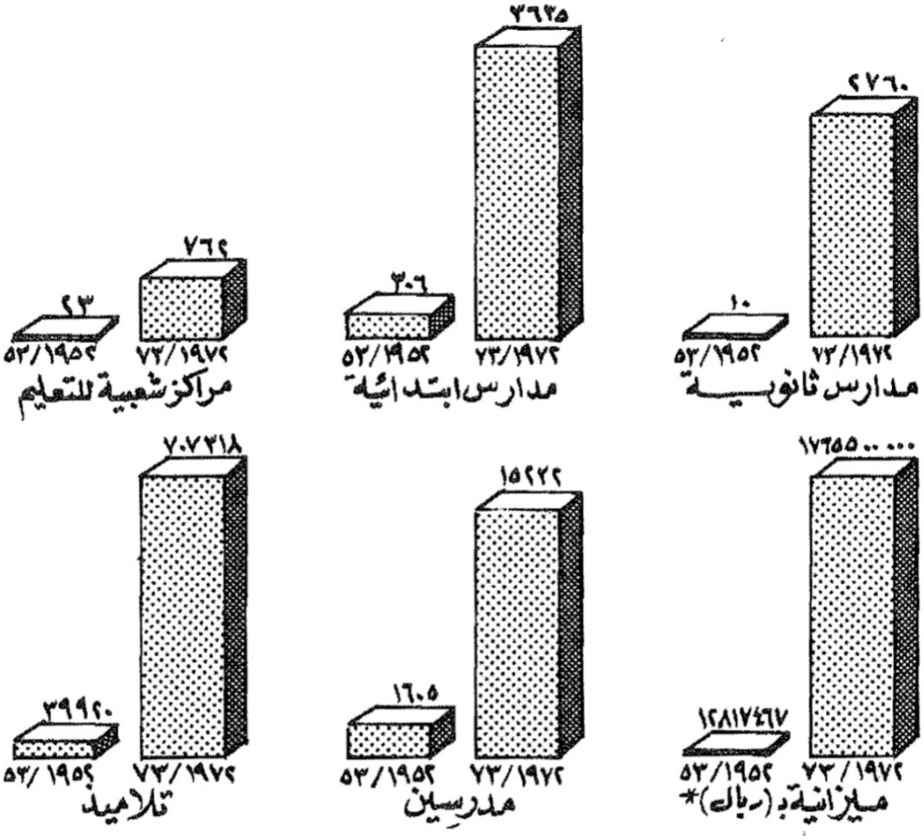

كيفية توزيع التعليم التقني والعالي (١٩٧٣ / ١٩٧٤)

المدينة	اسم المؤسسة	مجموع ما تضم	مواد التدريس
الهفوف	مدرسة تقنية متوسطة وثانوية	٢٠٣ تلاميذ ٧١ مدرِّس	
المدينة	مدرسة تقنية متوسطة وثانوية	١٥٤٠ تلميذ ١٦٢ مدرِّس	
جدة	مدرسة صناعية	٩٥٠ تلميذ ١٧٠ مدرِّس	
الرياض	معهد ملكي تقني	١٢٥٩ تلميذ ١٠٦ مدرِّس	القسم الأول : ٣٣ مهنة

الرياض	معهد ملكي تقني		القسم الثاني : سيارات ، كهرباء ، راديو ، تلفزيون
الظهران	معهد داخلي للصناعات البتروكيميائية	٥٢٣ تلميذ ٨٤ مدرِّس	مهندسين في العلوم البترولية والبتروكيميائية
جدة	جامعة عبد العزيز	١١١١٧ تلميذ ٢٠٩ أستاذ	تجارة ، اقتصاد ، مالية
الرياض	الجامعة الملكية	١٣٢٢٧ طالب ٣٢٨ أستاذ	ست كليات : اداب ، علوم ، صيدلة ، تجارة ، هندسة ، زراعة ، تعليم ، طب
مكة	معهد اسلامي	١٢٦٢٢ طالب ١٣٤ أستاذ	فقه ، شريعة ، حقوق ، أصول الدين

٤ —

٥ - توسيع شبكة الطرق

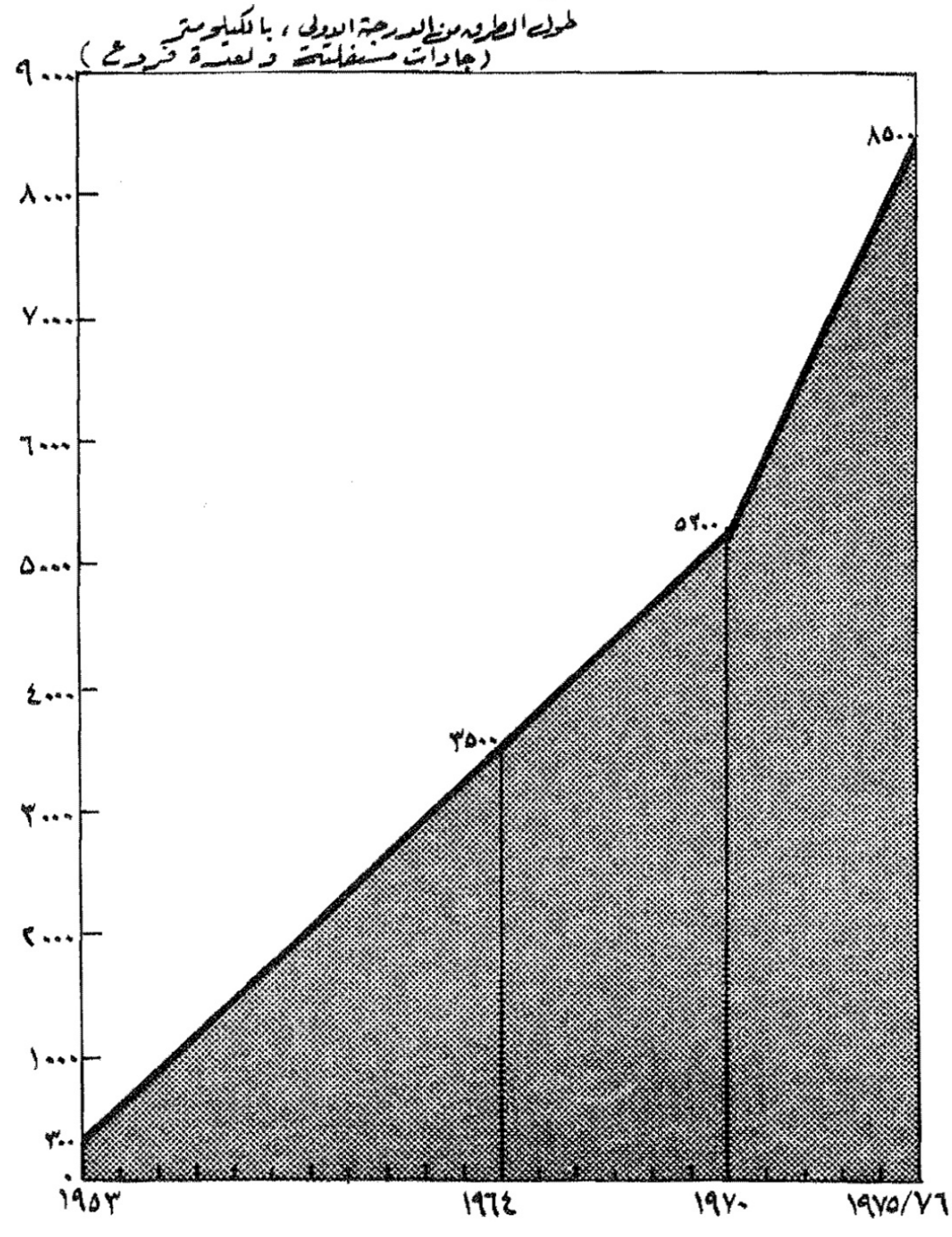

٦ - نموّ الانتاج والعائدات من النفط

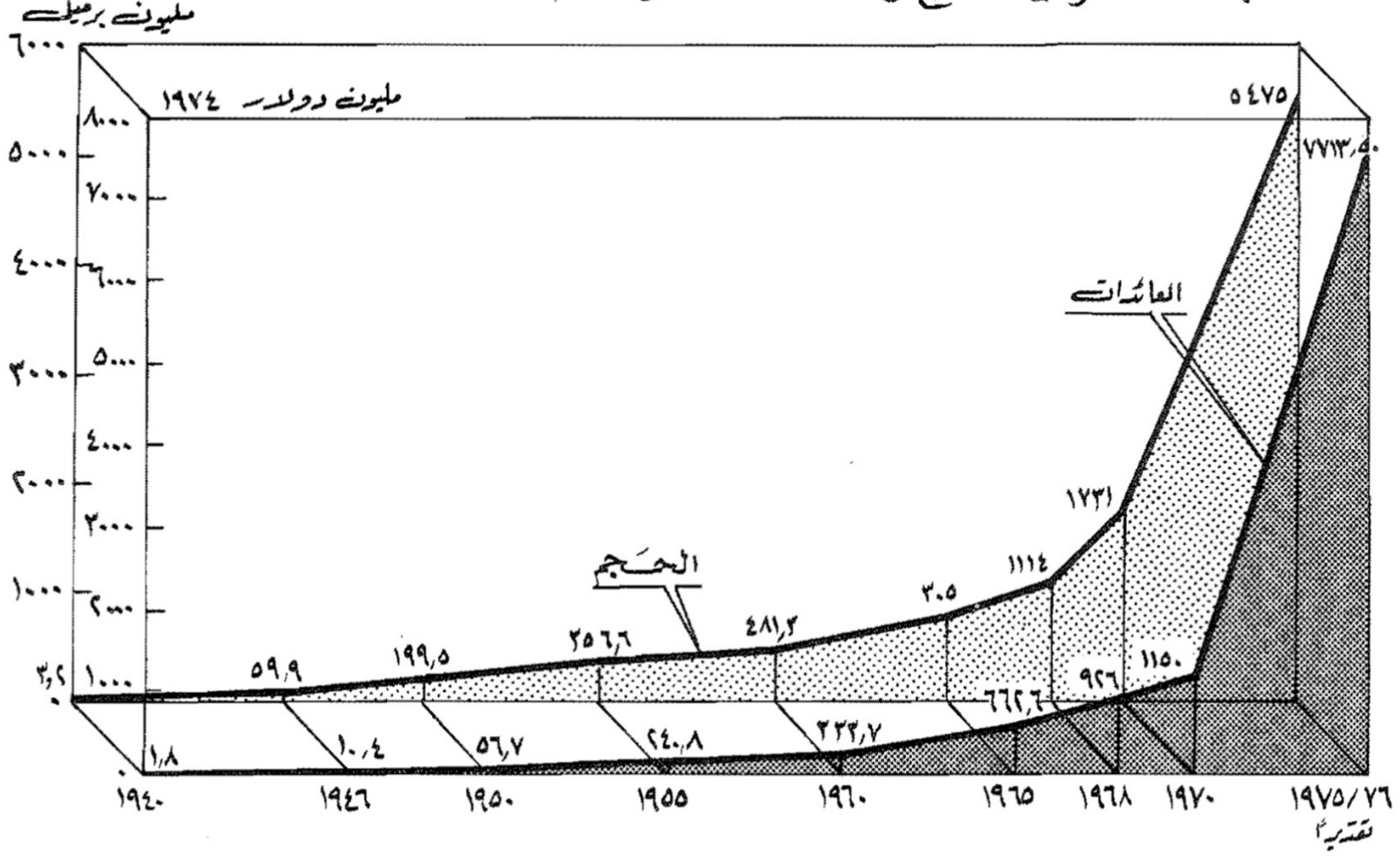

٧- الاحتياطي المؤكد من النفط سنة ١٩٧٤

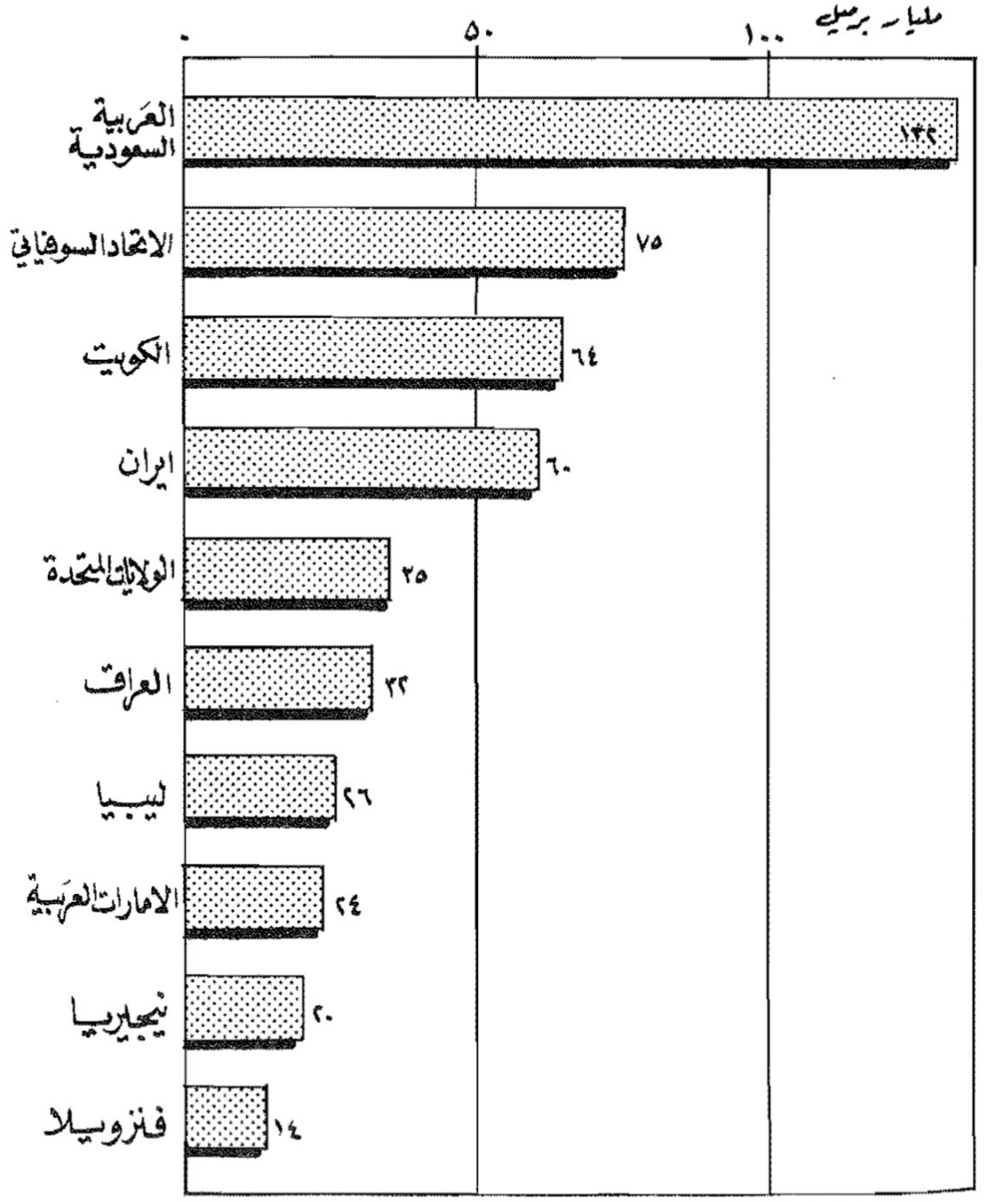

٨ - معدل النموّ الشهري من الانتاج الصناعي دون البناء
(على أساس معدل ثلاثة اشهر من النسبة المئوية)

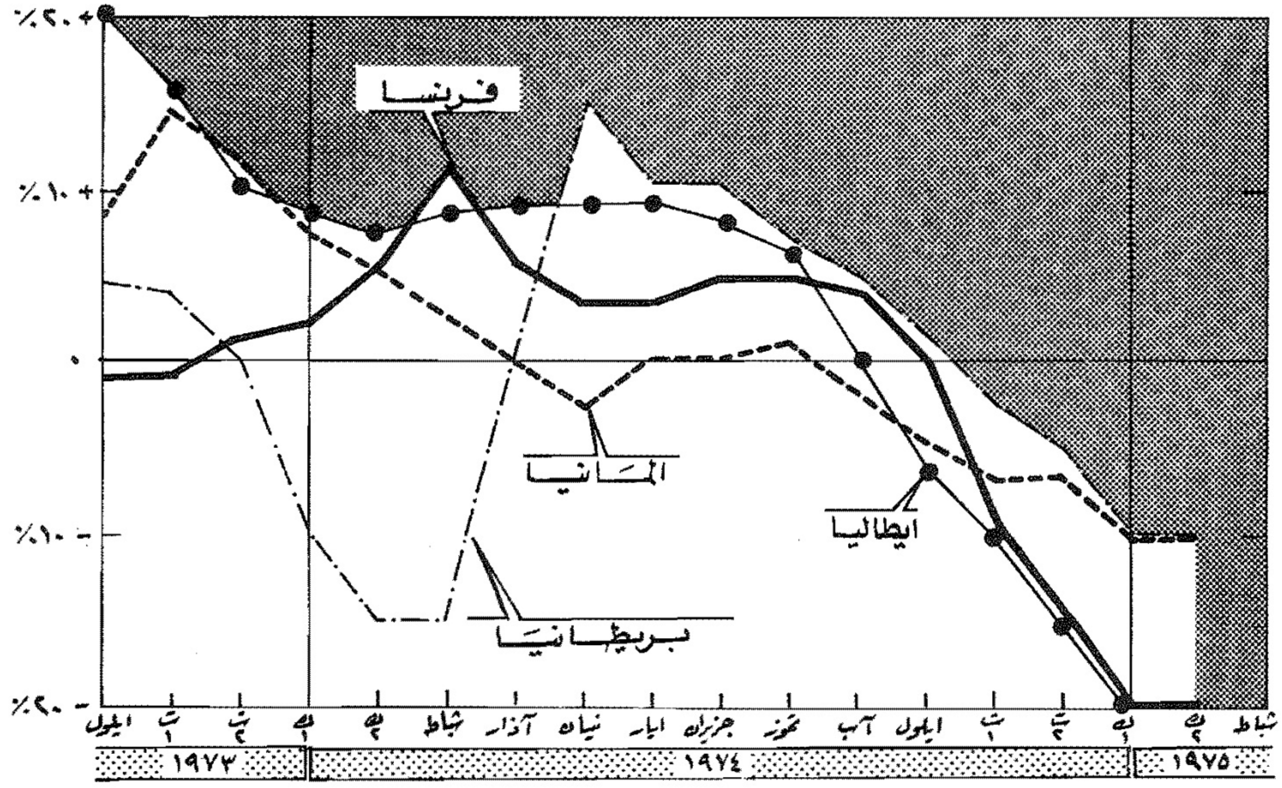

٩- تزايد عدد الحجاج الذين يزورون مكة

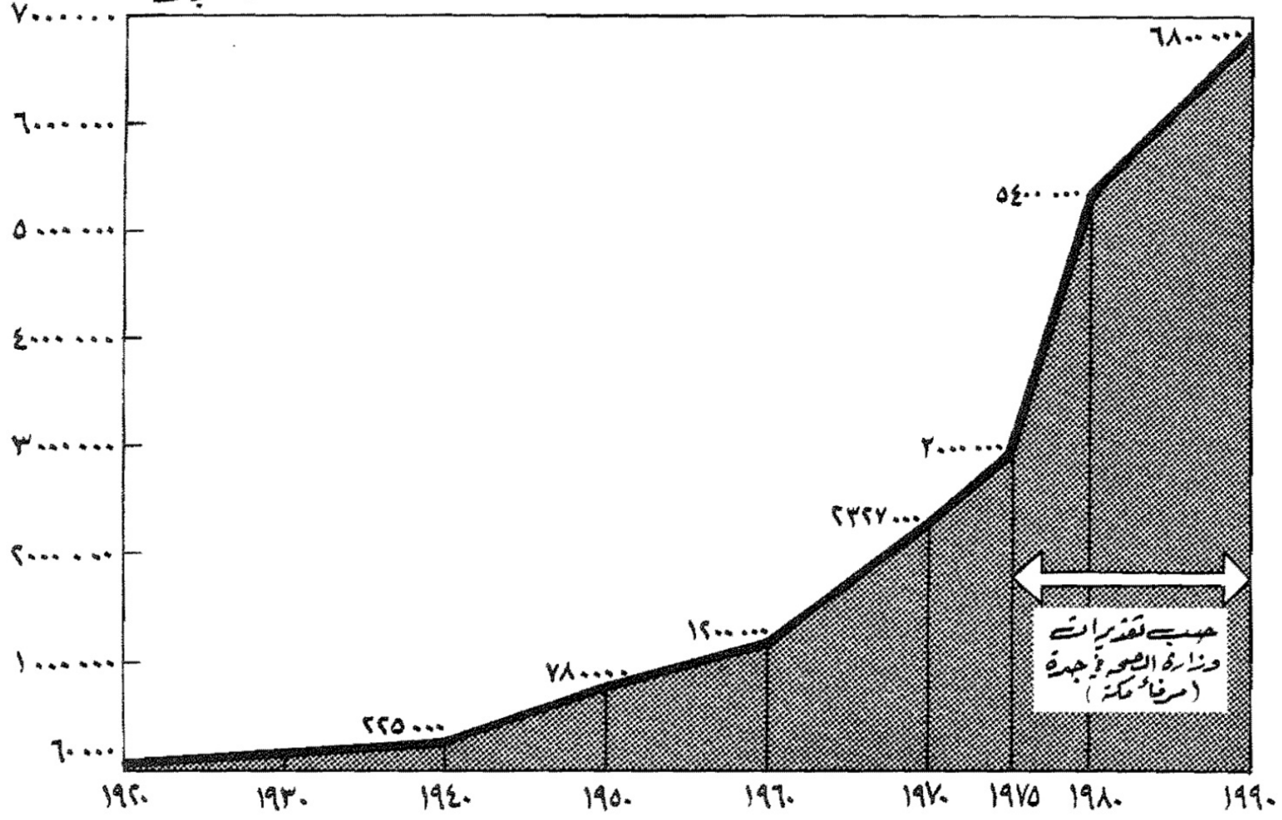

المراجع

العربية السعودية، (أرض المنجزات، جدة، وثائق سعودية

العربية السعودية، تقدم و إنماء، الرياض، وثائق سعودية

بنوا ميشان، الملك سعود. باريس 1960

بشارة و نعيم خضر، مخطوطات الثورة الفلسطينية، باريس 1975

براي، ن. ن. أ، الرمال المتحركة، لندن 1934

شوفالييه جان –ماري، رهان النفط الجديد، باريس 1973

دى غورى جيرالد، الجزيرة العربية، نخيل الجزيرة العربية، لندن 1946

دى غورى، فيصل ملك العربية السعودية، لندن 1966

فؤاد حمزة، في بلاد عسير، القاهرة 1951

الشيخ حافظ وهبه، أيام عربية، لندن 1964

هونوران، ميشال، آمال الصحراء

ليبنز، ب، رحلة في وسط الجزيرة العربية، باريس 1956

ليوتي، بيير، العربية السعودية اليوم، باريس 1957

فيلبي، هـ، سان ج، أيام عربية، لندن 1948

فيلبي، سان ج، اليوبيل العربي، لندن 1952

سركيس نقولا، النفط في الحاضر العربي، باريس 1975

سايكس، س، الطرق المتقاطعه تجاه إسرائيل، لندن 1965

توشل، ك، س، العربية السعودية

الولايات المتحدة الأميركية، 1958

وثائق و إحصائيات لغرفة التجارة الفرنسية العربية، باريس 1971- 74

العربية السعودية بين القرون الوسطى و القرن العشرين
مركز التوثيق الفرنسي رقم 230 يونيو (حزيران) 1974

فهرست الموضوعات

	ص
مقدمة المعرب	3
الباب الأول	
من ولادة فيصل حتى وفاة ابن سعود	7
حاج بين كثيرين غيره	8
تربية فيصل وشبابه	8
الأتراك والإنكليز يتصادمون في الشرق	11
فتح الأحساء	13
ابن سعود يتوجه نحو الأتراك	14
الحرب العالمية الأولى	16
مؤتمر السلام	19
فيصل يظهر أول مرة على المسرح الدولي	20
فيصلان يتلاقيان عند ضفاف السين	22
أول قيادات عسكرية	23
العمليات الحربية في عسير 1921 – 1924	24
توتر متزايد بين ابن سعود و الشريف حسين	25
الاستيلاء على الحجاز	26
سقوط جدة – حملة اليمن	27

فيصل نائب ملك في الحجاز – ووزير للشؤون الخارجية 30
اكتشاف النفط 32

الحرب العالمية الثانية – مقابلة كونسي 1945 35
تقسيم فلسطين 37
وفاة ابن سعود، سعود يصبح ملكاً 1953 38
الباب الثاني
فترة خلو العرش مع سعود 1953 – 1964 40
سعود يعتلي العرش 41
فيصل في مواجهة الثورة المصرية 41
مأزق اليمن 43
الملك سعود يعتزل العرش 46
الباب الثالث
فيصل ملك العربية السعودية 1964 – 1973 51
فيصل يتبوأ عرش البلاد 52
مؤتمر الخرطوم 53
فيصل ملك الجزيرة العربية 56

ملك تقدمي وشعب رجعي 56
مكانة الملك فيصل في العالم 70
رحلة الملك فيصل إلى باريس 72
الباب الرابع
السياسة العربية الجديدة 1973 – 1974 74

الصلاة في بيت المقدس 75
أنور السادات يخلف عبد الناصر 77
حرب أكتوبر – العمليات العسكرية 82
حرب أكتوبر – المناورات السياسية 85
حرب أكتوبر – جبهة النفط 90
مفاوضات الكيلومتر 101 – مؤتمر جينيف 94
مؤتمر السفراء 98
إلى البيت الأبيض في أثناء هذا الوقت 100
نيكسون يتوجه إلى القاهرة 103
الرئيس نيكسون ضيف على الملك فيصل 107
جيرالد فورد يخلف نيكسون 110
الأفق يسود 113
الملك فيصل يوزر دمشق و أسوان 117
فيصل يدافع عن الفلسطينيين 121
الظلال تتكثف 129

حركة مدهشة	131
الموت يضرب حول فيصل	133
هنري كيسنجر يعود إلى طريق الشرق	135
مجابهة مأساوية	138
ليل القدس	145
والآن، ماذا سيحدث بعد ذلك	148
الباب الخامس موت فيصل 25 مارس 1975	151
يوم المولد	152
الأمير خالد يخلف فيصلاً	154
من وضع السلاح بيد القاتل	155
مأتم الملك	157
كلمة الختام	160
اختفاء فيصل أحدث نزاعاً كبيراً في الشرق الأدنى	160
السادات في محاولة لتحريك السلام	163
خطاب أنور السادات أمام البرلمان المصري	165
وثائق متنوعة	168
مراجع	179
فهرست الموضوعات	181

خرائط و رسوم

1- تيارات الهجرة البشرية عبر الجزيرة العربية...

2- الإسلام و الامبراطورية العربية في قمة ازدهارها (750)

3- الجزيرة العربية قبل 1914.

4- الجزيرة العربية بعد 1918.

5- حقول نفطية و خطوط أنابيب البحرين و الإحساء.

6- امتيازات نفطية و أنابيب عبر الجزيرة العربية.

دار اسود للنشر

مركز فرح التجاري - شارع الحمراء - ص.ب ٩٠٦١ - بيروت

ت: ٣٤٦٠٣٥/٣٤ - ٣٤٩٩٦٩ برقياً: ديغليروم - تلكس ٢١٠٧٣ بيروت

مطبعة سيستكو

ت: ٣٨٣٦٩٥ - ٣٨٣٧٥٦ - بيروت - لبنان